

كِتَابَاتُ

سَبِيلُكَ السَّعَادَةُ

(في فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية)
« واثبات الروحانيات وفيه رد جليل على الطبيعيين »

تأليف

« فضيلة الأستاذ العلامة الجليل »
(الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوى)

« حقوق الطبع والاعادة محفوظة للمؤلف »

سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م

« كل نسخة لم تكن مخطوطة بحتم المؤلف أهدى نسخة ويحكم حامها »

مطبعة النهضة لايتية إنا فريد سن الجوف

تقاريط

سبيل السعادة

✽ الحيز الواحد لا يسع اثنين في آن واحد ✽

ستجلى عليك هذه التقاريط مرتبة يتلو بعضها بعضا، لئلا يقصده
الناس في التقديم والتأخير من وضعها على حسب درجات مقرظيها ،
فان ذلك يجب أن لا يكون في كتاب أخلاق مثل كتاب (سبيل
السعادة) بل يجب عليه أن يحارب تلك العادة وأمثالها ، وهاك ما
كتبه أولئك الفضلاء ، أصحاب التوقيع

كتابك يادجوى فاتحةالبشرى ومشرعة الاخلاق بل آية كبرى
أتى على الأم الاسلامية حين من الدهر وهم في غفلة معرضون
لا يقرأون من العلم الا قشوره ، ولا يعلمون من الكتاب الا سطوره ،
فضرب على آذانهم في الكهف بضع قرون ، وعزقهم الشيطان فتمزقوا
وهم عزون ، وذاق بعضهم بأس بعض بما نسوا ما يقرءون ، أو ما علموا
أن الكتاب انما نزل للهدى والرحمة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم
متم لمكارم الاخلاق (وانك لعلی خلق عظیم)

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا
فذكركم الامام الغزالي في القرن الخامس ما أغفلوه ، وعلمهم ابن
رشد في السادس ما جهلوه ، فأعرضوا عنهما واستكبروا ، وعبسوا وبسروا
وقالوا ان هذا الا ضلال مبين ، فعوقبت الامة بالتتار ، فاجتاحت

المملكة العباسية ، وبالاسبان فاستأصلوا الأم الإسلامية الاندلسية ،
ذلك لغفلة علمائهم ، وجهل كبرائهم ، ونبد حكائهم ، وها هو الزمان
قد استدار كنيثته ، فقام فاضل من فضلائها وحكيم من حكمائها ، يحاول
أن يرجع الأمة سابق مجدها ، وقديم عهدها ، بارجاعها الى أصول دينها
حتى تعرف أسرارها وتجتلي أنوارها ، وعسى أن يتبعه في ذلك السبيل
رجال الازهر الشريف فيتشبهوا بالسلف الصالح في علوم الدين ، فقد
فتح لهم الباب الاستاذ الدجوى في علم الاخلاق ، وهذا العمرى بارقة
الامل ، وفاتحة العمل ، وان كتاب الاستاذ لنور على نور ، والله
عاقبة الامور

طنطاوى جوهرى

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فى عشرين نوفمبر سنة ١٩١٢

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله خلق فسوى ، وقدر فهدى ، والصلاة والسلام على سيدنا
محمد الذى جاهد فى الله حق جهاده ، تارة بلسانه وطوراً بفضيه وسنانه
حتى قوض أركان الرذيلة ، وتم مكارم الاخلاق ، وعلى آله وصحبه
الناهجين نهجه المقتفين أثره

وبعد فقد عنيت بقراءة كتاب (سبيل السعادة) للاستاذ الامعى

البخاتة المدقق الشيخ يوسف الدجوي أحد كبار المدرسين
بالأزهر الشريف

فالفيتة قد رق لفظه ، ودق معناه ، وافقت أساليبه ، وتهيدات
أفانيته ، وأينعت ثماره وطاب جناه

ووجدت منه بحراً ولكن عذب ماؤه ، واتسعت أرجاؤه ، وبعد
غوره ، وكثرت لآلئه حتى زاحمت ماءه وضاعفت رواءه

قاله أنت (أيها الفضال) كم لك من حسنات وراء حسنات
تنقطع دونها أنفاس النظراء وتلهب من أجلاها قلوب الأعداء سرت في
(سبيل العادة) على منهج لم ينسج عليه قبلك ناسج وطرقت فيه أبواباً
لم يطرقتها دونك طارق

جلت بفكرك السامى وعقلك الثاقب في مشارق الأرض ومغاربها
وارتقيت الى النجوم وأفلاكها ، ودخلت في القلوب وسويدائها فأتيت
على ما فيها من الأسرار وما تحويه من العجائب

أخذت بيد الطائشين من شبان اليوم حتى لمسوا الفضيلة وشعروا
بضرورة الدين ،

وطالما تنزلت معهم (على رفعة قدرك) حتى سحرت عقولهم وخطبت
قلوبهم فانقادوا لك خاضعين وامتلأوا ارشادك صاغرين

حاججت الطبيعيين فأدحضت حججهم ، وأزلت شبهتهم ، وكشفت
عوارهم بعد ما أطلت جوارهم فلم تغن عنهم الحفريات شيئاً ولم تجدهم
الماديات نفعا

وانى وان كنت (أيها السيد) قد قرأت قبل كتابك هذا كتابا
فى الاخلاق كثيرة ولكن ما كل ماء كصداء ولا كل عطر
عطر عروس

والحق الذى لا مرية فيه أن كتابك سبيل السعادة هو سبيل
السعادة على الحقيقة وما سواه مجاز ولا غرابة فكل الصيد فى
جوق الفرا

أمتع الله بك وبكتبك ووقفنا وإياك الى ما فيه النفع العام للامة
والدين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

كتبه مصطفى عنانى

المدوس بمدرسه المعلمين الناصرية

(سبيل السعادة)

من شاء أن يرى الروح كيف يفيض من الملاء الاعلى ، وما علاقة
النفس الانسانية بذلك الروح الامين ، وكيف تشرق بنوره المبين
فتقشع ظلمات الكون ، ويظهر جئانها من أدناس الطبيعة فتطيب
اعراقها وتكرم اخلاقها ، وتلطف ادراكها وذوقها ، حتى تتصل بالملاء الاعلى
نزوعا وشوقا ، وما علاقتها بهذا الوجود ، ومنزلتها منه ووظيفتها فيه ، وكيف
تعمره ، وتهيمن على عوالمه ، من شاء أن يكون على شريعة من أمره فى
ذلك كله فليسلك سبيل السعادة ، وما سبيل السعادة ، كتاب كريم

لأستاذ عليم عرف ادواء قومه الدينية وبلواهم الدنيوية وعالهم الاجتماعية
وعوائقهم عن السعادة الحقيقية وتبين كيف يجلب الشيطان عليهم بخياله
ورجلاه، وكيف تأخذهم جنود الباطل عن أيمانهم وعن شمائلهم، وكيف
يعمهمون في ظلماته ويتيهون في مجاهله، ذلك الأستاذ هو الشيخ يوسف
الدجوى، خادم العلم ناصر الدين، فحاشت نفسه والمرء من إذا أبصر
قومه على خطر أخذته الحمية وثارت في قلبه النجدة فلم يدخر وسعا في
نصرهم ولم يأل جهدا في انتقاذهم وانتشالهم من أوحالهم فاتاهم بهذا
الكتاب المبين، في الدين وأسراره، والاخلاق وفلسفتها
والارواح واثباتها، والالحاد وادحاضه والمادة وتقضها وتزييف القول بها
فجاء الكتاب في تمكنه من النفس، وجلاله عنها، أشبه الكتب
بموضوعاتها، فهو كالروح يظهر من حيث يخفى، ويقرب من حيث ينأى
تذوقه النفس ولا تحده، وتدركه المشاعر ولا تراه، ويلمسه العقل وهو
يعجزه، وكذلك روح الله إذا أمد به عبده بهر العقول وحيير الافهام

فاني لمثل أن يأتي على أسرارہ یانا، ودقائقه حداً ووصفا وأناحياله
على حد قول سلطان العاشقين

وما عنه لم تفصح فانك أهله وأنت غريب عنه ان قلت فاصمت
وحسبي من القول فيه ان أتقدم الى شباننا وأبناء عصرنا، ناصحهم ان
يتصفحوه قراءة وياتوا عليه دراسة ثم ليكونوا بعد ذلك كما شاءوا فانا زعيم
بانه لا يبقى في نفس عاقل ريبا ولا في صدر متدبر شبهة، الا من كابر جحداً،

أو عرض عناد أو الله تعالى يقول (قد بينا الآيات لقوم يعقلون) وفق الله الاستاذ
وأيده على سبيله في خدمة قومه، ووأكثر أمثاله في أئمة المسلمين آمين

محمد عبد المطلب

بمدرسة القضاء الشرعي

وما الناس إلا واحد بقبيلة يعدو الف لا تعد بوحد
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
إلى فضيلة الاستاذ الدجوى رئيس جمعية النهضة الدينية الإسلامية
أيها الاستاذ أيديك الله، كم لك من أياد يعجز عنها الشكر،
ويضيق عندها البيان، أبرزت للناس في العام الماضي كتابك
(الجواب المنيف) فكان سلاحاً جديداً في يد الإسلام، على أحدث
طراز وأبدع منوال

نهضت نهضتك المعروفة، فأست جمعية العلماء والاعيان،
للمدافعة عن الدين، والاختد بناصر المسلمين

حاربت أعداء الدين بما تكتبه من آن لآخر، على صفحات
الصحف السيارة مما كان خطراً على جمعيات التبشير، وقضاء مبرماً على
هيكلمها الفخيم

نقلت لنا في كتابك (الجواب المنيف) من شهادات فلاسفة أوروبا للدين
الإسلامي ما لا مزيد عليه مما أحمر به وجه التبشير خجلاً، وضحك له سن الإسلام
سروراً

نظرت بعد أن فرغت من جهادك الخارجى الى أحوال أمتك
الداخلية ، فقامت تقوم من أودها ، وتصلح من أبناءها ، فألفت لهم
سبيل السعادة ، (وانه لسبيل السعادة)

كتاب أتى على أمراض الامة المتنوعة ، وأصول أدوائها المختلفة
فقضى عليها بالحجة الناصعة ، والبيان الواضح

كتاب يذكركنا عهد ابن سينا فى القرن العشرين ، ويعيد لنا عهد
الغزالي ، بعد ما تطاول عليه الالام ، فحبلته النفوس ، ونسيته الاقلام
كتاب يأخذ بيد الضال الى مناهج الهدى ، ويبقى الغوى مصارع

الردى

كتاب اذا نظر فيه الملحد تجلت له شمس الحق من سماء براهينه ،
وان نظر فيه المؤمن الكامل ازداد بآيات بيانه كمال يقينه ، وان نظر
فيه محب الفلسفة العلمية وجد ضالته المنشودة ، أو محب الدين
المتعشق لما جاء فيه من اللطائف والاسرار وجد بغيته المقصودة
وان نظر فيه المتعلم أوصله الى سعادته من أقرب طرقها ، وأوضح
مناهجها ، فله أنت من حكيم بعد نظره ، واتسعت فى الاصلاح
خطاه ، فلم يدع الى الدين دعاء من ينحى على الدنيا انحاء الجامدين
ولم يجعلها كل المقصد ، وغاية المرمى ، شأن الجاهلين (بل كان بين
ذلك قواما) وراثه نبوية ، وحكمة محمدية ، وأنظار قدسية ، وتأيدات
ربانية

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فجزاك الله يا أستاذ أحسن ما جازى به المخلصين لدينهم وأمتهم ،
وأكثر من أمثالك ، ونفع المسلمين بجليل أعمالك ، انه على ما يشاء
قدير ، وبالإجابة جدير
نور الدين محمد
أحد علماء الحنفية بالأزهر الشريف ١٥ مارث سنة ٩١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وأصحابه ،

أما بعد فانك قد تعلم (عصمنا الله وإياك من الزل) أن من الناس من
يأبون كبرا وعظمة أن يكون لهم الله يخضعون لأمره ، تنفذ فيهم إرادته ،
وتتصرف فيهم قدرته ، وتهذبهم تعاليمه ويؤدبهم دينه ، ولكنك تراهم مع
هذا الترفع الشامخ ، والعزة السامقة يأكلون من فضل ما أنكروه ،
ويشربون من فيض من جحدوه ، ويعيشون فى ملكه ، ولا يستطيعون
أن ينفذوا من أقطار سماواته وأرضه ، ثم اذا مسهم الضر فآليه يجأرون
ومنهم من اعترفوا بولاهم الذى خلقهم وسواهم ، ولكن أخذتهم العزة
أن يعلمهم بشر رسول ، واستكبروا عن الأديان الإلهية والكتب
السموية ، وزعموا أن فيهم من العقل ما يغنيهم عن هدى الرسل واتباع
ما جاءوا به من دين الله (أفغير دين الله ييغون وله أسلم من فى السموات
والارض طوعا وكرها وإليه يرجعون) ومنهم من أسلمت ألسنتهم

فشهدوا بر بهم و بر سوله و ندیت قلوبهم بر شحات من السنهم لا تروی
ولا تغنی من صدی ، فاذا رأیتهم تعجبت أجسامهم ، ولكنهم مراض
القلوب ، ربذت أیدیهم فی أعمال دنیاهم ، ولكنهم عن زاد الآخرة
شلاء

ومنه من طابت نفوسهم فلما سمعوا منادی ینادی بالایمان استمعوا
له وأنصتوا ورأوا الحق حقاً فاتبعوه ورأوا الباطل باطلاً فاجتنبوه ، وكانوا
فی ذلك أزواجاً اختلفت درجاتهم ، وتفاوتت مراتبهم ، وكلهم من
خشية ربهم مشفقون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ،
وبعد فیأیها الاستاذ الحکیم لا تعرض عن هذا ولا ذاك ، واذکر
أنهم عباد الله ، وأحب عباد الله الى الله أنفعهم لعباده ، فداو بالدين
أمرأضهم و اشرح بالقران صدورهم واغذ بالسنة أرواحهم ، وأيقظهم من
سباتهم ، وأنصرهم على أنفسهم وشیاطینهم ، وصل علیهم ان صلاتك
سکن لهم ، واصدع بما تؤمر ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، فعسى أن
یرى مبصر ، ويسمع واع ، وما أرى نقار أولئك الذين ذکرتهم عن
هدى الاسلام ، واعتساف المعتسفين عن جادته ، وتنكب المتنکین
عن سنته ، وتخلقهم بغير أخلاقه ، واستشفاءهم بغير طبه ، الا لانهم
رأوا صورة لم ترقهم فحسبوها صورته ، وسمعوا جرساً أزعجهم فتوهموه
نداءه ، ولقنوا تلقیناً ظنوه تعالیه ، فتحسسوا من روحه فلم يجدوا به
حراً كما فزعوا أنه دینا عادی العقول أو کاد ، فیأیها الحکیم قل لهم
هاوئم اقرأوا کتابیه ، وانی أرجوا أن تلبوا دعائیه ، فلعلکم ترون منه

صورة الاسلام غير ما رأيتم ، وتسمعون من حسن ندائه غير ما سمعتم
وتطالعون من أخلاقه على خلاف ما اطلعتم ، وتعلمون من طبه سوى
ما علمتم ، فيبين لكم أنه لا روح الا روحه ، ولا اعتقاد الا ببرهانه
ولا عقل الا بتعاليمه ، ولا عدل الا بقضائه . ولا أخلاق الا بتربيته ،
ولا اعتصام الا بجبلده ، ولا علم الا هو منه بسبب متين ، ولا سعادة الا
بكتابه المبين ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .
ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق .
أيها الحكيم قد تلوت من كتابك ما تلوت ، فشكرته فشكر الله لك
كتابك ، ونظرت فيه فرأيت أنه قد أنار طريق الدين للسالكين ، فزاد
الله بصيرتك نورا ، وسأله ما ذا يراد بك ، فقال وجه الله تعالى ونفع
عباده ، فقلت له بشر صاحبك بأنه يدعو الى الله تعالى الذى يقول
(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) (وهل جزاء الاحسان الا
الاحسان)

حسن منصور

مدرس بمدرسة القضاء الشرعى فى شهر ابريل سنة ١٩٤٤

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى أنعم على من اصطفى من النفوس البشرية بكوؤوس
المعرفة حتى أرواها وأرشدتها بنور الالهام فلم يحجبها عن الجادة هواها
وشرف الفضلاء بما أودع فيهم من الاخلاق المرضية ، وفضل العلماء

بما ورثهم من حفظ أسرار الشريعة الإسلامية ، والصلاة والسلام على من فضله الله على كافة الخلق على الإطلاق لتتميم مكارم الاخلاق سيدنا محمد الذي ما نطق في تبليغ شريعته الغراء عن الهوى ، وما ضل في هداية أتباعه عن الحق وما غوى ، وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بتشيد الحق وتأييده ، وتقويض الباطل وتبديده ، ومن تبعهم فسلك بهم سبيل السعادة ، وفاز من فيض الله بالخير والزيادة

أما بعد فقد سرحت نظري في مواضع من كتب سبيل السعادة في فلسفة الاخلاق الدينية ، وأسرار الشريعة الإسلامية ، تأليف العلامة المحقق والفهامة المدقق ، من له في سبيل التحقيق الجمع والقصر ، الاستاذ الفاضل الشيخ يوسف احمد نصر ، فوجدته كتابا بديعا لم ينسج ناسج على منواله ، ولم يحم أحد من المؤلفين حول شكله ومثاله ، لما احتوى عليه من بدائع المعاني التي يخالها الناظر مثاني ، ومن فوائد تزي بالدرر صيغت في الفاظ حسان غرر لم تصدر الا عن ملكة رصينة البنيان ، اذ تكفلت بأحكام هاتيك المعاني في قالب التبيان ، فناهيك به من كتاب جلت مقاصده ، وطابت مصادره وموارده ، تقتطف من أوراقه ثمرات التحقيق ، ويفوح من أدراجه عبير التدقيق ، ويفوق بحسنه كل مؤلف ، ويسمو بروثقه على كل مصنف ، قد أودعه مؤلفه ما يكشف عن الابحاث القويمة غشاء غمتها ، ويحل من صعاب المشكلات العقيمة وثاق عقدها - فلعمرى أن مؤلفه جاد بهذا التأليف على فضلاء هذا العصر وأجاد ، وحاز بهذا التصنيف رتبة الانفراد ، تقبل الله منه هذا

العمل الجليل المبرور ، وضاعف له عليه جزيل الاجور ، ونفع به
الطلاب ، وبلغنى واياه الطلاب ، وجعلنا ممن اثمر بالكتاب والسنة
وانتهى ، والى الخير والكمال انتهى

عبد الغنى محمود

أحد علماء الازهر والمدرس بمدرسة القضاء الشرعى
ابراهيم الحيدى من هيئة كبار العلماء بالازهر أول مايو سنة ٩١٤

تقرير المفضل الكبير صاحب العزة

﴿ حفى بك ناصف ﴾

(وقد أرسلنا اليه بعض الموضوعات فطالعهها ثم كتب عليها)
قرأت هذا الباب وهو بعض الكتاب ، فاستفدت منه ما لم أستفده
من عدة أسفار ، ووقفت منه على كشف كثير من الاسرار ، معان عاليه
وعبارات شافية فشكراً لفتح هذا الباب وثناءً على عمله المستطاب

(تقریظ امام اللغة الاستاذ العظيم الشيخ حمزه فتح الله)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد رساله محمد وآله

أي شيخ الدين

تصفحت كتبتك الذي أسميته سبيل السعادة فأكبرته تكريماً
وصغرتة تعظيماً لكوني آنت منه محتاجاً لأوهام الرين كخوينيه
(١) لبید (فی احدى الروایتین) مع جواهر عبارات يروق رواؤها
كالخمر بعد الجمود ، والجمر قبل الجمود
أما مقدمته فقد تلوتها جمعاء لأنها عين جواده النجلاء فأحمدته
وما فررتة ، بل قلت ان الجواد عينه فراره (٢) ومع وضوح الحق منه
كيف يراد بالهوان عراره ، فالقد شخصت الداء فنجع الدواء
أجل أن صحة التشخيص هي الطب بعينه غير انه قلما يهتدى
اليها ،

(١) يشير الى قول لبید

وكل أناس سوف تنزل بينهم دويبية تصفر منها الانامل

وفي روايه خوينيه وهي بمعناها

(٢) مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه وأصله من فر الدابة

كشف عن أسنانها لينظر ما سنها وهو مثلث الفاء

قالوا لان أعراض الاخلاق قد تتشابه لسبب ما وهناك منزلة
اقدام النطس ، لانها اذا عولجت حسب ظاهرها كان الدواء شراً
من الدواء ،

يألم الشيخ وحق له أن يألم من نبد بعض أحداثنا دينهم ، ولو
درى أن لا ثبب لذلك سوى استحكام الشهوات البهيمية في نفوسهم
الدنية لكان عليه الخطب فانهم قلدوا بعض متعلمي الفرنج وهم أولوا
القوة الآن في أن المروق من الدين شرط لكل مستنير بالعلوم التي
يسمونها عصرية لانه يحظر عليهم تلك الشهوات بعد اطلاق الحرية
وثالثه الاتاني فقدان الوازع والاسوة ببعض من شأنه أن يقتدى
به وزعمهم أن في تلك العلوم ما لا ينطبق على الدين فنسبوه للقصور
والجود وعدم الصلاحية للقرن العشرين فاجترأوا عليه بالاحاد وظفروا
لنحلة الاجتهاد ولو عقلوا ما أنتجه هذا المروق لأراحوا واستراحوا ،
ياهيء مالي (١) مع كونهم لم يعرفوا من الدين غير اسمه ولا من علمه
سوى رسمه ولا ان المرتد لم يكن مؤمناً والا انقلب العلم جهلاً ثم
نضم الى السبب السابق جيشان سورة الراح الذي لم يبق من عقولهم
الا مقدار ما بقي في الاقداح وكأنما عناهم من وصفها بقوله :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفي الزجاجة باق يطلب الباقي
ولولا أنه ليس في الشر خيار لقلنا أنهم لم يحسنوا الكفر كما أحسنه

شيخهم إبليس اذ توكأ على شبهة عنصرية باطلة ، وما دروا أن تقليدهم من ذكر مقتض لثباتهم على الدين فجعلوا المقتضى مانعاً والموجب سالباً . ذلك لان صاحبه عليه الصلاة والسلام صح عنه الاخبار بما كان وما يكون ^(١) حتى هذا التقليد وحتى المسألة الشرقية ^(٢) التي تجيش مراجعها الآن مشبهاً لها بما شبهتها به أوروبا وتلك معجزة أخرى ونسوا أو تناسوا أن أساطين الفلاسفة في أوروبا وأمريكا مجمعون الآن على أن كثيراً من مكتشفات هذه العلوم حدس وتخمين ورجم بالغيب وأنه عسى أن يثبت لهم غداً ضد ما أثبتوه اليوم كما ثبت لهم اليوم ضد ما أثبتوه أمس

ونحن لا نبخسهم أشياءهم في تقدمهم المادى وانهم في ازدياد منه

(١) الاخبار بما كان وما يكون في صفحة ١٠٦ من الجزء الرابع

من صحيح البخارى

(٢) قال في مشكاة المصابيح عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم توشك الامم أن تتداعى لقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والاموال كما تتداعى الآكله الى قصعتها فقال قائل أمن قلة يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غشاء كغشاء السيل (اى) لقلة شجاعتكم ودناءة قدركم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم ثم قال فى آخر الحديث ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن رواه أبو داود والبيهقي فى دلائل النبوة

كل يوم ونؤيد اجماعهم هذا بأن ظواهر الكون لا تكاد تنهاى وانه
يجوز أن يكون لها دواع خفية هى أسبابها الحقيقية المطابقة للدين ،
فالأوباء مثلاً سببها الدينى فشوا الكبائر فان لم ينقضوا ما اكتشفوه
من ان سببها فساد الجور وتلك المكروبات فيجوز أن ذلك يخلق
عند هذا الفشور وعلى ذلك فقس

وقد تقرر عند الفضلاء أن عدم العلم بشيء لا يستلزم عدمه وان
عدم الدليل لا يقتضى عدم المدلول ولا مانع أيضاً من أن يكون لجلة
هذه المكتشفات أوكلتها سابقة فى الوجود أخنى عليها الذى أخنى
على لبد وان فى بناء الاهرام وحفظ جثمان للوتى الذى لا تزال تجهله
أوروبا وفى تلك الصور المنقورة فى جزر مقابر الملوك تجاهد مدينة
الاقصر واختلاف ألوانها التى تتغير بأدنى ضوء بيد من يتأملها مع شدة
ظلام قيعانها المنحوتة فى قاع الجبال واستحالة صنعها فى ذلك الظلام
وهى الآن كأنما رفعت عنها يد الصناع ما فيه كفاية للمنصف ولذا
ضعفت ثقتهم بالمادة وأولعوا بما وراءها كما ستسمع

اما ان شيئاً من تلك المكتشفات متحل عنا أو متوارد عليه فمحقق
حتى فى الجاهلية كالتنويم لمعرفة المجهرل واستحضار الارواح وارقة
الزيت فى البحر وتلقيح الرياح وبرد الحمى بالماء وترتيب مولغ الكلب
والعلاج بالحفا وأما التيقظ لتلك المعرفة كما فعله بعض الخلفاء فلم يبلغنا
استعماله فى أوروبا ويرحم الله جار الله حيث يقول :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهالاته يتقمم (١)

(١) تقمّم ذهب فى الماء وغمر به حتى غرق

ما بالتراب والعلوم ونحوه بحيث يعلم أنه لا يعلم
لا جرم أن في المركبات العنصرية خواص تستتبع آثاراً عجيبة
كالمغناطيس والكهرباء والحجر الباغض للخل إذا أهوى به إليه انحرف
فسقط بعيداً عنه وكالحجر الجاذب للمطر مع قصر العقول عن معرفة
كنه الخواص الناشئة عنها تلك الآثار وأنه يجوز أن يدرك بحاسة
ما يدرك بالآخرى كل ذلك فرغت منه علماء الملة السمحة قبل خلق
أولئك الاساطين ولست أحيالك على كتبنا بل على تلك الفلاسفة
راجع المقتطف والمحال بعنوان آياته في خلقه والفتاة الإيطالية التي تبصر
بالسمع وتذوق باللمس وما قاله رئيس وزراء إنجلترا سابقاً المسيو بلفور
وقد رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج الجامعة أثناء
أغسطس سنة ١٩٠٤ مما قضى به على معرفة كنه المادة وأن منتهى
علمها مبتدأ جهلها كما يقول الشاعر العربي

كأن الحب دائرة بقلبي فحيث الابتداء الانتهاء

وصرح بعض جهابذتهم بأنه متخوف جداً من أن علومهم التي
يفتخرون بها الآن يظهر بعد مائة سنة أنها باطلة منسوخة وهي شذشنة
أعرفها من أخزم فإن دعائم الفلسفة القديمة أفلاطون وأرسطو
و بطليموس وجالينوس قاذون في الحس

بلى ان الجاهل من رمى الدين بالجمود اذ هو كافل لصلاح العالم
معاشاً ومعاداً

وفي قضاء أمير المؤمنين على عليه السلام في نازله ان أهون السقى

التشريع وقول عمر بن عبد العزيز تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا
من الفجور وما لا يحصى من هذا القبيل غناء لمن تدبر ، فما أحسن
قولاك من أنت يا رسطوا الخ (١)

نعم واذا كرنى مقولك في العقل ما ذهب اليه الشيخ الا كبر قدس
سره من تقديم الدليل النقلى على العقلى فقال :
على السمع عولنا فكنا أولى النهى ولا علم الا ما يكون على السمع
وقال :

كيف للعقل دليل والذي قد بناه العقل بالكشف انهم
الى أن قال :

كل علم يشهد الشرع له هو علم فيه فليعتصر
واذا خالفه العقل فقل طورك الزم ما لكم فيه قدم
ويؤيده قول الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ان للعقل حدا
ينتهى اليه كما ان للبصر حد اينتهى اليه وقول الامام الغزالى ولا تستبعد
أيها المعتكف في عالم العقل ان يكون وراء العقل طور اخر يظهر فيه
مالا يظهر في العقل الى آخر ما قاله وقال أيضا أنه بعد وقوع بعثة الرسل
وثبوت تصديقهم بالمعجزات ينتهى تصرف العقل ويتلقى من الرسول

(١) يشير الى قولنا اثناء الكتاب في بعض الموضوعات

من أنت يا رسطوا ومن أفلاط قبلك قد تفرد
ما انتموا الا الفرا ش رأى السراج وقد توقد
فدني فاحرق نفسه ولو اهتدي رشداً لا بعد

عليه الصلاة والسلام ما يقوله في الله تعالى وفي أمر المبدأ والمنعاد . وليس في عدم ادراك العقل حكمة بعض الشرعيات كالتعبدات من مناسك الحج وغيرها وكالقضاء والقدر من خير لقصور الافهام من أغلب المكلفين والنهي عن تحديثهم بما لا يفهمون اشتقاقا عليهم والا فذلك من أحسن الحكم ما تمنع له أعظم العقول السليمة لانه اذا كانت أفعال عقلاء العباد تصان عن العبث فكيف بالمعبود تقدست أسماؤه وجل ثناؤه ومع قيام القواطع العقلية والنقلية على وجوب اتصافه تعالى بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص كيف يسأل عما يفعل وفي القوانين الحربية المتبعة الآن في أوروبا وغيرها أن أوامر القواد واجبة التنفيذ فورا ولو كان فيها حثف المأمور وانه لو قال لا أمره لم ذلك لكان جوابه اطلال دمه وأنت لو استفتيت وجدانك لشعرت باستباح ذلك لمخدومك أو رئيسك بل لمن تحترمه وتعتقد كماله من أمثالك لان لم رية تشعر بالهمة وهي سبب الخذلان الابدی لا بليس وحزبه

أي هذا الاحق أتدرى من اتهمت وعلى من اجترأت وفي من ارتبت ومن أسماؤه الحسنى الحكيم وما قدروا الله حق قدره سبحانه فلولاً حله لهوى عرشه

وان قميصا خيط من نسج تسعة وعشرين حرفا عن معاليه قاصر
ويكفيك من هذا الجمال اشارة ودعه مصونا بالجلال محجبا
لا في عبد مثلك تكسره الجوعة وتطغيه الشبعة وتستفزه بوادر
القوة الغضبية وتستعبده الشهوة الحيوانية .

على ان في الاذعان مع خفاء الحكمة كسراً لحدّة النفس الامارة
وتربية لها وتدرجاً لترقيتها وشتان بين من يعمل لمجرد الاتقياد والخضوع
لرب العباد وبين من يعمل عالماً بالحكمة والمصلحة اذ ربما خالطه
العجب فاحبط أعماله

وبالاجمال فقد أحسنت يشيخ الدين وأديت فرض الكفاية عن
علماء المسلمين وشفيت السقام ورويت الأوام وكشفت اللثام عن ان في
الفلسفة قديماً وحديثاً ما وهن ووهى وان الى ربك المنتهى
الفقير اليه عز شأنه
حمزه فتح الله

في ٢٤ ربيع الانور سنة ١٣٣٢

﴿ فهرست كتاب سبيل السعادة ﴾

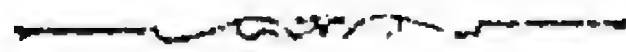
صفحة	
٣	مقدمة الكتاب
٧	ايقاف القارىء على بعض ما فى الكتاب
١١	مقدمات يشيد عليها صرح ببناء الاخلاق
١١	الانسان مجمع العجائب والغرائب
١٥	حقيقة فلسفية ضل فيها كثير من الناس
٢٠	الروحانيات
٢٠	اثبات الروح
٢٣	ايضاح وبيان
٢٨	سبب اشتباه الماديين وغلطهم فى هذا الموضوع
٣٣	شرح بعض صفات الروح
٣٤	أدلة اثبات الروح من كلام علماء الاولين وتزعم والاسبرتز
٤٠	ما نقل عن حجة الاسلام أبى حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية فى هذا الموضوع
٤٢	محاورة علميه مع بعض ذوى العلوم الجديدة
٤٤	بيان شوق الارواح الى العلوم والمعارف
٤٥	السرف فى تفضيل اللذة المعنوية على اللذة الحسية
٤٦	بيان ان النفس اذا تزكت اطاعت على المغيبات
٥٠	الفرق بين الاولياء وغيرهم فى هذا الموضوع

بيان معنى مرض القلوب وموتها والسبب في عدم احساس الناس بذلك	٥٣
النفس وما جبلت عليه بعد اتصالها بهذا الهيكل الجسماني	٥٧
سبب تقدم المنافقين ورفعتهم	٦١
بيان السبب في أن الانسان لا يعرف عيب نفسه	٦٢
بيان ما هو الطريق الى معرفة عيوب النفس	٦٦
بيان اختلاف الناس في قبول الاخلاق وما للمخالطة من الآثار الحسنة والسيئة	٦٨
بيان تفصيل المملكة الانسانية وذكر أمثلة لها	٧٢
وجهة أخرى في البيان	٧٤
بيان ما تكتسب به الاخلاق الفاضلة	٧٨
كلمة بمناسبة ذكر القوانين	٨٢
توجيه نظر الى أمر يفيدك	٨٤
بيان أن سعادة الانسان وشرفه ليسا بكثرة المال	٨٦
بيان أن طالب الدنيا محال عليه أن يستريح	٨٨
بيان أن الناس متساوون في السعادة والراحة لولا توهم باطل	٩٠
الكافر يطلب الدنيا والمؤمن يطلب الدنيا والآخرة	٩٣
القول الفصل فيما جاءت به الشريعة من اللذائذ البدنية والمطالب الدنيوية	٩٦
تتمة للموضوع بذكر سائحة فيه	١٠٢
الشرعيات	١٠٤
الشريعة منبع السعادة	١٠٤

ذكر شيء مما جاءت به الشريعة على التفصيل	١٠٧
مقارنة الشريعة بالقوانين الوضعية	١١٦
الاسلام دين الرحمة والحكمة لا دين القسوة والتعصب	١٢٠
الدين منبع السياسة الحقيقية والتربية الصحيحة	١٢٥
أحاديث نبوية في مكارم الاخلاق	١٣٣
ذكر شيء من شمائله صلى الله عليه وسلم	١٣٩
آيات من القرآن العزيز	١٤١
أوصاف المتقين	١٤٤
أوصاف المنافقين	١٤٤
عجيب أن يعادوه في بلادهم ويدعونا اليه ههنا	١٤٥
أسباب الشقاء التي يجب البعد عنها	١٥٠
غلطات ينبغي التنبيه لها	١٥٣
كلمة عن العلماء	١٦٢
بيان السبب في أن الدين لا يؤبه له ولا يرتفع صوته	١٦٥
بيان الواجب في هذا الموضوع على الأمة عموماً وعلى مشيخة الازهر خصوصاً	١٧٠
تكميل جليل في فوائد متفرقة	١٧٤
الفرق بين اهل الدين وغيرهم	١٩٢
تأثير عمل الخير والشر في نفوس العاملين	١٩٦
خاتمة في بيان معنى العالم الذي نوه الدين بذكره	١٩٩

(تذييه)

يوجد بالتقاريف بعض غلطات مطبعة خفيفة لما اقتضاه الحال من
الاسراع بطبعها وهي من الواضح بحيث لا تحتاج الى هذا
التذيه الاجمالي



كِتَابُ

سَبِيلُكَ لِلْعَمَلَةِ

(في فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية)
« واثبات الروحانيات وفيه رد جليل على الطبيعيين »

تأليف

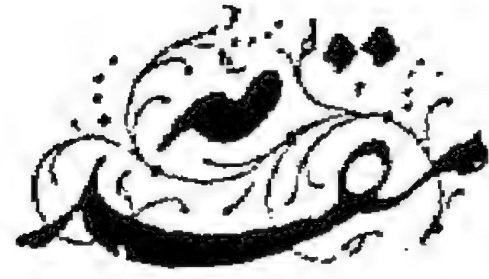
« فضيلة الأستاذ العلامة الجليل »
(الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوى)

« حقوق الطبع والاعادة محفوظة للمؤلف »

سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م

« كل نسخة لم تكن محتومة بختم المؤلف تدمر وثة ويحاكم حامليها »

مُطْبَعَةُ النَهْضَةِ لِادْبِيَّةِنا فَرْدِيسِ الْجَوْفِ



تشتمل على سبب تأليف الكتاب وبيان بعض أوصافه
قد أضمنت حقائق كثيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، وآله
وأصحابه (وبعد) فقد منى الاسلام من أنبائه بما شوه وجهه
الجميل ، وكاد يذهب بروائه وبهائه ، ويمثله للأجانب في شكل
المعتقدات الخرافية ، أو الصور الخيالية ، وقد وجدنا الأخلاق الدينية
والتعاليم الاسلامية قد عفت رسومها ، وانمحت آثارها من نفوس
كثير من شباننا الذين دهمتهم تلك النزعات الجديدة ونفوسهم
مستعدة لقبول ما يغرس فيها من خير أو شر ، ولكن لسوء حظهم
وعدم حظنا بهم لم يتح لهم الا ذلك الشر المستطير (فصادف قلباً
خالياً فتمكنا) فضاءوا منا وما كان أحوجنا اليهم وما كان أقواهم
لو كانوا معنا لا علينا

وأن لهم لدى الانصاف ما يحرك منك الرحمة ، فتلتبس لهم بعض

المعاذير كما أن لا بلاتهم وعلماهم وأمتهم من الذنب ما تأتي غيرتك
وحديثك أن تغفره لهم حيث أغفلوا تربيتهم الدينية، ولم يعنوا بما يجب
أن يكونوا عليه من المالكات الفاضلة، والاخلاق السكاملة، واصلاح
ظاهرهم وباطنهم، ودينهم ودنياهم، فعلى الأمة أن تتلافى ذلك الخطر
الذي لو دام (لا قدر الله) لآتى على بنايتها من التواعد وفككت
أعظم روابطها، وقضى على أكبر جامعة لها، فانفصمت عراها، وقد
كانت أقوى العرى، وأنجع الوسائل في ائتلاف العناصر المختلفة
والشعوب المتباينة، وعلى العلماء ان يستثيروا الحية من قلوبهم، ويؤدوا
واجب وظيفة الدينية، ويقوموا بمقتضى وراثتهم النبوية فقد كان
ينبغي أن يكونوا حماة الدين، ومثال اليقين، ولا يدعوا أبناء المسلمين
تتخطفهم من حولنا بهرجة المدنية الغربية التي اعتقدوا كمالها في العلوم
والمعارف، والاخلاق والعادات، فرجعوا الى تعاليمها في كل شئ حتى
في الأمور الدينية، والاسرار الروحانية، كما اعتقدوا (ونعتقد معهم)
كمالها في الصناعات والاختراعات وجميع الجثمانيات، فليهبوا العلماء من
سباتهم كي يرفعوا الدين مناره، ويبينوا للناس أسرارها، وليتحركوا أيديهم
الله بمحركة هذا العصر الجاضر فأن الحكيم ابن وقته، وأنى أجهلهم أن
لا يكون قد قرع سمعهم صوت هذا العصر الذي أزعج عوالم الماء
واخترق جو السماء، وأن المتكلمين في الدين اليوم الذين يزعمون
أنهم حماة وأنصاره لا يكادون يتخطون أحد رجلين:
رجل لم تبعثه التقلبات على كثرتها، والحوادث على شدة شكيمتها،

من مرقد جموده على ما ورت مما كان يناسب قوماً آخرين وكأنه
وهو بين ظهرائنا) من رجال عصر لا ينبثق عنه سوى التاريخ فلم
يجمع بذلاً الانقلاب في الأفكار والتبدل في طريقة الاستبصار (وقد
بهر الداء فيجب تغيير الدواء) فتراه يحيل ذلك كله فإذا خطب
ينقب عن أسرار الدين تنقيب العالم الحكيم، فيبرزها بأصعة تتجلى
، ثوب من الضياء، وقد أقشعت عنها غيوم الخفاء، فراها ضعيف
لنظره، ولم يعش عنها كليل البصر، بل تجده يحيطها بما شاء له استعداد
من قشور سمكة، وحجب كثيفة، وربما سار بها في طريق التخيلات
ومزجها بكثير من الترهات، فنفرت منها العقول، ونبت عنها أنظار
القلوب، وقد يدعوا ذلك إلى شدة انتقاد وسوء اعتقاد

وإذا كتب قائماً يكتب بقلم دفن تحت أطباق الثرى حتى
انحلت أجزاءه، وتفرقت عناصره، فأصبح غير كاف في الإفاده،
ولا صالح للكتابة

ورجل عصرى عرف ما تداوى به الأدوية، وتميل إليه الأهواء
وقد كاد يرجي منه الشفاء لولا أنه غير مكين في العلم ومعرفة أسرار
الدين ومراميه، وليس له من سعة النظر ومتانة اليقين ونور البصيرة
ما يوقفه على مزايده، ودقائق خفاياه فلم يستطع أن يرد بعدة عامه
الضئيل تيار المعلومات الجديدة، ويقاوم جيش تلك الأفكار الحادة
وكثيراً ما تغلب عليه المحافظة على العلوم الحديثة، والرسوم الجديدة
(وهي مزيتها التي امتاز بها على غيره) فيعدل بالدين عن سنته،

وينحرف به عن طريقه ، غير متغلغل الى روحه الباطن ، ولا واصل الى
مرماد البعيد ، فكانت النتيجة أنه أراد أن يهديهم فأضلوه ، وأن يأخذهم
فأخذوه ، فانه أوتى من الحظ اللسان أكثر مما أوتى من الحظ القلبى ،
فأحييت أن أبرز لك مؤلفاً تجد فيه طلبه روحك وبدنتك ، وبغية
علمك وعقلك ، وسعاده دينك ودنياك ، وأنى معك على ما تحب من
الدليل والبرهان ، والدوق والوجدان ، فهناك كتاباً يجمع بين الطريقة
العصرية ، والدقة الفلسفية والوجهة الدينية ، والبراهين العقلية ، ويوافقك
بما تتوق اليه نفسك من أسرار الدين ، ومكارم الاخلاق ، وعلاج أدواء
النفوس ، مرشداً الى أن التربية ليست على ما يظن الناس ، مبنياً ما أودع
فيك من أسرار غفلت عنها ، وأوغلت فى البعد منها ، وقد كنت بها
روح المسكونات ، ومرآة تتجلى فيها جميع الصفات الالهية ، ومظهراً لجميع
العوالم العلوية والسفلية ، وأن ما تشرئب اليه وتتلهف عليه ولا تدري
متى تصل له من الراحة والسعادة يجب أن تبحث عنه فى طوايا نفسك
التي كمن فيها من نفائس الكنوز ما يجعلك ملكاً عظيماً ، أو ملكاً
كريماً ، فتستوى على عرش العزة القعساء ، وتمر على كل من فى الدهماء
بأثيه وانخلاء ، لا أن تطلبه من الخارج الذى أوجب لك الشقاء
وأضاع منك الهناء

دواؤك فيك وما تشعر * ودواؤك منك وما تبصر
وتحسب أنك جرم صغير * وفيك انطوى العالم الأكبر
الى آخر ما تقر به عينك ، ويصفوا به عيشك ، ويستريح له وجدانك

ن شاء الله ، وسأفرغ الوسع في بيان محاسن الدين الاسلامي لا بناء
لامّة الدين جيلوه فعادوه ، مزيلاً سوء التفاهم بينهم وبين العلماء ،
واقفاً اياهم فيما يريدون من عرض كل شئ على العقل ، ووزنه بميزان
لفهم ، غير أنه ليس من الحق في شئ أن يكون كل عقل حاكماً
في كل شئ ، واذا كنت لا تحكم في المسائل الطبية الا بعد مراجعة
الطبيب بل لا تثق بنفسك في شأن من شؤون حقوقك الا بعد
مشاورة الزراع ، ولا في أمر قضاياك الا اذا عرفت رأى علماء القانون
فليس من الانصاف بعد ذلك أن تحكم بعقلك في كل ما تسمع من
أمور الدين ، دون أن تراجع فيه الكلمة من ذويه الدين أقنوا فيه
أعمارهم واستنفدوا قوتهم . عالمين أن له مراعى بعيدة تناسب واضعه
(الحكيم الا كبر عن وجل)

(ايقاف القارىء على بعض ما في الكتاب)

قد أكثرنا في هذا الكتاب من ذكر الأمور الروحانية
والحقائق الدينية ، وتوجيه الانظار الى طلب السعادة الحقيقية ، رغبة
في اقتلاع أصول الشقاء من قلوب اخواننا المصريين الذين أعدوا
نفوسهم للعدوى بكل أمراض الغريين ، وقد سبقت الى ألواح
نفوسهم نقوش المدنية الجديدة التي تعادى الدين ، وتحقر المسلمين
فنحن نحاول بكل جهد وتلطف أن نزيل تلك النقوش من ألواح
النفوس ، ونثبت فيها نقوشاً اسلامية نكثر فيها من ذكر الارواح

مذهبهم بين شباننا ومتعلمينا اغتراراً بما تعلموه من ظواهر الطبيعة
التي قال فيها الفيلسوف الكبير (باكون) من أخذ علم الطبيعة رشفاً
بأطراف الشفاء كان ملحداً ، ومن شربه عباً أوصاه الى الخالق
هذا وقد سميته (سبيل السعادة) ليكون اسماً ينبئ عن مساه
ولفظاً يشير الى معناه ، والله المستول أن يرزقني فيه خالص الاخلاص
ويرزقك به مزيد الانتفاع في دينك ودنياك

وانى مستعيز به من تشدق المتفهبين ، وتنطع الجامدين ، وقصور
الجاهلين ، وتناول الحاقدين ، انه على ما يشاء قدير ، وبتحقيق أمل
الآملين جدير

يوسف نصر الدجوى

المدرس بالأزهر الشريف

(تنبيه) — وقع في هذه المقدمة تلك العبارة (سيراً تكافياً لا طبيعياً)
وقد أثرنا التعبير بذلك مع كون قواعد النسب توجب حذف الياء
فيقال طبعى لا طبيعى علماً بأن السامع اذا سمع مثلاً كلمة طبعى أو
بدهى فى طبعى وبدهى أخذت غرابتها بنفسه فانصرف عن
المعنى مع ملاحظة ان كتب الاخلاق انما ترمى الى تكيف النفوس
بمعانيها فليست على نحو كتب الادباء التي ترمى الى الاغراض اللفظية
(والكل وجهة هو مرليها) ولعل أفضل ما ترمى اليه كتب الاخلاق
هو تكيف النفس بالسهولة والسيولة وعدم الجمود وترك التكلف فى
الاشياء كلها . وقد أخرجنا هذا التنبيه ولم نضعه هناك حرصاً على قاب
القارىء ان يتفرق قبل تمام الموضوع

(مقدمات يشيد عليها صرح بناء الاخلاق)

« الانسان مجمع العجائب والغرائب »

يخيل لى عند ما أردت شرح الانسان وبيان ما فيه من عجائب
الصنع وبدائع الخلقة ، أنى كلفت نفسى أن تقتلع جبل (أفرست (١)
أو تستنزل الثريا من مكانها الرفيع ، بل أن تعرف جميع ما فى العالم
من أرضه وسماؤه ، وفرشه وعرشه ، وتزن ذلك كله وزنه الحق بميزان
فكرها الضئيل ، وتنظره ببصر عقلها الكليل ، ولعلك تستغرب من ذلك
التهويل ، وتعدده ضرباً من مبالغة الكاتبين ، ولكن يزول عجبك
ويستقر وهمك هادئاً مطمئناً ، اذا عرفت ان هذا الانسان الضعيف
نسخة من العالم الكبير يمثل كل ما فيه ، بل ان شئت فقل انه يزيد
عليه بخصائص لا توجد فى غيره . ولذلك جعله الله خليفة عنه فى هذه
العوالم الارضية ، وأسجد له ملائكته المقربين ، فله اذاً الرياسة والشرف
على جميع العوالم العلوية والسفلية ، بل يزداد فرحك واعجابك بنفسك
اذا عرفت أنك مستعد لأن يفاض عليك من الصفات الالهية
ما يجعلك ربانياً تنفعل عنك العوالم كلها ، وناهيك بمن يقول الله فى
شأنه (اذا أحييت عبدى كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى

(١) هو جبل بسلسلة جبال همالايا بآسيا ارتفاعه ٦٨٤٠ متراً
ويقال انه أكبر جبال الدنيا

يصر به ويده التي يبطش بها)؛ فماذا يكون حاله؟ وإلى أى حد يبلغ بطشه؟ وإلى أين ينتهى بصره؟ اللهم ان هذا فضل عظيم وملك جسيم قد رشحوك لأمر لو فطنت له * فأربأ بنفسك أن ترعى مع الحمل وما سمعنا بهذا الفضل وذلك الاستعداد لأحد من المخلوقات، ولعلك بعد هذا قد أشرقت شمس بصيرتك فتفهم من قوله تعالى مخاطباً لابلis (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) أن هذه النثية إشارة إلى أنه لم يوجد من المخلوقات مستعداً لأن يكون مظهراً لصفات الألوهية المتقابلة، كزيد الرحمة وشدة الانتقام، واتقبض والبسط وغير ذلك، إلا الإنسان دون غيره من المخلوقات حتى الملائكة فإن من خلق منهم للرحمة مثلاً لا يستطيع أن يتصف بغيرها فليس للملك إلا صفة واحدة خلق عليها، وأما ظهور تلك الآثار المتضادة، والاتصاف بتلك الصفات المختلفة المتقابلة فهو من خصائص الألوهية التي تدبر كل شئ، وتفيض على كل شئ وقد اصطفاك أيها الإنسان الكريم فجعلك مظهراً لتلك الصفات كلها، ولكنك جهلت قدرك، وأغفلت أمرك

إذا فهمت ما ذكرناه من أن تلك الآية التي تشير من طرف خفي إلى أن غير الإنسان قد خلق بيد واحدة وأما هو فقد خلق باليدين جميعاً لم تكن مبعداً، ولا متعسفاً، وأظنك (وقد وصلت إلى هذا الحد من شرف الإنسان) قد امتلأ قلبك بفضله وكماله ولكن أراني مضطراً أن أتلوا عليك من نبأ تقصيه عجباً يدهش اللب ويحير القلب فأقول :

ان الانسان وان كان جامعاً لتلك الفضائل التي تقدم اجمالها، الا أن فيه بأزاء تلك الكمالات التي لا تنهاى نقائص لا يحصرها التعداد . ولا يأتي عليها البيان ، ففيه من كل شر خلقه الله في العوالم كلها ، فاذا تصورت في الاسد قسوة شديدة وافتراساً هائلاً ، أوفى الدب شبرها ممقوتاً أو في الحيات ايذاءً مفرعاً أو في الثعلب روغاناً محيراً أو في الفرد تلوناً مدهشاً، الى أن تأتي على جميع أنواع الحيوانات (١) فاعلم أن تلك الطباع كلها موجودة في الانسان بأتم معانيها، وعلى النحو الذي لا يوجد في شئ من أفراد الحيوان ، فان الانسان معه العقل الذي يدبر ذلك الشر ، والفكر الذي يصرفه حتى يظهره على فنون شتى، وأساليب كثيرة ويتوسع فيه ما شاء أن يتوسع ، حتى يشبع غريزة خبثه التي لا تشبع (وليس في الانسان شئ يشبع) بل اذا دقت النظر وعينت بالتبقيب عن الفلسفة في ذلك الموضوع وجدت الانسان قابلاً لأن ينزل عن حضيض الحيوانات بما لا يعلمه الا الله (والانسان لا يقف أصلاً بمقتضى حقيقته فهو في صعود دائم أو هبوط دائم ولا نهاية للنقص ولا للكمال) فاذا نظرت للعقرب مثلاً لم تجد فيه من خصال الشر غير شئ واحد ، واذا نظرت للثعلب وجدته كذلك الى آخره وربما اشتبهت نفسك أن ترى شيئاً يكون نمرأً وعقرباً ودباً وثعلباً في

(١) أستسمحك في مثل هذا الجمع وأحب أن تغلب عليك الوجهة العقلية على ان الشهاب في شرح الشفاء أجاز أن يجمع منا لا يعقل بالالف والتاء مطلقاً

آن واحد فيندروهمك يعارضك بأن ذلك شئٌ تخترعه كما تشاء ولا
يتأتى أن يكون له وجود بل لا يكاد يدخل في عالم الامكان
فاذا تاقت نفسك الى ذلك المخلوق العجيب فبشرها أنك
ظفرت بما تريد وفوق ما تريد مما لا يدور لها بخلد ، ولا يخطر لها على
بال . ذلك العقرب الذى هو ثعلب وهو بعينه نمر كما هو قرد هو
الانسان الذى يتلون تلون الحرباء ، فيبما تراه أتقى الاتقياء اذ تراه
أشقى الاشقياء ، وبينما تراه أعدل العاديين ، اذ تراه أظلم الظالمين ،
وبينما تراه يمثل الارانب فى ضعفها وخورها ، اذ تراه يمثل الاسود فى
شدة بأسها وعظم سطوتها ، وبينما تراه أول قانع ، اذ تراه أكبر طامع
وبينما تراه فيلسوفاً قد سار الركبان بحديث نظرياته ، اذ تراه قد تهوس
فى بعض الضروريات وانحط الى أسفل الدركات ، ولقد أصبحت
ولا أجدنى أستغرب من تضارب الآراء وتناقض الأذكياء ،
وصرت أشك فيمن أصطفاه لعلمى انه بعض الأنعام كالانسان الذى
يعجبك شكله ويستهويك قوله يضم بين جوانحه من الصفات التى
يتقلب فيها متى شاء وكيف شاء ما يربوا على ردائل الحيوان ،
وخبائث الشيطان

واذا نظرت اليه من وجهة أخرى وجدت فيه ما يشبه الجماد
والنبات والبحار والجبال والارض والسماء وتبين لك أن نسبة الروح
الى الجسم كنسبة العرش الى المخلوقات ، والدماغ كالكرسى الذى
ورد فى لسان الشرع والحواس كالملائكة الذين يطيعون الله طبعاً ولا

يستطيعون خلافاً والأعصاب والأعضاء كالكواكب ، والقدرة
كالطبيعة المسخرة المركوزة في الأجسام ، ومראה التخيل كاللوح
المحمول الى غير ذلك مما لا يعيننا القول فيه الان
فإن خلاصة أن الانسان مستعد لأن يكون أرفع المخلوقات على
الاطلاق وأحطها على الاطلاق وأنه ممكن جميع الفضائل والبركات
ومظهر المتضادات ومجمع العجائب والغرائب.

(حقيقة فلسفية ضل فيها كثير من الناس)

تعلم رعاك الله أن بعض الناس الذين رقد دينهم ، وغاظ حجابهم ،
يتكلمون فيما نسب الى الانبياء مما لم يدروا له تأويلاً ، ولم يعرفوا له
معنى فتراهم ينكرون ما جاء في الدين من الروحانيات ، وأمور الآخرة
لان طبعهم الخبيث لا يقبله واستعدادهم الضعيف قاصر عنه ، وكثيراً
ما يؤثر ذلك في قراء الصحف والمجلات ، فأردنا أن نحذرهم
من تقليد أولئك الجهلاء في مقالنا هذا وحاولنا أن نرجع ذوي
الثروة الذين يريدون أن يطيروا بأجسامهم الثقيلة في جو سماء الارواح
الى خطة الانصاف ، حتى يعرفوا أن لهم درجة من العلم والاستعداد
يجب عليهم أن يقفوا عندها ويدعوا ما وراء ذلك ولا يخوضوا فيه

وقد نشرت هذه المقالة بمجلة الملاجئ العباسية منذ زمان طويل
فأثرنا نقلها برمتها لما في الكتاب من الموضوعات الكثيرة التي تعلوا
عن استعداد بعض الناس حتى اذا لم يصلوا اليها لم ينكروها فيكونون

من الذين يؤمنون بالغيب وهو نوع من الهداية وهناك نص المقالة بعد الدعاية:
أن التفاوت الذى بين أفراد الانسان لم يتفق مثله لا فرد نوع
آخر فليس هناك فرد يساوى ألف فرد أو أكثر من أفراد نوعه غير
الانسان وأنه باعتبار أفراده لا رفع الأنواع على الإطلاق وأخطأ على
الإطلاق وليس لكل فرد من تلك الأفراد علم إلا عن نفسه ولا
خبر لديه عن معلومات الفرد الآخر وما هو عليه .

أن كل انسان لا يعرف إلا ما يناسب استعداده الخاص ولا
يمكنه أن يعرف ما يناسب ما فوقه من الاستعدادات وما لذلك من
الاحكام الخاصة التى تعلو عن درجته فذلك عالم آخر بالنسبة اليه
محجور عليه دخوله بمقتضى استعداد السافل ، حتى انه لا يكاد يصدق
بأوضحها عند أربابها ، وربما كان البعد فيما بين ذلك وبين استعداد
شاسعاً فلا ينفع فيه البرهان ، ولا يمكنه أن يدركه ، وكان كالذى يكلف
أن يرى ما بعد عن متناول بصره ، وقوة نظره من المراتب لغيره ، ولو
ذكرت الكبرياء وآثارها للمصرى الساذج منذ مائة سنة ما صدقك
ولو أقمت له على ذلك ألف برهان ، بل ذلك يجده الانسان من نفسه
إذا تأمل فى أحواله وتنقلاته فى أدواره المختلفة يعرف أنه كان فى دور
السذاجة ينكر ما يعتقد الآن فى دور العلم ، ولا يزال هكذا يترقى فى
معرفة الحقائق « يعتقد اليوم ما كان ينكره بالأمس »

وقد استبانت تلك الحقيقة لأساطين الفلسفة فى أوربا فاعترفوا
بأن ما يجهلون أكثر مما يعلمون وأن هناك فوق استعدادهم ما لم يصلوا

اليه حتى الآن، وقد قل اثينسوف (سينار نومبروزو) في كتب الله
في اثبات الاسبرتره « استحضار الارواح » (لتحذر من ادعاء دقة
العقل ، واعتقاد ان كل من سوانا مخرفون واهمون ، وتحتس من الزعم
بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا فان ذلك يوقع ولا شك في الضلال
والحيرة) ولو ذكر لا رسطو وأفلاطون وسقراط ان الماء مركب وأن
الذهب غير مركب، لأنكروا ذلك كل الانكار، كما أنك تعد انحصار
العناصر في الأربعة التي يذكرها اتقدماء الذين يجعلون الماء بسيطاً
والهواء كذلك، جنالاً عظيماً أو خرافة لا تسمع ، فليس من العقل ان
نحكم في كل شئ بالاحكام الجازمة ، بل يلزمنا ان نعتقد ان وراء
استعدادنا ما لا يدخل تحت مداركنا

ولو فرضنا ان حاسة الشم مثلاً كانت مفقودة من العالم كله
لأنكروا نوع المشمومات بأسره لفقد آلة ادراكهم
ولعل هناك من الأشياء ما لا يدرك الا بحاسة سادسة لم تخلق
فينا أو في بعضنا ، فكانت تلك الأشياء عنده داخلية في عالم العدم
لا في عالم الوجود ، وهكذا كل انسان محصور في سجن استعداده
المحيط به من كل جهاته ، لا يمكنه ان يرفع رأسه الى ما فوق سقف
ذلك السجن ، ولا ان يجاوز بصره ما وراء حيطانه ، وان كان في وسط
ذلك العالم الفسيح ، والأشياء موجودة في أنفسها لا يؤثر فيها جهل
الجاهلين بها، وكل يرى منها على قدر بصر عقده ، فليست الأشياء كلها
موجودة في حقلك ، أو لست أنت موجوداً الا في بعض يسير منها ،

وان كان يخيل لك انك في الكون كله
وبهذا تعلم ان حكم الطبقة الدنيا على الطبقة العليا لا يكاد يقرب
من محل الصواب الا بالصدفة والاتفاق (١) ، أو بالقرب من درجة تلك
الطبقة العالية، بل اذا رأينا شخصين من طبقة واحدة وقد صدر منهما
فعل واحد لم يمكننا ان نحكم عليهما حكماً واحداً حتى نعرف مبدأ الفعل
وباعثه وغايته التي تراد منه عند كل منهما ، فقد تكون صورة الفعل
واحدة وهو حسنة كبرى بالنسبة الى شخص وسيئة عظمى بالنسبة الى
آخر ، ودرجات الافعال في ذلك وجزاؤها على ما يقتضيه وزنها الحقيقي
لا يتضح في هذا العالم الا نوعاً من الاتضاح ، ولا يقوم بالجزاء الحق
الا من علم كنه الاشياء على ماهي عليه في الواقع ، وليس الا الله تعالى
كما قال (وان كانت مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)
ولا بد ان تكون قد علمت بعد هذا ان كل انسان انما يحكم
على حسب ما يريه بصره الضعيف أو القوي (المحدود على كل حال)
وما بعد عما يتناوله ادراكه هو بالنسبة اليه في عالم العدم ، وان من الجهل
ان يعتقد الانسان ان كل شئ يدخل تحت علمه ، ويمكنه ان
يصل اليه

كما خلقت على حد محدود في القوة الجمانية ، فلا تستطيع ان تنقل

(١) أستسمحك في التعبير بكلمتي الصدفة والاتفاق وأمثالهما
ولا أزال أكرر انه خير لك في مثل هذا الكتاب أن تغلب عليك
الوجهة العقلية

الصخر ، ولا أن تحرك الجبل ، ولا أن تسمع من الأصوات أو ترى من
لبصرات الألى مسافة مخصوصة ، ولا يمكنك أن تصل الى ما وراء
ذلك ولو جهدت سمعك وأتعبت بصرك ، كذلك خلقت على حد
محدود فى عقلك وادراكك ، فأنت محدود فى جميع أمرك مقيّد فى
ستعدادك الباطنى ، تقيّدك فى استعدادك الظاهرى ، وإن كان يمكنك
أن تترقى ولكن الى حد محدود أيضاً ، ولكل من الدرجتين علوم
نخصها لا يمكنك فى كلتا الحالتين أن تتجاوزها الى ما وراءها

وليس ذلك الاطلاق الذى تتخيل ، والقوة غير المحدودة فى كل
شئ ، والعلم غير المتناهى ، الا لله تعالى ، وتعلم أن من الحكمة بعد ذلك الزام
كل حده ، حتى لا يحكم الصغير العقل ، الضعيف الاستعداد ، القليل
المعلومات ، النازل الدرجة ، على العظيم فى كل ذلك

واذا أينا على السوق الساذج أن يتكلم فى السياسة ، ويحكم على
قادة الأمم وكبرائها ، بأحكامه الجائرة التى لا يشك هو فى عدالتها
ويخطئهم فى آرائهم التى لا يعرف أسرارها ، ودخائلها ، فكيف لا نابى
على هؤلاء الزعانف الذين لم يعرفوا من العالم المحسوس الا ظواهره
فضلاً عن العالم الروحانى الذى لم يشمواله رائحة أن يتكلموا فى
الانبياء والمرسلين ، ويحكموا عليهم بجهلهم حكم من فى الارض على من
فى السماء ، فمعر الدين أدق وأعظم من أمر السياسة ، وأرفع من أن
يصل اليه أو نشك الجثمانيون ، وبينهم وبين الانبياء أبعد مما بين الملوك
والسوقة ، وأرفع مما بين الفرش والعرش ، وإن العلم أشبه شئ بالبحر ومن

نزل البحر ولم يحسن السباحة أدركه الغرق لا محالة ، وليست كل سفينة
تصلح لكل بحر ، ولا ربانها يسير بهامع كل عاصفة ،
فعليك أيها الراغب في سعادتك ، المحتاط لأمر دينك ، الخائف على
نفسك ، ان تتلقى لأعراض قلبك من العلماء كما تتلقى لأعراض بدنك
من الحكماء ، وان تحتاط في تحصيل مزاياك كما تحتاط في اكتساب
قضاياك ، فورا ذلك شقاء ما له غاية ، أو سعادة ليس لها نهاية

﴿ الروحانيات ﴾

« اثبات الروح »

رأينا أن نذكر لك كلمة عن الروح حتى تعرف خصائصها ، فلعك
تشتاق اليها ، وتسعى لها سعيها ، فتجيا حياة طيبة ، وتسعد سعادة أبدية
وتكون انسانا تام الانسانية ، ولا تكون ممن أغفلها أو أنكرها ، فحسر
خسرانا مبينا (فأنت بالروح لا بالجسم انسان) غير اني أشترط عليك
قبل الخوض في الموضوع أن تتجرد عن كل ما علق بذهنك
وتحكم عقلك ووجدانك ، ولا تنفر من أول الامر كما يفعله كثير من
جنالة المتعصبين الذين يرثي لهم

وإذا لم يصل فهمك الى شيء مما نذكره فلا ينبغي أن تجزم
بعدم صحته ، وتسارع الى انكاره ، فلعلم من الأمور التي جزم
بها غيرك

وإذا كنت تسلم لأرباب العلوم الطبيعية آراءهم في كل شيء

وتحسن الظن بهم فلا تبحث وراءهم في شيء ، وتقول أنهم اكتشفوا (١)
من النواميس الطبيعية ما لم نكتشفه ، فلعل أرباب العلوم
العقلية أو الدينية قد اكتشفوا أيضاً من النواميس الروحانية ما لم
تكتشفه أنت ، ولا وجه لأن تكذب في هذه وتصدق في تلك مع
كونك بالظواهر الروحانية أجهل منك بالظواهر الطبيعية

وإذا لم تر الهلال فسلم * لأناس رأوه بالابصار

وقد تقدم في المقالة السابقة ما يكفي لاقتناعك وإيقافك عند حدك

وبعد هذا فأنا نصدع بالحق الصراح وندعك تعتقد ما تشاء فنقول :

أن في الإنسان جزءاً آخر غير ما نشاهده من هذا الجسم ، له من
الخصائص ما يبين خصائص الأجسام ، فهو يقبل توارد المتضادات
عليه ، واجتماعها لديه ، في وقت واحد ، فيدرك الموت والحياة ، والارتفاع
والانسفل ، إلى آخر المتضادات ، بخلاف الجسم فلا يقبل السواد مع البياض
مثلاً ، ولا الطول مع القصر ، وهي مدركة للروح معاً في آن واحد ، وإذا لم
يقنعك هذا الدليل أتينا لك بدليل آخر عسى أن يكون أبين في
نظرك وأقرب إلى اقتناعك وأوفق بعلمك واستعدادك ، وهو أنهم
قرروا أن الجسم بمنزلة الثوب الذي يستبدله الإنسان بغيره كل
مدة من الزمان ، فكذلك الجسم يزول عنك بواسطة التحليل

(١) يقال كشف بتشديد الشين ولا يقال اكتشف كما في كتب اللغة

وان كان شائعاً ولكن عبرنا بذلك لكونه المألوف على أن باب
التجوز لا حرج فيه

والتعويض كل مدة سبع سنين ، على ما يراه بعضهم ، فتطرحه
وتلبس غيره

ولو كان كل غذاء ينقلب بعد أدوار الهضم جزءاً من جسمك
بالتحليل ، لكنت اليوم أكبر من الجمل ، وأعظم من الفيل ، فالجسم إذاً
يتبدل ويتحلال لا محالة

ولكنك تحس بشئ فيك لا يتغير ولا يتبدل على تعاقب
الحدثان ، تنسب اليه الافعال التي كانت منذ صغرك ، لأنه هو هو لم
يطراً عليه تحليل ولا تعويض ، وأيضاً من قطعت يده أو رجله أو غالب
أجزائه يقول (أنا) ، بكل معنى الأناية ، فهذا الجزء الذي تمر به الأيام وهو
كما هو لا يطراً عليه زوال ولا يعتريه اضمحلال هو الروح وهو الذي
يعبر عنه الانسان بـ (أنا) ولو قطعت جميع أجزاء بدنه

ولو رجعت الى وجدانك الصحيح ، وزالت عنك تلك الغشاوات
كلها لرأيت أن هذا النظر الواسع ، وذلك الفكر الكبير ، وتلك الغرائز
التي لا يكفيها هذا العالم الذي نحن فيه ، ولا يصلح لها الا عالم لا نهاية
له ، حتى يشا كلها في أحوالها ، ومطالبها ، لا يتأتى أن يكون لهذا الجزء
المادى الأرضى الذى لا يفارق بقية المواد الأرضية فى شئ ويتعين
أن تكون هذه الاحساسات وتلك الادراكات هى لشيء آخر علوى
سماوى مجرد عن المادة وعلاقتها ، صالح للبقاء السرمدى ، والا كان وضع
تلك الغرائز فيه التى تكره الحدود والنهايات عبثاً محضاً لا يليق
بحكمة الحكيم عز وجل

وأما لوازم الأجسام فعلى الضد من هذا، ومعلوم أن تنافي اللوازم
يوجب تنافي الملزومات، وإن كان لا بد لك من الرجوع إلى أقوال الغربيين
وآرائهم ويعسر عليك أن تقلد سواهم ولو بعد الدليل والبرهان فارجع
إلى ما قرره علماء الاسبرترم (استحضار الأرواح) في ذلك ترى العجب
العجاب وسنقل لك نبذة منه بعد

(إيضاح وبيان)

إن الإنسان يحمل في ذاته شعوراً غير محدود، ويعرف كمالاً
لا نهاية له، والعالم الجسماني كله محدود، فلا بد أن يكون هذا الشعور
لعالم آخر ليس من طبيعة الأجسام،
أن من ينكر الروح لمزيد كثافته، وضيق نظر عقله كمن ينكر
وجود الأفلاك العلوية لعدم وقوع بصره عليها، وما أضعفه برهاناً
وأسمجه احتجاجاً

أن المادة قد تعسر الوصول إلى حقيقتها البسيطة وهي المسماة
بالمهولي أو الأثير، وذلك لبعدها في حالتها الأولى عن تلك الكثافة
التي سمحت لها أن تبصر وتحس، فإذا كان هذا شأن المادة الغليظة
الكثيفة، فكيف يكون شأن الروح التي هي من طبيعة أخرى وعالم
آخر؟ وقد بلغت في اللطافة حداً لم يبلغه شيء سواها، (ولئن كانت أخفى
الاشياء بحقيقتها فاتها أظهرها بلوازمها وآثارها)

إن من ينظر في الجسم يجد كل ما فيه آلة لشيء خاص، قد نيط

بها وظيفة خاصة ، فلا بد أن يكون مستعمل تلك الآلات كلها في الأغراض المختلفة شيئاً آخر ، يعتبر فاعلاً لا آلة

اننا قد نرى الولدين الصغيرين على غاية التباين في الاخلاق ، فيكون أحدهما كذاباً خداعاً جباناً ، ويكون الآخر لا يعرف الكذب ولا يرضاه ، ويأبى الغش والخديعة ، وينفر من الجبن والثواكل ، فلو كان الامر مادياً صرفاً لما وجد هذا التباين ، لأن الشئ الواحد لا ينشأ عنه أمران متباينان ، فلا بد أن يكون ذلك راجعاً الى أرواحهما التي تدير أبدانهم ، والافعالوا لنا ذلك تعليلاً طبيعياً معقولاً ، في هذين الولدين اللذين نشأ في بيت واحد ومدرسة واحدة ، بين أب واحد ، وأم واحدة لعلك تعلم أن جسم الانسان تتحلل أجزاؤه دائماً ، ويخلفها غيرها حتى اذا مضت عليه سبع سنين لم يبق من أجزائه الاولى شئ ، فلم يكن وراء المادة فيك أيها المتبصر عالم آخر ، يرجع اليه أمر العلم لوجب أن تذهب علومك القديمة مع أجزائك التي ذهبت حيث أنها مرتسمة فيها ، وليس وراءها عالم آخر من الروحانيات لا يخضع لسلطان الفناء على هذا الفرض ، والا فهل كتبت المادة الذاهبة علومها في المادة الجديدة قبل أن تمضي الى شأنها؟؟!! أم لتقتهاتلك العلوم شفهاً؟ وان قلنا ذلك فأين كانت تلك الكتابة وذلك التلقين وهما لم يجتمعا في جسم الانسان لحظة واحدة؟ بل لا تجي ، الاجزاء الجديدة الا بشرط انعدام الاجزاء القديمة ، (ولعلها اعنت حضرات الماديين أرسلت لها من ينسخ

فيها علومها بعد ذهبها، ويوصيها بالاحتفاظ بها، ويبين لها درجاتها
المتفاوتة على حسب ما كانت عند سلفها من الأجزاء المتحالة)؛
نرى الإنسان يعقل الأشياء المعنوية الصرفة كاستحالة اجتماع
الضدين مثلاً، وبالضرورة لا يحتاج في ذلك إلى شيء من الحواس، بل
كلما تباعد عن المحسوسات كان إدراكه لتلك المعقولات أكثر
وأتم، وليس ذلك شأن الأجسام.

لو كانت الروح مادة جسمية لكان الارتسام فيها على نحو
الارتسام الذي نعرفه في المادة، فكان لا يرتسم فيها بالضرورة إلا
علوم محدودة على قدر طولها وعرضها، لأن المحدود لا يرتسم فيه غير
المحدود، ونحن نراها تقبل من العلوم والمعارف ما لا نهاية له، ويبقى
منقوشاً فيها إلى ما لا نهاية له، ولم نرها تضيق به يوماً من الأيام، بل
تتسع لكل ما يرد عليها، وتزداد به قبولاً أسواً، (على عكس المادة)
أفلا يكون هذا النوع من الانتقش وذلك التباين الكلي برهاناً
ساطعاً على أنها شيء آخر غير المادة؟ التي عرفنا كل أحكامها التي من
أخصها أنها محدودة، وكل محدود لا يقبل إلا محدوداً، وإلا فليقولوا لنا
كيف تحفظ تلك المدركات الخارجة عن النهاية في تلك النقطة التي
يخصصونها لذلك من المخ؟ وما مقدار تلك النقطة؟ وكيف وسعت علم السموات
والأرض؟ وكيف انتقش فيها؟ وكيف يقبل المتناهي غير المتناهي؟، أن
أمر الإدراك وحفظ المدركات لمن أعجب الأشياء! ولا يقبل الوجدان
السليم أن يكون مادياً أصلاً، بل يجب أن يكون من ظواهر طبيعة

عالم أرقى من المادة، وما صرفنا عن التفكير فيه حتى صرنا نستبهين به
ولا نلتفت إليه الا كثرة اعتيادنا اياه، وكل أمر معتاد لا يلتفت اليه
نرى النفس تستبهين بكل مطالب البدن عند ما تريد أن تحصل
فضيلة من الفضائل، فربما استمر الانسان غافلاً عن غذائه ودوائه في
سبيل ما يكمله من العلوم والمعارف، فلو كانت النفس جسمية لما تركت
ما يقيمها من الغذاء الحسى وعدلت عنه، باختيارها، مع أن في ذلك
اضمحلال للجسم، ولكن لكونها من العالم الاعلى قدمت غذاءها
المعنوى على غذائه الحسى، قال (أرسطو) ومما يدل على ذلك أن
النفس الناطقة تقاوم لذات البدن وشهواته، وتمنع منها وتستبهين بجميعها
في طلب الفضائل التي تريد أن تتكامل بها،

والاشياء المتقوية من شئ لا تعاند ما به قوامها، ولا تمنع منه، بل
تطلبه لان في منعها منه بطلانها، ولا شئ يطلب ما يبطله، وانما يطلب
ما يقيمه ويزيد فيه،

ثم قال أن للنفس فعلاً ذاتياً وحركة ذاتية لا يستعمل بها شئ من
الآلات، بل الآلات كلها عاتقة عن تمامها، وذلك في ادراك المعقولات
الصرفة مما دل على مفارقة النفس للبدن حقيقة، وعلم بذلك أنها باقية
دائمة البقاء، وأما ما يتوهم من توقف الادراك على الآلات الجسمية
فانما هو في الامور المحسوسة المادية

قل للماديين أى مانع من وجود أشياء لم تدركوها بحواسكم ولا
آلاتكم التي وصلتم اليها حتى الآن؟ بعد أن قلتم ما قلتم في (المكروبات)

وفي (الاثير) الذي لم تعرفوه بأقوى آلاتكم، وانما تظنون ظناً وما أنتم
بمستيقنين، مع ان ذلك كله من هذا العالم فبالكم بالعالم الآخر
الروحاني الذي يبين هذا العالم كل الميزة، وان شئت فانظر الى ظنونهم
فيما قالوه من أن العوامل أو القوى الكيماوية وهي الحرارة والكهربائية
والمغناطيسية، ما هي الا انبثاق من الاثير وهو الاصل الذي يجمع
المواد الاربع غير القابلة للوزن في مادة واحدة، وهذه الاربعة هي
الثلاثة المذكورة ويزاد عليها النور، فأى مانع من وجود أشياء تعجز
حواسكم معشر الماديين عن ادراكها؟ وقد تحقق ذلك بالموجودات
الميكروسكوبية التي لا تدرك بالبصر المجرد، وأى مانع من وجود أشياء
يحتاج ادراكها الى حاسة أخرى لم توجد فيكم ؟

هل يؤوب الطبيعيون الى رشدكم حيث لم يمكنهم أن يعللوا له
ذلك النسيج الذي في بدن الانسان من العظم واللحم وغيرها ولم يعرفوا
كيف يتكون ذلك من تلك الاغذية الميته؟ فيقولوا أن ذلك لا يكفي
فيه اجتماع المواد الكيماوية التي نعرفها، بل لذلك شرط وراء ما نشاهده
وهو تسلط الروح الرباني الذي هو من أمر الله على ذلك الجسم الحيواني
الذي جهلنا ما تسلط عليه من تلك الروح فلم ندرك حقيقتها، وان كنا
نعرف كل المواد الموجودة في ذلك الجسم، ونعلم ظواهرها الطبيعية
وتفاعلاتها الكيماوية، وكل ما ينجم عن ذلك، ولكن (من يهد الله فهو
المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)

(سبب اشتباه الماديين وغلطهم في هذا الموضوع)

لعلك تتساءل كيف أنكر الماديون وجود الروح؟ مع اعترافهم بأنهم لم يصلوا الى ادراك سر الحياة ، ولم يمكنهم أن يعللوا تعليلًا صحيحًا حتى قال بعض فلاسفة (الظلمات) وهما (دوتروسيه) (وييشا) حينما عجزا عن الوصول الى ذلك كما عجز غيرهما (أن الحياة فلتة طبيعية ضد النواميس العامة للمادة، وتعطل وقتي لقوانينها الطبيعية ، ولا تلبث أن تخضع تلك الفلتة الاستثنائية لقوانينها، وترد الحى الى أصله الميت) وكأنهم بعجزهم هذا عن حل مسألة الحياة يقررون قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا) ، وهل لذلك الانكار من سبب بعد ما سبق من الأدلة ؟ وبعد ظهور أن أمر الادراك يجب أن يكون من ظواهر طبيعة أخرى لعالم آخر ، وقد قال بعض كبار فلاسفة أوربا (أنا لا أصدق أن هذا الانسان المتفكر ليس فيه شئ غير تلك المواد التى يتركب منها الفحم والحديد الى غير ذلك مما قالوه وهو كثير

فاعلم أن سبب ذلك الخلط والخلط الذمى زج بهم فى ظلمات بعضها فوق بعض ، حتى صادموا الاحساسات الانسانية ، وأنكروا أوائل العلوم البديهية ، وضربوا فى تيهاء من الوهم والخيال ، ومثلوا لنا الانسان فتوغرافاً يتكلم على مقتضى تركيب الآلات الخاصة ، والاجهزة المعروفة ذلك السبب هو أنهم رأوا أن لأعضاء الجسم وظائف تقوم بها ، وإذا

اختل شئٌ منها تعطلت وظيفته وكذلك المخ الذى هو محل التفكير
والادراك

وان ما قالوه صحيح ، ولكن اشتبه فيه الحق بالباطل ، والصحيح
بالعاطل ، وما اتبعوا فى ذلك الا الظن والتخمين ، بلا دليل علمي ، ولا
برهان نظري ، ونحن نعرفهم سنة الله فى ذلك ، ثم تناقشهم الحساب بعد
ان الله عز وجل اقتضت حكمته (وهو الحكيم) أن لا يفيض
الروح الا على ما هو مستعد لها ، وليس من سنته أن يعطى الشئ جزافاً
أو يجعل أمر الایجاد فوضى ، لا نظام له ، كلا ، بل تأبى حكمته أن يسلط
الروح الانسانية على الاحجار ، أو يفيض الحياة البشرية بما لها من
الآثار على أصناف النباتات والاشجار ، لعدم القابلية وفقد التناسب
ومن المقرر فى علم الفلسفة أن الامداد على حسب الاستعداد ، وليس
يستعد لذلك الا الجسم الانسانى لما أودع فيه من دقة الصنع ، وبدائع
الأسرار ، وانظر كيف جعل مركز تعلق الروح بالبدن أطف شئ فيه
ولم يجعل محله اليد أو الرجل أو الظهر مثلاً ، بل جعله المخ الذى هو
أطف شئ بالانسان ، وعلى ما تراه فى كلام الأقدمين جعله القلب
الصنوبرى ، لكونه مبعث ذلك الروح الحيوانى ، المنتشر الى جميع أقطار
البدن ، ولا شك أن هذا الروح الحيوانى الذى مركزه القلب الصنوبرى
هو أطف شئ فى الجسم ، فهناك تناسب كبير بينه وبين الروح الانسانى ،
الذى هو من أمر الله ، وستعلم فيما نتلوه عليك بعد أن العوالم مترتبة

في الكثافة واللطافة ترتيباً غريباً ، وفيها كل الدرجات الممكنة حتى
تصل الى ما يتعالى عن ادراك الحس بوجه من الوجوه

وأما زعمهم أن العلم يقتضي ذلك فهو من الكذب على العلم ، وقد
جاء في أحد أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه الجملة كما في الحقيقة
الفكرية (ليست الفكرة الواحدة الا اتحاداً يشبه اتحاد حمض
(الفوسفوريك) والتفكر نفسه ناتج من الفوسفور الذي هو في تركيب
المخ) ، فرد عليها العلامة الطبيعي الشهير (كاميل فلامريون) قائلاً
(من أخبركم بذلك يا حضرات المحررين أن الناس يتوهمون أن
معلمكم يعلمونكم هذه الهذيان ؟ مع أن الامر بخلاف ذلك لأن هذه
الادعاءات ليست امام النظر العلمي الا هباء منثوراً ، على أني لا أدري
أي الامر ين يستحق أن تعجب منه أكثر ؟ أمن هذه الجسارة
الصادرة من هؤلاء المثليين العجبيين للعلم ؟ أم من سخافة ادعاءاتهم
أن (نيون) كان يقول (يظهر لي) و (ديكرت) كان يقول :
أنني أستنزل حلمكم في هذه الفروض) ولكن هؤلاء يقولون نحن
نحن ثبت ؟ نحن ننكر ؟ هذا موجود ؟ هذا غير موجود ؟ العلم قد
حكم ؟ العلم قد أقر ؟ العلم دحض ؟ مع أنه ليس فيما يقولون ظل من
البرهان العلمي ، الى أن قال : انكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا
العبء الثقيل ولئن سمعكم العلم أيها السادة (ويجب أن يسمعكم) لأنكم
أبناءؤ فقد حق له أن يضحك استهزاء من غروركم ؛ أنكم تقولون
العلم ثبت ، العلم ينفي ، العلم يأمر ، العلم ينهى ، وبذلك فأنتم تضعون

على شفتي هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة ، وتدخلون الى
فؤاده هزة الكبر والعجب (؟؟؟)؛

فأنت ترى مكان تلك الطنطنة الفارغة، امام الفلسفة الصحيحة
والعلوم الحقة التي يعرفها مثل (كاميل فلامريون) وغيره، على أنك
تقول لهم اذا كان التفكير افرازاً من افرازات المخ (ولسنا نعقل ذلك
ولا يعتقه أحد) وان قال بعضهم أنه مثل افراز الكبد للصفراء
والكليتين للبول) فهل يمكن أيها المجترئون على ما لا تعلمون أن يفرز
الانسان من الصفراء، ما شاء متى شاء، كما يمكنه أن يتفكر كذلك أم
هذا قياس فاسد؟ ونظر كاسد ثم تقول لهم :

هذه مادة المخ معروفة العناصر والخصائص فهل من خاصة
الفسفور أو غيره مما تركب منه المخ ما يعقل أن يكون محلاً لهذا الادراك
الكبير والتفكير العجيب وتلك العلوم الواسعة وكيف يدرك الفوسفور أو
غيره من مواد الاخشاب التي نحلمها وتركبها، كيف شئنا وهي بين أيدينا مادة
ميتة تبعد عن العلم والادراك بعد الصواب من الخطأ والحق من الباطل،
وماذا عسى أن يفعله الفسفور في أمر الادراك والعلم ولو توقد ناراً ؟ وماذا
تفعل النار فيما هو من تلك الخصائص الانسانية ، والعواطف
البشرية، واللطائف الروحانية بل يمكننا أن نناقش هؤلاء المتبجحين
الذين جهلوا أقدارهم، وتعدوا طورهم، سائلين اياهم فيما زعموا أنهم عارفوه،
وهو أقل مما نحن فيه! كيف اقتضت بعض نقط المخ الادراك ، وبعضها
الحركة ، وبعضها الأَبصار، الى غير ذلك فانكم تعينون لكل شئ من هذه

نقطة مخصوصة في المخ، فهل يمكنكم معشر الماديين أن تبيّنوا لنا العلاقة بين تلك النقط وما يناط بها؛ وما وجه اختصاص كل بكل؛ مع كون العناصر متحدة في الجميع، ولا فرق بينها في الجواهر، وهل يعقل أن المادة المتحدة الجواهر تنتج آثاراً مختلفة متباينة. مع وحدة أجزائها وعدم اختلاف عناصرها؛ اللهم أن هذا لا يستطيع أن يقوله أحد حتى الماديون أنفسهم، فإذا أقول في حل تلك المعضلة بلسان العلم والتبصر: أن المخ شرط في الإدراك، أو في تعلق الروح بالبدن أو هو الرابطة بين العالم السماوي والعالم الأرضي، وليس من الجائز أن يكون العلم والإدراك نتيجة تلك المواد الصماء، التي يمكننا أن نجعلها ونعرف ظواهرها كلها، وإن كان ذلك شرطاً في إمداد الروح للبدن، ومعدداً لقبول فيضان آثاره عليه، ومحققاً لصلاحيته جعله مظهراً للحياة، وأن الفرق بين الشرط والفاعل وبين السيف والقاتل لمن أوضح الواضحات، فكأن المخ مرآة تتجلى فيها صور العالم الأدنى للعالم الأعلى أو تقول أنه بمنزلة التليفون الموصل بما فيه من الأعصاب أخبار الأجسام إلى الأرواح، ومن البديهي أن المرآة ليست هي الرائي وإن كانت شرطاً في الرؤية، ولا آلة التليفون المكهربة هي المتكلم أو المخاطب، وإن كان لا بد منها في تحقيق الخطاب فليس يعقل فيها الفاعلية بوجه من الوجوه، ويستحيل أن يكون الاختيار والإرادة والتقن وسعة العلم خاصة من خصائص المادة الصماء العمياء، ولكنهم خاضوا بكثافتهم الطبيعية وظلماتهم المادية فيما لم يحيطوا به علماً من عالم اللطافة ومشرق الأنوار ومنبع الأسرار وأن الأمر على

ما يقول الله عز وجل (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب
التي في الصدور)

وستسمع في هذا الموضوع ما يشفي الغليل ، ويبرى العليل في
القسم الذي أفردناه من الكتاب للرد على الطبيعيين ان شاء الله

(شرح بعض صفات الروح)

هذه الروح لها من التأثيرات العجيبة ما يزيد على كل ما تعرف
من تأثيرات الاجسام ، فانها أقبل للفيض الالهي في كل شئ ، وكل
ما كان من العالم الادنى فهو تحت تصرف ما يكون من العالم الاعلى ،
دون العكس ، ولكن تأثيراتها ليست على نحو ما تعهد من قوانين
تأثيرات الأجسام ، فانها تؤثر في الأشياء البعيدة عنها من غير مماسة
ولا مجاورة ، وكأنني بك وقد نسيت الشرط السابق وسارعت الى
الانكار ، (فرويدك أيدك الله) وانظر الى حال الحاسد مع المحسود
كيف يؤثر فيه التأثير الهائل ولو كان من أقوى الاقوياء وأعظم
الأشياء بمجرد توجيهه اليه ، وانفعال نفسه باستحسانه مع الحقده عليه ،
وأما تعليل رشدى بك لذلك في كتاب التنويم المغناطيسى بأنه من
تأثير الاعتقاد فلا يكاد يقرب من الصواب ، فان الحاسد يؤثر في الحيوان
الأعجم وفي النباتات والأشجار مما لا يتأتى منه الاعتقاد ، وان شئت فطالع
ما ينقل عن أرباب الابنوتزم (التنويم المغناطيسى) حتى تعرف مقدار
ما وصلت اليه روح النوم (بالكسر) من التأثير في النوم (بالفتح)

الذى يكون طوع اشارته فى كل شئ ، حتى لو أمره أن يقتحم لجة البحر أو وهج النار لما استطاع أن يخالف له أمراً ، أو يعصى له إرادة بل ذكروا أغرب من هذا وهو أنه إذا وقع فى نفسه أن يقتل أحداً بادر المنوم الى قتله من غير أن يأمره بشئ أو يتلفظ له بكلمة ، ولا يعدى هذا فإن النفوس تحس بما فى النفوس فإذا أحست به (وقد فرضنا أنها خاضعة لسلطان هاتيك النفس الأخرى منفذة لأرادتها) لم يكن ما سمعناه عنهم بدعاً من العلم أصلاً ، ولنتقل لك نبذة عنهم فى ذلك الموضوع تيمناً للفائدة ، ورجاء أن ينتفع به كثير من شبان المسلمين فنقول :

(أدلة اثبات الروح)

« من كلام علماء الاونبوتزم والاسبترزم »

قال حضرة الفاضل صاحب الأيادى البيضاء فى هذا الموضوع (الاستاذ فريد وجدى) فى دائرة معارفه : —

روى الاستاذ (اكزاكوف) الروسى أن امرأة الاستاذ الانجائيزى (دومرجان) اعتادت تنويم امرأة وارسال روحها الى المحل الذى تعينه لها ، فقالت لها يوماً وهى نائمة (اذهبي الى منزلى الذى كنت أسكنه قديماً) فقالت النائمة (قد فعلت وطرقت الباب بشدة) فقالت امرأة الاستاذ فذهبت بنفسى فى اليوم التالى لأتأكد من صدقها فى تلك المسألة فسألت عما حصل فى تلك اللحظة فأجابنى

السكان بأنهم سمعوا طرقاً شديداً على الباب فذهبوا فلم يجدوا أحداً
فعلموا أن ذلك فعل شقياء الاطفال ، يقول (اكزا كوف) عن
هذه الحادثة وأمثلة أخرى تثبت بطريقة لا تقبل الشك أن للروح
وجوداً متميزاً عن المادة ، وأنها تستطيع أن تعمل ما يعين لها بنفسها
واستشهد أيضاً بهذه الحادثة الغريبة وهي أن (لويس) المنوم المشهور
أنام امرأة مرة امام جماعة ، وأمرها بأن تذهب الى بيتها فتنظر ماذا
يعمل أهلها ، فقالت ذهبت فوجدتهم يشتغلون بأشغال منزلية وبينهم
امرأتان تشتغلان بالمطبخ ، فقال (لويس) المسى احداهما بيدك ، عند
ذلك أخذت المنومة تضحك قائلة قد لمست احداهما كما أمرتني فافقت
خوفاً شديداً ، فسأل (لويس) الحاضرين عما اذا كان فيهم من
يعلم بيت المرأة ؟ فأجاب بعضهم بالإيجاب ، فالتمس منهم أن يذهبوا
الى بيتها ليعرفوا ما حصل فذهبوا وعادوا مؤكدين أن ما قالته النائمة
صحيح !! وذلك أنهم وجدوا أهل ذلك المنزل في غاية الهرج من
شده الخوف فسألهم عن السبب فأجابوا بأنهم رأوا شبحاً في المطبخ
يمشي ثم جاء فلمس احدى اللتين كانتا فيه

ويقولون أن الروح وهي على حالها الأول بعد خروجهما من الجسد
يمكن مكالمتها ورؤيتها بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لأن
يقع في خدر عام عند ارادته تحضير الروح ، فتستفيد الروح من
استعداده فتكلم الناس بفمه بلغات يجملها كل الجهل وتنبئ الحاضرين
عن أمور لأقاربهم وخاصتهم لا يدري الواسطة منها شيئاً ، بل

وتكشف من أسرار العلم والفلسفة والرياضيات العويصة ما يجيله
الواسطة والسامع ، ولا يدركه على سطح الأرض الا تفريسير ، وقد
تستولى على يده وتكتب (وعينه مغمضة أو مربوطة) صحفاً ورسائل
وقد تظهر بجسم مادي محسوس بينما يكون الواسطة ملقى امام المجربين
مكتوفاً على كرسیه ، وسبب ربطه هكذا أن الذين يبحثون في هذه
الامور المدهشة من العلماء ملحدون ماديون لا يصدقون بشئ ولا أجل
أن يثقوا من صدق مشاهداتهم التي تهدم لهم كل مقررات فلسفتهم
لا يرضون الا أن تكون الغرفة مغلقة والفرش مفتشاً والواسطة مربوطة
على كرسیه بأربطة متينة مسمرة أطرافها بالأرض ولا يكتفون بذلك
أيضاً بل منهم من وضعه في قفص حديدى ووضع كرسیه على سطح
مائى وأوصل يده سلكاً كهربائياً متصلاً (بجولانومتر) الى آخر
ما قال :

ويمكنك أن تعلل بيان تلك العلوم التي يجملها الحاضرون ولا
يعرفها الا قليل من الناس بما قاله بعض الحكماء من أن للروح علوماً
ومعارف كثيرة كانت تتمتع بها قبل دخولها فى الجسد ولكن لما دخلت
فيه نسيها جميعها وصارت تتعلمها شيئاً فشيئاً وكأن ذلك التعلم تذكير
لها بما نسيته فقط ولذا لا تجد لها سبيلاً الى بعض العلوم لكونه لم
يخلق فيها فلا يمكنك أن تستثيره منها لعدم اشتغالها عليه

هذا ، ويقول علماء الاسبرتزم أن الحد الفاصل بين الاحياء
والاموات ليس على ما يظنه الناس من الخطورة فان الموت ليس فى

ذاته الا انتقالاً من حال مادی جسدی الى حال أرق منه وألطف
بكثير،

ومن ذلك أيضاً ما حكاه رشدي بك في كتاب التنويم المغناطيسي
أن امرأة نومت بمدينة الاسكندرية وسئلت عن زوجها الغائب
فقلت أنه يباريس بنزل كذا رقم كذا ثم قالت انه مريض ولم تلبث
أن صرخت قائلة أنه قد مات فأرسل تلغراف الى باريس الاستفهام
عن صحة ما قالت فوجد صحيحاً

وقد ذكر أيضاً (أن النوم يرى بمؤخر رأسه ومعدته فاذا وضعت
الساعة على القسم المعدى منه مثلاً وسئلت عنها أجاب بغاية
الضبط)

وليس الامر في ذلك على ما ظنوا من انه يرى بمؤخر رأسه أو
معدته أو غير ذلك مما استغربوه وعلاوه تعليلاً غير صحيح بل السر
في ذلك هو أن النائم بطل عنده حكم الحواس فلا فرق بين أن يكون
مربوط العين أم لا وصار الحكم لروحه لا لحواسه الظاهرة ولذلك يرى
ما يكون من وراء الجدران في الاماكن المغلقة الابواب أو البعيدة جداً،
والروح كماستعرف لا تتقيد بمحيز ولا مكان لأن ذلك شأن العالم المادی
فالجهات كلها بالنسبة اليها سواء فهذا هو التعليل الصحيح لا ما ذكره
رشدي بك وغيره في هذا الموضوع

وقال في دائرة المعارف: تألفت سنة ١٨٦٩ ميلادية جمعية من
أكابر علماء لوندرة لفحص هذه الخوارق فحسباً دقيقاً علمياً

وكانت هذه الجمعية مركبة من العلامة (جون لوك) وهو اللورد
أفبى رئيساً لها ، ومن (توما هكسلى) أكبر علماء إنجلترا الطبيعيين
و (لويس) الفزيولوجى المشهور وكيلين لها ، ومن الفريد (روسل
ولانس) أكبر فزيولوجى فى الانجليز ومكتشف ناموس الانتخاب
الطبيعى وهو زميل داروين ومن (دوجان) رئيس الجمعية الرياضية
و (قارى) رئيس مهندسى التلغراف و (جان كوكس) الأصولى
الفيلسوف و (اكسون) أستاذ فى كلية اكسفورد الخ

فاستمرت فى البحث المتواصل ثمانية عشر شهراً وكانت النتيجة
تأكيداً صحة تلك المشاهدات الخارقة للعادة وكتبوا بذلك تقريراً
مطولاً منه هذه الجملة : أن الجمعية اقتضرت فى تقريرها على المشاهدات
التي رآها كل الأعضاء بطريقة محسوسة ، وكانت صحتها مقترنة
بالبرهان القاطع ، أن أربعة أخماس الأعضاء ابتدأوا البحث وهم فى
أشد درجات الإنكار لهذه الأشياء معتقدين قلباً وقالباً أنها ليست إلا
نتيجة الغش أو الوهم ، أو بالاقول نتيجة حال اضطرارى للأعصاب
ولكن بعد أن وضحت لهم هذه الحوادث وضوحاً تاماً فى شروط
نفت كل تلك الفروض ، وبعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً ،
لم ير هؤلاء الأعضاء المذكرون بداً من اعتقاد أن هذه الخوارق
حقيقة رغم أنوفهم ، الى أن قال : وهذا جدول بأسماء مشهورى رجال
الأرض الذين يعتقدون هذه الخوارق ممن لا يستطيع أحد جحود

فضلهم وأنا نستخرج هذا الجدول كما ستراه بلا استقصاء فان الاستقصاء
يضطرنا لذكر الألوف الموافقة فإليك : —

(من علماء إنجلترا)

دومرجان . وليم كروكس . لودج . هكسلي . فارلى . ا. كس .
تشامبرز . هودس . موزس . بانفور . روسل . ولاس . باريت .
جون ليوك . لويس . جان كوكس . جرسكستون . جرجنلى .
باركس .

(من علماء فرنسا)

الدكتور دوزار . موتنييه . كاميل فلامريون . أوليفيه .
سارودو . جول بوا . اوجين نو . دوروشاس . داريكن . ريشيه .
شارل فوفتى . جان فينو . فيكتور هوجو . جريمار

(من علماء أمريكا)

مابس . هار . اليوت . ادمون . هيزلوب

(من علماء ألمانيا)

زولنر . فيشنر . اولتريسى . ونير . شبنر . وندت

(من علماء إيطاليا)

لومبروزو . كيايا . فالكوم . كيابارلى

ثم قال بعد ذلك ونحن نقول بعد عرض هذه الاقوال أن حركة
الاعتقاد بالروح فى العصر الحاضر تفوق كل حركة تقدمتها وأن

البرهان المحسوس على وجود الروح وخلودها صار على طرف الثمام
أكل طالب

فيا ليت رسل الظلمة يفتحون أعينهم لمشرق هذا النور المنبعث
في كل مكان فيقاعون عن تسميم النفوس بكتاباتهم الالحادية والله
من ورائهم محيط

(ما نقل عن حجة الاسلام أبي حامد الغزالي)

« المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية في هذا الموضوع »

سمعت فيما سبق لك أن علماء الاسبرتزم يقولون أن الحد
الفاصل بين الأحياء والأموات ليس من الخطورة على ما يظن الناس
والآن نتلو عليك ما نقل عن الامام حجة الاسلام الغزالي في
هذا الموضوع

نقل عنه أنه قال لبعض أصحابه ائتني بثوب جديد فأني أريد
أن أدخل على الملك فأتي له بثوب فأخذه منه وطلع الى بيته فأبطأ ولم
ينزل فدخل اليه صاحبه ومعه ثلاثة أشخاص فوجدوه قد قبض
وعند رأسه هذه الأبيات

قل لاهوان رأوني ميتاً	فبكوني ورثوا لي حزناً
أتظنون بأنى ميتكم	ليس ذاك الميت والله أنا !!
أنا في الصور وهذا جسدى	كان بيتى وميصى زمناً
أنا كنز وحجبانى طلسم	من تراب كان ضيقاً وعناً

أذ در قد حواه صدف
 أنا عصفور وهذا قفصی
 أحمد الله الذي خلصني
 كنت قبل اليوم ميتاً بينكم
 وأنا اليوم أناجي ملا
 عاكف في اللوح أقرأ وأرى
 وطعامي وشرابي واحد
 ليس خمراً سائغاً أو عسلاً
 فافهموا السر ففيه نبأ
 فاهدموا بيتي ورضوا قفصی
 قد ترحلت وخلفتكم
 لا تظنوا الموت موتاً أنه
 حي ذی الدار نووم مغرق
 لا ترعكم هجمة الموت فما
 وخذوا في الزاد جهداً لاتنوا
 واحسنوا الظن برب راحم
 ما أرى نفسي الا أنتم
 عنصر الانفس منا واحد
 فارحموني وارحموا أنفسكم
 أسأل الله لنفسي رحمة

لامتحناني فنفيت الحنا
 طرت عنه وبقي مرثناً
 وبني لي في المعالي مسكناً
 فحييت وخلعت الكفناً
 وأرى الله جهاًراً علناً
 كل ما كان تنا آي ودناً
 وهو رمز فافهموه حسناً
 لا ولا ماء ولكن لبناً
 أي معنى تحت لفظي كمناء؟
 وذروا الطاسم يعلوه الفنا
 لست أرضى داركم لي وطناً
 لحياة وهو غايات المنا !!
 فإذا مات أطار الوثناً
 هو الا تقلة من هاهنا
 ليس بالعاقل منا من ونا
 شاكر للسعي وأثوا أمناً
 واعتقادى أنكم أنتم أنا !!
 وكذا الجسم جميعاً عننا
 واعلموا أنكم في أثرنا
 رحم الله كريماً أمناً

(محاوراة علمية)

« مع بعض ذوى العلوم الجديدة »

نسوق لك هذه المحاوراة لتعلم أن أكبر شيء سمعت به في الدين لا يناقض الأحكام العقلية ، ولا المقررات العلمية ، وأن خيل ذلك لفريق من الناس فالذنب لأنظارهم الواهية ، لا لحقائقه العالية ، جرى الحديث يوماً بيني وبين كبار المتعلمين من الموظفين في مسألة عروج (النبي صلى الله عليه وسلم) إلى السموات العلى فقابل ذلك بالإنكار الشديد وقال أنى أقوم لك البرهان الملموس على بطلان ذلك وابتدأ يقرر البرهان قائلاً أن طبقات الهواء التى على ظهر الأرض يبلغ ارتفاعها نحو عشرة آلاف متر تقريباً ثم ينقطع الهواء بالكلية ومن المحال أن يعيش انسان أو حيوان بعد ذلك فقلت له لعلك قرأت شيئاً مما ينقل عن علماء (الاسبرتزم) و (الابنوتزم) ، فقال (نعم) ، فقلت له هل رأيت فيما قرأت أن بعض المنومين تنويماناً مغناطيسياً قد شم محاول النوشادر المركز ولم يحصل له ضرر ، وأن بعضهم خاض النار المتأججة عند ما أفهمه المنوم أنها روضة يانعة ، إلى غير ذلك من أعجيب ما نقل عنهم ، فقال رأيت شيئاً كثيراً مما يشبه ذلك ، ومما رأيته أن بعض الناس وهو مستيقظ لا منوم اعترته حالة غريبة وقتاً من الاوقات فوجد نفسه على شاطئ البحر ووجد بعض رفاقه الذين يعرفهم في باخرة من البواخر اذ حصل لها حادث عظيم ففرقت

في الحال ثم رجع الى حالته الطبيعية متعجباً مما عراه وراه ، فجاءت
الأنباء بعد ذلك بصحة ما شاهدته في ذلك الوقت بعينه فقلت له
فيماذا تعلل ذلك والى أى سبب مادي تسنده فقل لا أستطيع أن
أسنده الى شيء ، غير أنى لست بالمكذب لعظمة أولئك العلماء الذين
تصدوا لهذا الموضوع مع كثرة عددهم ولكنى مدهوش من تلك
الأنباء متعجب منها كل العجب فقلت له أنى أعلمها لك الآن تعليلاً
يقبله عقلك ، ويستريح له وجدانك ،

أن الروح التي هي من أمر الله المتعلقة بهذا الهيكل الجسماني
ليست من طبيعة تلك المواد الأرضية ، فلا تخضع لنواميسها بل لها
نواميس أعلى تناسب طبيعتها النورية ، فهي لا تتأثر بتلك المؤثرات
مهما بلغ أمرها ، وليس لسلطان الفناء والاضمحلال عليها من سبيل ، فاذا
غلب سلطانها على سلطان الجسم بالرياضة والصفاء أو بغلق أبواب
الحواس واماتة التوجه الى الحسوسات من نفس الانسان حتى يتخلى عن
تدبير جسمه وعن كل ما يشغله من هذا العالم الحسى رجعت الروح
الى مقتضى طبيعتها ، فظهرت خصائصها ، وسادت نواميسها ، وخفيت
أحكام الاجسام في أحكامها ، فكان الحكم اذ ذاك للروح لا للجسم ،
والروح كما قررنا لا تخضع لنواميس هذا العالم ، بل هي فوقها لأنها
من عالم البقاء لا الفناء ، ومن جواهر التقديس والصفاء ، لا مواد تلك
الأشياء التي يقع عليها بصرك في الأرض أو السماء ، فيمكنك بعد
ذلك أن تفهم ان مسألة المعراج لا يحيلها العقل الذمى اتسع نظره

فعرّف حقائق الأشياء ، ولم يحصر نفسه في سجن دائرة هذه
المحسوسات الضيقة

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يعرج به الى تلك العوالم العليا الا وقد
بالغ من الصفاء أكمله ، ومن التقديس عن لوث الظلمات أفضله ، كي
يستعد لما يوحى اليه ، ويلقى عليه ، هذا من الوجهة العقلية

وأما مسألة النقل فهي مسألة أخرى وليس يهمننا الكلام فيها الآن
لرد ما ذكرته من البرهان ثم ذكرت له بهذه المناسبة قول ، باكون
وهو أبو علم الطبيعة كما في دائرة المعارف وغيرها (أن الحقائق الدينية
قد تظهر لنا باطلة نظراً لضعف معارفنا) ويقول أيضاً (أن الروح تنقسم الى
عاقلة وهي منفصلة عن المادة وغير عاقلة تتولد من المادة وهي للحيوان
والعاقلة للانسان)

فأعجب بذلك الرجل كل الاعجاب وقال صدق من قال من
جهل شيئاً عاداه ، ثم افترقنا ولسان حاله يقول :
لاشئ في هذه الدنيا نحيط به الا احاطة منقوص بمنقوص

(بيان شوق الارواح الى العلوم والمعارف)

ان كل شئ في الانسان يميل الى ما يلائمه ويحصل له لذته ،
فالعين تميل الى المبصرات الجميلة لأن فيها لذتها ، والأذن تميل الى
الأخبار العجيبة لأن فيها لذتها ، والأنف يميل الى المشمومات الطيبة
لأن فيها لذته ، وهكذا بالنسبة الى الطعام والشراب الى آخره ،

فكذلك في الانسان غريزة لا يهدأ شوقها ، الى استطلاع المجبولات
وادراك حقائق الأشياء ، من ملكوت السموات والأرض ، لأنها
تجد فيه لذتها ، وابتهاجها بما يفوق سائر اللذات البدنية ، ولعلك
توافقني ، على هذا اذا تخيلت لذتك وابتهاجك الذي يخامر عند
الظفر بحل معضلة من المعضلات ، فكيف بك عندما تطلع على
عجائب الملك والملكوت ، وتعرف ما فيها من أسرار الربوبية التي
ربما وصلت بك كما وصلت بغيرك الى حد التوله والهيان ، بجمال ذلك
الصنع الالهي ، وقدرة مبدعه الحكيم ، وما هو عليه من صفات الجلال
والجمال ، التي يضيق عنها البيان ، ويخرس عندها اللسان ، ولا تعرفها
الاشباح ، ولا يذوقها سوى الارواح

(السرف في تقضيل اللذة المعنوية على اللذة الحسية)

السرف في ذلك هو أن النفس انما تحب المطاعم والمشارب والملابس
الى آخر الملاذ من أجل محبتها للجسم الذي يحتاج الى كل ذلك ،
فهي انما تحبه بالواسطة لا باقتضاء ذاتها المجردة ، فانها بذلك الاعتبار
تنفر منها وتأبأها

وأما شوقها الى العلوم والمعارف والكمالات فهو بمقتضى ذاتها
المقدسة ، وحقيقتها العالية ، وعالمها الرفيع ، لا بواسطة شئ خارج
عنها ، وبالضرورة ما يكون محبوباً بلا واسطة أتم وألذ مما لا يحب
الا بالواسطة ، بل يمكنك ان تقول ان الذي بالواسطة ليس محبوباً على

الحقيقة . وما أحيناه الا للضرورة ، هذا ومن وجهة أخرى فالذائد
الحسية لا يتأتى استمرار لذائذها ، فان الأكل مثلاً اذا زاد عن
حدّه خرج عن كونه لذة وصار مضراً أو مهلكاً وأيضاً فالطعام مهما
كان لا يلتذ به مالم يسبقه ألم الجوع ، وعلى قدر ذلك الألم تكون
تلك اللذة ، (فان شئت أن قلت كثيراً فتألم كثيراً حتى تصل الى
ما أردت) وأظنك لا تشك في شيء من هذا

وأما اللذة المعنوية فلا يسبقها ألم ، ولا يعقبها ضرر ، ولا يشوبها
كدر ، ولا يخشى لها تفاد ، فهي الصافية الدائمة ، بل هي اللذة على
الحقيقة ، المطلوبة لذاتها ، وهي مناط السعادة والراحة

وأما الذائد الجثمانية فيمكنك ان تقول انها ليست لذائد وانما
هي تخلص من آلام سابقة ، وقلما تنفك عن آلام لاحقة

(بيان أن النفس اذا تركت اطاعت على المغيبات)

أراني قد أرتج على باب القول لكثرة ما توارد على من المعاني
التي تدافع طالبة للخروج من حيز الخفاء الى حيز الظهور ، (ضاق
الكلام بنا من عظم ما اتسعا) ، ولكني سأسوسها وأتلف بها
مراعياً رقتها ، ولين ملمسها ، وبهجة منظرها ، محافظاً على كل ذلك
حتى لا أظلمها ، مستعظفاً أياها حتى تخرج مترتبة منتظمة ،

هذا مالك على أيها المتعشق لجمال المعاني ، ولي عليك أن تساعدني
بالاقبال عليها ، والتلطف بها عند ما تفد عليك ، فهي من العالم

اللطيف ، لا من العالم الكثيف . فمن لى بمن يوصل الى الازهان
أن الروح كما يمكنها أن تطلع على ما فى الارض ، وظاهر الملك ؛
كذلك يمكنها أن تطلع على ما فى السماء ، وباطن الملكوت ، وكما
ترى من امامها وهى فى هذا الجسم ، ترى من خلفها ، وكما تشاهد من
فى مصر وهو حاضر معها ، تشاهد من فى الصين على حد واحد ،
وسر ذلك أن الروح من عالم الانكشاف وهى من الجواهر
المجردة التى ليست فى حيز ، فنسبة لاحتياز اليها على السواء ، فليس
هناك شئ يقرب منها وشئ يبعد عنها ، لان ذلك فرع كونها فى حيز
وجهة ، وقد قلنا انها لا حيز لها ولا جهة ، لان ذلك من خواص
الاجسام ، وهى تباينها فى خواصها وأحكامها ، فاذا الاشياء كلها فى
نظرها على نسبة واحدة ليس فيها قرب ولا بعد ، وليس بينها وبين
ما تريد ان تعلمه الا ان تتوجه اليه فقط ، ولكنها لما دخلت فى هذا
الجسم وأحبته على مقتضى القهر الالهى والحكمة الربانية ، شغلت
بتدبيره والسعى وراء مطالبه (وليس لها الا وجهة واحدة) فأحاطت
بها الظلمات الطبيعية ، والغشاوات البدنية ، وصارت تحت سلطان الجسم
يصرفها فيما شاء كيف شاء ، يرسل بصره فيأتى بأخبار المبصرات
وسمعه فيأتى بأخبار المسموعات ، ويده فتأتى بأخبار اللموسات ،
وهكذا بقية الحواس ، ثم يلقى ذلك كله بين يديها لتتظر فيه فتستعد
لدفع ما يضره ، وجلب ما ينفعه
واذا احتاج الى طعام أو شراب أو مركب أو ملابس أو دفاع

عدوا أو غير ذلك ، رفع الأمر إليها ، ولم يقبل فيما يريد منها عذرا .
وان حملها أصراً ، فهي منه في شغل شاغل ، وعناء زائد ، لا تكاد
تفريق لحظة من اللحظات ، حتى نسيت ذاتها ، وهجرت عالمها ، حتى
كأنها لم تعرفه .

ولما تفرقنا كأنى ومالكاً على طول وصل لم نبت ليلة معاً
ولذلك تراها إذا هدأت من تدبير البدن ، وانسدت طرق
الحواس بالنوم ، فانتقطعت عنها الأخبار الشاغلة لها ، ولم يكن لديها أمر
يهمها في اليقظة ، اشتاقت لعالمها ، فرجعت إليه ، واختلست تلك
اللحظات للتنزه فيه ، والتمتع بجماله ، فربما رجع لها شيء من صفاتها
الأصلية ، فأبصرت المغيبات كما كانت تبصرها قبل ، بمرآة بصيرتها
الصقيلة التي يتراى فيها كل شيء ،

واياك أن تعتقد أن الرؤيا لا تكون إلا من الاهتمام بأمر في اليقظة كما
يقررونه الآن ، فإنه قسم منها ، وهو أضغاث الأحلام ، وليست منحصرة
فيه ، وإن كان الغالب ذلك ، فإياك واعتقاد الانحصار الذي أخطأوا فيه خطأ
فاحشاً ، يؤدى إلى تكذيب العيان (وانظر كتب التاريخ في ذلك إن شئت)
والى الحيرة فيما جاء به القرآن ، فى مثل قصة يوسف عليه السلام ، على أن
علماء الاسبرتزم (استحضار الارواح) أنفسهم قد قرروا ان المستقبل
محدود بمحدود مفروع منها قبل ان يكون ، وإن الروح يمكن أن تعرفه
كذلك قبل ان يوجد ، فأربأ بنفسك أن تكذب (وأنت مسلم
تؤمن بالله والقرآن) بما يصدق به علماء أوربا ، واعرف قدر نفسك ،

وكن ملكاً قوياً عادلاً حكيماً ، في اصلاح أمرك ، وتدبير شأنك ،
وأزل الصدا عن مرآة قلبك حتى تتجلى فيها حقائق الأشياء على
ما هي عليه .

(ولا تكن مارداً تسعى بمفسدة في ملك ذاتك لكن فيه كن ملكاً)
فابحث عن تفصيل مملكته الواسعة ، التي جمعت كل ما في
الوجود ، وكن في أرضها ان شئت ، أو في سمائها ان شئت ، واعرف
ما اشتملت عليه تلك المملكة الفيعاء ، من أشرار ، فاحذرهم لئلا
ينحربوها عليك ، ومن خيار فراعهم وانصرهم ، فانهم في ذلة وضعف ،
فقو جانبهم وارفع شأنهم ، بقدر ما يمكنك حتى يتوطد الامن ، ويسود
السكون ويظهر العدل ، وتتم السعادة ، وابحث عما في تلك المملكة
من الكنوز فاستخرجها ، فهي أقرب اليك من الكنوز الخارجية
التي أورثتك العناء ، وأضاعت منك الصفاء .
واذكر قول على رضي الله عنه :

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر
هذا والكلام على الروح طويل جداً ونخشى أن يخرجنا
الشفغ بتحقيق الحقائق على ما نحب الى ما يدق عن كثير من
الافهام ويعلو عن متناول الاوهام فلنقتصر على هذا القدر من
الكلام فيها :

(الفرق بين الاولياء وغيرهم في هذا الموضوع)

اعمالك وقد سبق لك من صفات الروح ما أعجبت به ، تعتقد
أن هذا مقام يطلبه مريد الكمال ، وتشرئب اليه أعناق سادات
الرجال ، غير عالم أن مقام الكشف والاطلاع على المغيبات من أحط
المقامات ، وأنزل الدرجات . عند ذوى الاختصاص من الاولياء
والأنبياء . ولنشرح لك شيئاً من ذلك اجمالاً ، ظن بك ، فان لم تكن
من أهله فدعه لأهله ، وخذ من الكتاب ما هو أولى باستعدادك ،
واياك أن تعتقد أن كل ما هو هين عليك هين على سواك ، وآية عدم
الاستعداد أن لا ترى له وضوحاً عندك ، ولا لذة لديك .

وانى أصدع بالامر بلسان أهله ، فأقول : ان هناك فرقاً كبيراً
بين المؤمن الكامل الذى لا يتوجه الا الى معرفة جلال الله تعالى
وعظمته ، غارقاً فى توحيده واجلاله ، ذاهلاً عن كل شئ فى الوجود ،
وبين ذلك الذى تعنيه المكونات فليفت اليها بمرآة قلبه ، فيعرف
ما سيحدث فيها من الأمور المستقبلية ، بمقتضى ما لجوهر نفسه من
الصفاء ، فانها بمنزلة البلور الذى ينتقش فيه كل شئ يقابله عند
التوجه اليه ، وأما الاولياء والأنبياء فيأبون أن ينقشوا فى ألواح
قلوبهم شيئاً من تلك الامور الكونية ، وان كانت من علم الغيب ،
ويترفعون عن أن يتوجهوا اليها ، أو يدنسوا جوهر نفوسهم بها ،
ويحطوا من عوالى همهم بالالتفات اليها ، والاطلاع عليها ، وان كان

أمرًا كبيراً في نفسه عند غيرهم ، ولكنه حقير جداً بالنسبة الى
درجاتهم ، وعلو مقاماتهم . فجلال الأولياء يرون أن من أكبر
العار النظر الى الأغيار ، والركون الى الآثار ، وأن طلب الكرامات ،
أو الفرح بما يتجلى لهم من ملكوت الأرض والسموات ، لمن دلائل
سقوط الهمة ، وضعف المحبة ، والبعد عن الحضرة ، وعدم خلوص
العبودية ، فإن محب الله لا يبغي به بدلاً ، بل يرى كل شيء يشغله
عن شهود جماله وجلاله ، واستغراق القلب في جميع أوقاته بعظيم
نعمته ، وجليل صفاته ، أكبر برهان على أنه عبد المخلوق ، أسير
الشهوات ، لا محب لرب الأرض والسموات ، ولا هو من الذين
تطهروا من بقايا نفوسهم ، وخرجوا من جميع أكونهم ، فكانوا لله
لا لأنفسهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ، لا يفكرون الا في مرضاته ،
ولا يتحركون الا في طاعته ، متحققين بقوله (ان الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم) ، فهم يرون أن التوجه الى معرفة الحوادث
المستقبلية ، والشؤون الغامضة خروج عن آداب العبودية ، وانصراف
عن الحضرة العلية ، ودليل على بقاء الشهوة ، وضعف المحبة ، وعدم
خروج الكوان من القلب ، ووجود بقايا المخلوق في أعماق النفس .
ومن يكن هذا شأنهم لم يزالوا في الأكون يرتعون ، وعن مدارها
لا يخرجون ، متكسة أبصارهم الى الأغيار ، مأثومة نفوسهم الى
الآثار ، بعيدة عن مشاهدة جلال الواحد القهار ، وأن تجلى لهم من

أنوار الملك والملكوت ، ما يحير الأفكار ، ويأخذ بالأبصار ، فأين أولئك ممن يقول : —

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاخترنى
أو من يقول : —

قال لى حسن كل شئ تجلى بى على فقلت قصدى سواك
وحد القلب حبه فالتفانى لك شرك ولا أرى الاشراك
أو من يقول : —

ولو خطرت لى فى سواك ارادة على خاطرى يوما قضيت بردى
أو من يقول : —

وحرمة الود مالى عنكم عوض وليس لى فى سواكم بعدكم غرض
ومن حديثى بكم قالوا به مرض فقلت لا زال عنى ذلك المرض
وما أجدره أن يخاطب المشغول بأنوار الملكوت عن ذى العزة
والجبروت بقوله : —

وهمت بأنوار فهمنا أصولها ومنبعها من أين كان فما هنا
وبهذا تعلم سر قولهم أن الكشف من أقل الدرجات ، وأنه من
صفات أرباب الأحوال ، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ، وتعرف السبب فى
عدم كثرة الكرامات ، والكشوفات من أكابر الصحابة ، وكل السلف
الصالح ، فان بواطنهم كانت مستغرقة الهم بالله ، وظواهرهم مقصورة
على طاعة الله ، ويرون من سوء الادب ، أو انحطاط الهمة ، أو
نقص المحبة ، أو عدم الصدق فى العبودية ، أن يتوجهوا بقلوبهم الى

ما سيحدثه الله في الزمان المستقبل ، أو يعتنوا بشأن كون من ألا كون حتى يجعلوا له محلاً من قلوبهم ، ومركزاً في داخل نفوسهم ، ونصيلاً من عنايتهم وقسطاً من وقتهم ، وتوجهاتهم ، هذا هوشان الكاملين الذين فنوا في محبة الله ، والتزموا الوقوف بباب حضرته ، والعكوف على الاخلاص في خدمته ، قلوبهم هي محل التجليات والفيوضات ، وهي مشرق الأنوار ومتمنزل الاسرار ، ولكن يأبون أن يتخذوا تلك الأنوار العلية ، سراجاً يبحثون به عن خفايا المكنونات ، أو دفائن المغيبات ، من حوادث الكائنات ، مما هو شهوة من الشهوات ، وركوض في عالم الظلمات ، وهذا قليل من حالهم ، ونذر يسير من شرح كالحلم ، سقناه لك تمحيصاً لما تحب من الحقائق العلمية ، أو تشويقاً للمستعدين لتلك المقامات العلية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

(بيان معنى مرض القلوب وموتها)

« والسبب في عدم احساس الناس بذلك »

قال الله تعالى يصف المناققين ، (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم) ، وقال تعالى (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) فجعلهم فريقاً آخر يقابل فريق الاحياء ، وربما يظن ظان ان هذا خرب من التجوز قصد به المبالغة ، وتمثيل المعقول بالحسوس ، وقد

جاء هذا الظن من التغفل في المحسوسات ، حتى صار نظره قاصراً عليها ، وأصبح غيرها داخلاً عنده في عالم العدم ، وهي نتيجة طبيعية لكثرة مزاوله المحسوسات وهجر ما عداها . وقد يصل به الأمر إلى إنكار ما سوى المحسوسات بالكلية ، فيكون بمنزلة من ينكر أضواء الكواكب لفقد بصره ، أو وجود الحيوانات الذرية المسماة بالمكروبات مثلاً لعدم وجود الميكروسكوب (المنظار المعظم) لديه ، ولو أنصف لعرف أنه لا معنى للمرض إلا نقص الآثار التي كانت تصدر عن قام به المرض . ولا معنى للموت إلا بطلانها بالكلية

وأستسمحك في مثل هذا المقام أن تتساهل معي بعض التساهل في التعبير الذي لا يضر في الغاية المقصودة لنا من إيصال تلك الحقائق إلى الأذهان ، وإيك أن تكون من قاصري النظر المتفلسفين الذين يقفون عقبة في طريق كل خير ، ويطيئون القول على غير طائل فإذا تلك القوة الربانية التي تصدر عنها الآثار العجيبة التي شرحنا بعضها فيما سبق إذا نقص شيء من آثارها كانت جديرة بأن تسمى مريضة ، كما أن العين إذا لم تبصر ابصارها المعتاد كانت مريضة وكما أن حاسة الذوق إذا كانت تجرد المر حلواً والحلو مرّاً حكمت بأنها فاقدة لصحتها ، فكذلك القلب إذا صار يستلذ الشرور واتقياح ويميل إلى الجهالات (وقد كانت لذته زمن صحته في اكتساب الفضائل والكلمات) كان مريضاً ، وصار بمنزلة من يستلذ أكل الطين ، وينفر من الأطعمة الطيبة ، وإذا صار لا يبصر الحق الواضح ، وكان

يصر ما في السموات العلى ، فما أجدره بأن يسمى أعلى ، الى آخر
الصفات التى كانت له قبل ، فانسلخ منها وتباعد عنها ، ولما كان هذا
القلب هو الانسان على الحقيقة ، وهو المتصف بخاتمة الانسانية دون
غيره من أجزاء الجسم ، كان جديراً بأن يسمى صاحبه ميتاً ، اذا
ضاعت منه هذه الخاصة ، وبطلت منه تلك الآثار كلها ، وان من
يصف الجسم بالمرض لنقصان بعض آثاره ، ولا يسهل عليه أن يصف
القلب بذلك الا على سبيل التجوز ، كان بمنزلة من يصف النباتات
بالمرض ولا يرضى أن يصف الانسان به مع كونه أتم منها حياة وأعظم
منها أثراً .

ولما كانت حياة الجسم لا قيمة لها بدون حياة القلب : (الروح)
وهى مفاضة عليه منه ، لم يعتبرها القرآن حياة ، وقصر الحياة على حياة
القلوب ، فقال (أو من كان ميتاً فأحييناه) ، لانه يريد الحياة الانسانية
لا النباتية ولا الحيوانية

وأما السبب فى جهل الناس بذلك فهو أنهم لم يعرفوا قلوبهم
الا وهى مريضة بتلك الامراض ، وقلما يذكر الانسان منهم تلك
اللذة التى كانت للقلب زمان الصحة ، أو يعرف ذلك الزمان

اللهم الا فى لحظات قليلة فى صفاء الليل ، فيتنسم نسيم القرب ويشم
رائحة تلك الرياض ، ويدوق بعض تلك اللذة ، ولكن لا يلبث أن
تجذبه سلاسل محبوباته وشهواته الى السفلى فيحجب ذلك الضياء
ويضيع منه ذلك السناء

خطرة في السر منه خطرت خطرة البرق بدا ثم اضمحل
فهو يظن أن هذا هو طبيعة القلب ، وهذه مقتضياته ، وذلك
مبلغ علمه ، وأيضاً فهو لا يجد من الناس الذين هو في وسطهم الا
من كان على شاكلة وقلاً يجد من الأصحاء أحداً وان وجدهم قليلاً
يعرفهم ، لانه انما يبصرهم بالحس الباطني ، وقد فرضنا مرضه أوقفده ،
وأما الامراض الظاهرية فهي محسوسة بالحس الظاهري ، وكما
تقلب وجد العدد العديد من الأصحاء

واما من وصل به الحال الى حد الموت فقد بطل منه الاحساس
بالكلية ، وتلف استعداده الاصلى بالمرّة ، فهو لا يصدق بآثار تلك
الروح ، ولا يشواق اليها ، لان الانسان لا يشواق الى شيء الا اذا
كان مستعداً له (فالشوق علامة الاستعداد) وهذا هو غاية الوبال ،
ونهاية الخسران

فان المريض اذا أحس بمرضه ، طلب له الدواء ، فرجى له الشفاء ،
والا يتس منه الأطباء ، وخاب منه الرجاء ، ولهذا يقول الله تعالى في
حق قوم وصلوا الى هذه الدرجة ، (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم
الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا) ويدكر في ذم
المنافقين وبيان خاصتهم ، (الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ،
فانهم لو شعروا بما هم فيه لرجى صلاح عالم ، فنبه سبحانه على انهم
بحيث لا يرجى منهم فلاح ، ولا ينتظر لهم صلاح ، وهو غاية النقص
الشنيع ، ونهاية الذم الفظيع ، ولا يخفى عليك أن الناس متفاوتون في

تلك الامراض تفاوتهم في تراكم الظلمات . وارتكاب الآفات

(النفس وما جلبت عليه)

(بعد اتصالها بهذا الهيكل الجسماني)

قضى الله أن ينزل هذه النفس الشريفة من عالمها الرفيع ، ويدخلها
في سجن هذا البدن

ولما كانت مقتضياتها من حيث انها جوهر مقدس تضاد مقتضيات
هذا الجسم ، لما بينهما من التباين ، اقتضت الحكمة الالهية أن تغرس
فيها محبة شديدة لهذا الهيكل الجسماني ، حتى تتحمل رذائله وأثقاله ،
وتخف عليها تلك المصيبة التي منيت بها ، وان كان في تعلقها به حكم
كبرى وبما تعرضنا لها بعد ، ثم لاتزال تتزايد تلك المحبة على ممر
الايام ، فيزداد شغفها بتدبير مصالح الجسم ، والسعى وراءها ، وان
كانت من أسمح ما يكون ، (والمحبة لا يرى لمحبو به عيباً ولا فيما
كلفه به ثقلاً) ولو وقفت عند الحد المشروع لها في ذلك لمت لها
السعادة ، وقامت بما أريد منها أحسن قيام ، ولكنها بمقتضى هذا
الحب المفرط ، وذلك الجهل الذي استولى عليها عندما انغمست في
ظلمات الطبيعة المادية ، قد تلاشت بالكلية في مطالب الجسم ،
ونسيت عالمها الأول ، ومقتضيات ذاتها وبطل منها الشوق الى الكمال
الحقيقي ، وقد نبه الله على ذلك في فريق من الناس ، فقال (نسوا
الله فأنساهم أنفسهم) فاذا اتغلغلت في ذلك الوادي الوخيم اتصفت

باقبح الصفات ، واخس الخصال ، واختلط عليها الامر ، وضاع منه
الرشد ، وخيل لها أن مقتضيات الجسم هي مقتضيات ذاتها ، فبالغت
فيها فجهلت ، وظهرت منها الأشياء المتضادة ،

والسرف في ذلك أن الانسان مركب من جوهر نفيس ، وجوهر
خسيس فلا بد أن تظهر مقتضيات هذا وذاك ، بل أزيدك في الامر
بيانا وهو أن الانسان اذا غلبت عليه صفات نفسه الاولى ، التي هي
فضائل محضة ثم أراد أن يسير بها في مطالب الجسم كما هو موضوعنا ،
انقلبت رذائل محضة ، فغريزة الشوق الذي لا ينطفىء وهي من غرائز
النفس الفاضلة وقد أوجدت فيها كي لا تقف عند حد ، ولا تنتهي الى
كمال ، فتكون في الترقى في الكمالات دائما بمقتضى ذلك الشوق ،
وان شئت فسمه شهوة

تلك الغريزة التي هي من أفضل الغرائز وأعظمها اذا استعملت
في مطالب الجسم انقلبت شرها لا ترويه المحيطات ، ولا تشبعه أعظم
الممالك ، فكانت أكبر رذيلة ، وأول تقيصة ، وصرت بها أول
الجهلاء وقد خلقت فيك لتكون بها أول العلماء الى غير ذلك مما لا يناسبه
الا كتاب مخصوص ويكفينا الآن هذا التمليح

فمن أجل هذه المطالب وتلك المحبة ، وهاتيك الغرائز التي
استحال الى اضدادها ، كان الانسان مجبولا على الظلم والجهل ، كما
قال تعالى في الانسان (انه كان ظلوماً جهولاً) لم يجعله ظالماً وجاهلاً
ومارضى (وهو العليم) حتى جعله ظلوماً وجهولاً

وكان مجبولاً على الشح والبخل (قل لو أنتم تملكون خزائن
رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتورا) وهذا
أبلغ ما بين الانسان مزيد جبهه . وينعى عليه سوء حاله ، اذا كان
عظيم الحرص شديد البخل ، ولو ملك خزائن رحمة الله تعالى ، وهي
التي لا تنفذ ولا تبعد ، ولكنه حكم الجبل ، ومقتضى غريزة الشح ،
الى غير ذلك من الصفات التي بينها الله تعالى في الآيات العديدة
كقوله تعالى (خلق الانسان من عجل) وانظر كيف بالغ في بيان
مافى الانسان من التسرع والطيش ، حتى جعله مخلوقاً منه ، الى آخر
ما جاء في الكتاب والسنة ، وقرره الاخلاقيون وسنشرح لك بعض
تلك الصفات على التفصيل فنقول :

ان من أخص صفات النفوس الانسانية العظمة والكبرياء بما
لا يمكن شرحه ، ولا يعرفه المتكبر نفسه ، الا اذا كان بالحلل الاول
من النظر الصحيح ، فانه يرى نفسه انما تطمع في الترفع على بعض
الناس دون بعض ، فيظن ان ذلك حدها الذي تنتهي اليه ، وقد فاتته
انه لم يتحرك فيها الكبر الى ما فوق ذلك الحد لعدم طماعتها في
الترفع على تلك الطبقة العالية ، فهو كامن فيها كمن النار في الزند ،
حتى اذا رفعته الايام الى ما فوق مركزه الذي هو فيه تحرك منه ذلك
الخلق السيئ ، فأحس به اذ ذاك ، ولا يزال كذلك حتى يقول ما
قال فرعون لقومه (يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى)

ففي النفس الوهية طبيعية ، ولكن لا تظهر الا على قدر ما تسمح

به الظروف ، وتحتمله النفوس ، حتى اذا خلا لها الجو ورأت من يقبل
منها ذلك ، أظهرت السكامن فيها ، وقالت (أنا ربكم الاعلى)
ولهذا أرى أن محبتها للعلو والجاه أمر طبعى لما فيها من الالهوية
التي شرحناها ، فهي تحب الاستيلاء على القلوب لذاته لا من أجل
انه وسيلة الى المال ، كما يقرره كثير من الاخلاقيين ، فان محبة الجاه
أعلق بها من محبة المال ، فهو مقصود لذاته بل الامر بالعكس عند
ذوى النفوس الكبيرة

وارجع الى نفسك هل تراها تقبل ان تسقط منزلتها عند فقير
مقعد لا يرجى منه خير ، ولا ينتظر له فلاح ؟ ؟ !

لا ، بل تراها تتألم اذا لم يحترمها كما تحب ، ويعطيها حقها على
ما تشتهى ، بل ربما كانت سقوط ذلك الفقير ، داعيا الى مزيد
سخطها ، وشديد غضبها ، فلا يتصور ان يكون ذلك من أجل مال
تبتغيه من الاستيلاء على قلب ذلك الفقير الميئوس منه

ولهذا السر تراها تأبى الا أن تنفذ ارادتها ، ولو دمرت العباد
وأخربت البلاد .

تراها لا تقف فى الانتقام عند حد معقول ، بل تجازى على أقل
هفوة بأفزع أنواع القتل ان استطاعت الى ذلك سبيلا ، وانظر فى
تاريخ الملوك السابقين والامراء المستبدين

تراها تكره من يعارضها فيما تحب ولو كان أحق الحق ،
وأول الصواب

تراها لا تحب المشاركة في شيء وتأبى إلا أن تستأثر بكل شيء
لأنه الرفعة والكمال .

(سبب تقدم المنافقين ورفعتهم)

أبنا أن النفس تأبى إلا أن تنفذ هواها ، ولا تميل إلا لمن
يساعدها على ذلك وتنفر كل النفور ممن يضع لها العقبات في طريق
ما تهواه ، وإن كان أنصح الناصحين لها ، وأعظم المشفقين
عليها ، وأنها مجبولة على حب المدح والثناء ، (حب الثناء طبيعة
الإنسان) لأنها تستشعر بذلك رفعتها وكمالها ، فترتاح له وتحن إليه ، وإن
كانت تمدح بما ليس فيها ، لأنها كثيراً ما يغالطها الوهم ويضلها
الخيال ، (وقل من يعرف عيب نفسه) ، أو لا يعتقد فيها الكمال

ولهذا ترى المنافق المتعلق سرعان ما يستولى على النفوس ،
ويأخذ بحيات القلوب ، لأنه قد سبق لك أن في النفوس ألوهية
كامنة وأنها تسعى وراءها على قدر ما يمكنها ، وقد وجدت في هذا
المنافق أمنيته المقصودة ، وضالته المنشودة .

وجدت منه عابداً عارفاً بواجبات الألوهية ، فقابلها بالامثال
الاعشى ، ولم يبحث وراءها عن سر ما أمرت ، ولا حكمة ما قضت ،
شأن العبد الذي استدلم بكليته لمولاه

وجدت منه موافقاً لأغراضها ، ومسارعاً إلى شهواتها ، وهي
ترتاح لذلك ارتياحاً وجدانياً ، وإن كانت تمقته إذا رجعت إلى عقلها

ولكن عرفنا من أحوال النفوس ان الغالب عليها هو الأمور
الوجدانية ، دون البرهانية ، حتى في أذكى الذاكيا ، وأكبر
الكبراء .

وانظر ان شئت الى السكير الذي يئن من شرب الخمر ، ويعتقد
انه أعظم مفسدة ، وأكبر مضرة ، كيف يرتاح الى ندمائه ، ويمجن
اليهم حنينه الى الكأس ، فتلك غريزة في النفوس كلها ، تميل الى
من يوافقها على ما تشتهي . هما كان
(وسلطان الطبيعة فوق سلطان العقل ، وان كان يتوقد ذكاء ويشغل ضياء ،)

(بيان السبب في أن الانسان لا يعرف عيب نفسه)

أظنك تعرف انك اذا أحببت أحداً من الناس أعجبتك صفاته
وأفعاله ، ولا تكاد تنظر فيه عيباً ، (وكل ما يفعل المحبوب محبوب)
هذه صفة لازمة للحب لا تنفك عنه ، ولهذا قالت عذرة لعبد الملك
ابن مروان عند ما قال لها : أى شئ فيك أعجب كثيراً حتى قال
ما قال ؟ فقالت (انه كان يرانى بعينين ليستا في رأس أمير المؤمنين)
وهاتان العينان ليستا الا عيني الخلة والمحبة ، وقد ورد (حبك الشئ
يعنى ويصم)

ولهذا السر قد شرعت المشورة ولو كنت أذكى الذاكيا ،
وأحكم الحكماء ، لانك لا تكاد تبصر الصواب في أمرك ، لمكان
الميل والهوى من نفسك

فاذا علمنا ذلك علمنا ان نفسنا أحب الاشياء الينا وكل
شيء أحببناه فانما هو من أجلها ، واذا كانت لا ترى عيياً في محبوبها
فبالاخرى ان لا ترى عيياً في نفسها ، فيصعب عليك جداً ان تضع
نفسك في محل المتقد والمتقد ، وفي مركز الحاكم والمحكوم عليه ،
ومن جهة أخرى انها خفية المكر شديدة الخداع ، كثيرة الحيل ،
سريعة الروغان على ما تسمع

ولعلك لا تفهم معنى ذلك وتريد ان تسمع في بيانه شيئاً معقولاً
وسراً مفهوماً ، فاعلم ان النفس تميل الى مشتبهاتها ميلاً فطرياً ، وتنفر
عن ما لا يلائمها كذلك ، فهي تسير نحو مطالبها بمقتضى الطبع لا بمقتضى
التفكير ، والتدبير ، وما يكون باقتضاء الطبع فقلما يدخل تحت دائرة
الفكر ، لان هذا عالم تسير فيه الطبائع على مقتضى ما فطرت عليه
وذلك عالم آخر يسير فيه العقل على مقتضى الدليل والبرهان ، فهو
سير تكافى بطيء على رواحل ضعيفة مهزولة ، وقلما تعرض الطبائع
مطالبها على العقل أو تستصدر منه أمراً ، أو تنتظر له اذنًا ، فانها غنية
عن ذلك ، وكيف تستصدر منه الامر ، أو تنتظر الاذن ، وهي أقوى
منه سلطاناً ، وأجد منه سيراً ، وأحد منه سلاحاً ؟

وان شئت فانظر الى تدبير الغذاء مثلاً هل تجدها تستأمر العقل
فيما يحتاج اليه من الصفراء والبنكرياس (١) وهو في الامعاء أو المعدة أو

(١) البنكرياس غدة تحت المعدة تتصل بالظاهر تفرز سائلاً يسمى
العصارة البنكرياسية

تستأذن منه عند ما يكون (١) كيموسا وتريد أن تدفعه الى الامعاء ،
وهكذا في تنقلاته كلها حتى يصل الى البطين (٢) الأيسر ثم يخرج
منه الى الأورطة (٣) ويتوزع في جميع فروعه الى أنحاء البدن
لاشك انك لا تشعر بذلك ، ولا تحس بشئ مما يكون بتلك
المملكة المنظمة ، فانها مملكة أخرى لم يوكل اليك تدبيرها ، فلا
تعرف أخبارها وحوادثها من طريق الفكر ، فهكذا سير النفس الى
مطالبها وشهواتها ، انما هو بمقتضى الطبع لا بحكم العقل وإشارة الفكر
فلا تكاد تعرفه أو تحس به ، وهذا هو معنى كونها خفية المكر تتسلل
الى مطالبها من غير ان يشعر العقل بذلك ، تارة وتصرعه بمقتضى
قوتها تارة أخرى

وتراك اذا عقدت على نفسك عقداً ثم سرت في طريقه فصادفت
ما لا يوافق الطبيعة في أهوائها ، وجدت نفسك تنزع الى حل ما
عقدت ، وتقض ما أبرمت ، لان النفور من غير الملائم طبعي كما
ذكرنا ، (فالنفس دائماً مع الطبع لا مع العقل) ، وهذا معنى كونها
كثيرة الروغان ، لا تدعن لعقد ! ولا تفي بعهد .

-
- (١) الكيموس اسم للطعام عند ما يتم هضمه في المعدة
(٢) البطين الايسر والبطين الايمن مجويفان بأسفل القلب وهما
تحت الاذين الايسر والاذين الايمن
(٣) الأورطة هي عرق كبير يصب فيه الدم الصالح للتغذية بعد
خروجه من القلب وهي المسماة بالابهري

وربما تطير من نور الطبيعة شررها ، وعلا دحنيها حتى أضمت
حيات القلب فصار لا يمكنه أن يبصر شيئاً في حندس تلك الظلمات
فانهزت تلك الفرصة فخدعته ، وضمتها إليها ، فصار لا يرى الا
ما تراه ، ولا يميل الا الى ما تهواه ، وحينئذ لا يكون بينهما معادة
ولا معاندة ، لانه قد تم بينهما الاتحاد ، فبطل العناد ،

وأما المصادمة بين العقل والطبيعة فلا تكاد توجد الا في كل
الرجال ، الذين لم ينظمس نور بصيرتهم ، بظلمة طبيعتهم ،

ولعلك بعد هذا قد استبان لك الامر على ما تحب ، غير اني
أحب لك ان تضم الى ما سبق من الفوائد فائدة أخرى وهي ان تعلم
ان هناك قوتين من عالم الادراك ، وكأنهما موظفان بدائرة الطبيعة
وهما قوة الوهم الذي تستعمله النفس في كثير من مطالبها ، فينبعث
أسرع من حركة الاجسام الثقيلة ، الى السفلى غير متحر صدقاً ، ولا
باحث عن حقيقة

وقوة الخيال (١) الذي هو أعجب من الفتوغراف في انطباع
صور المحسوسات فيه

هذا ويحسن بنا بعد ما تقدم ان نبحث عن طريق معرفة عيوب
النفس فنقول :

(١) جريتنا هنا على مذهب من يجعل الخيال مدركاً لا خزانة

تستأذن منه عند ما يكون (١) كيموسا وتريد أن تدفعه الى الامعاء ،
وهكذا في تنقلاته كلها حتى يصل الى البطين (٢) الأيسر ثم يخرج
منه الى الأورطة (٣) ويتوزع في جميع فروعه الى أنحاء البدن
لاشك انك لا تشعر بذلك ، ولا تحس بشئ مما يكون بتلك
المملكة المنظمة ، فانها مملكة أخرى لم يوكل اليك تدبيرها ، فلا
تعرف أخبارها وحوادثها من طريق الفكر ، فهكذا سير النفس الى
مطالبها وشهواتها ، انما هو بمقتضى الطبع لا بحكم العقل وإشارة الفكر
فلا تكاد تعرفه أو تحس به ، وهذا هو معنى كونها خفية المكر تتسلل
الى مطالبها من غير ان يشعر العقل بذلك ، تارة وتصرعه بمقتضى
قوتها تارة أخرى

وتراك اذا عقدت على نفسك عقداً ثم سرت في طريقه فصادت
ما لا يوافق الطبيعة في أهوائها ، وجدت نفسك تنزع الى حل ما
عقدت ، وتقض ما أبرمت ، لان النفور من غير الملائم طبعي كما
ذكرنا ، (فالنفس دائماً مع الطبع لا مع العقل) ، وهذا معنى كونها
كثيرة الروغان ، لا تدعن لعقد ! ولا تفي بعهد .

-
- (١) الكيموس اسم للطعام عند ما يتم هضمه في المعدة
(٢) البطين الايسر والبطين الايمن بجوفان بأسفل القلب وهما
تحت الاذنين الايسر والاذنين الايمن
(٣) الأورطة هي عرق كبير يصب فيه الدم الصالح للتغذية بعد
خروجه من القلب وهي المسماة بالابهري

وربما تطاير من نار الطبيعة شررها ، وعلا دخنها حتى أضمت
حيات القلب فصار لا يمكنه أن يبصر شيئاً في حندس تلك الظلمات
فانهزت تلك الفرصة فخدعته ، وضمتها إليها ، فصار لا يرى الا
ما تراه ، ولا يميل الا الى ما تهواه ، وحينئذ لا يكون بينهما معاداة
ولا معاندة ، لانه قد تم بينهما الاتحاد ، فبطل العناد ،

وأما المصادمة بين العقل والطبيعة فلا تكاد توجد الا في كل
الرجال ، الذين لم ينطمس نور بصيرتهم ، بظلمة طبيعتهم ،

ولعلك بعد هذا قد استبان لك الامر على ما تحب ، غير انى
أحب لك ان تضم الى ما سبق من الفوائد فائدة أخرى وهى ان تعلم
ان هناك قوتين من عالم الادراك ، وكأنهما موظفان بدائرة الطبيعة
وهما قوة الوهم الذى تستعمله النفس فى كثير من مطالبها ، فينبعث
أسرع من حركة الاجسام الثقيلة ، الى السفلى غير متحر صدقاً ، ولا
باحث عن حقيقة

وقوة الخيال (١) الذى هو أعجب من الفتوغراف فى انطباع
صور المحسوسات فيه

هذا ويحسن بنا بعد ما تقدم ان نبحث عن طريق معرفة عيوب
النفس فنقول :

(١) جرينا هنا على مذهب من يجعل الخيال مدركاً لا خزانة

(بيان ما هو الطريق الى معرفة عيوب النفس)

قد ذكرنا لذلك طرقاً عديدة منها أن تتفق أنت وصديقك
الذي تثق به على أن كلا منكما يخبر الآخر بما يراه فيه وقد قال عمر
رضي الله عنه رحم الله امرأً أهدي الى عيوبى

وكثيراً ما كان يسأل حذيفة بن اليمان عن ذلك فان عمر رضى
الله عنه كان من معرفة خداع النفس وخفاء مكرها والتفتيش عليها في
كل ما تميل اليه واتهامها فيما تحسنه وعرض ذلك على العقل ووزنه
بميزان الشرع بالمحل الاول ولهذا ظهر عدله وأحبته رعيته

واكنا يئسنا اليوم من هذا الطريق فلست تصادق الا من
يقابلك بالمدح والثناء فتقابل به بالحمد والاطراء فهو يغشاك وأنت تغشه
ولكن تجد نفسك ترتاح الى ذلك وتنفر من غيره فصار كل منكم يحسن
الى الآخر بمقتضى طبعه ويضحك منه بمقتضى عقله (ان رجع اليه)
ومنها ان تنظر الى ما يقوله أعداؤك الذين قعدوا لك بالمرصاد في كل
ما تأتي وتذر فهم أعلم الناس بعيوبك وأشدهم تطالعا اليها وتفتيشا عليها
فيمكنك ان تستفيد من عداوة الاعداء أكثر مما تستفيد من صداقة
الاصدقاء (والعاقل يستفيد من كل شيء)

عداي لهم فضل على ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعدا
همو عرفوني زلتى فاجتنبتها وهو نافسونى فارتقيت المعالي
والحساد يقومون مقام الاعداء في ذلك لأنهم من أخبثهم في

نحقيقة ومنها ان تبحث عن حكماء النفوس حتى يشخصوا مرضك
ويعطوك الدواء اللازم لذلك المرض، وليس من الحزم ان تفزع الى
الطبيب في كل ما يلم بك ولو انحرافاً يسيراً ثم تكون مرتبكاً في أحوالك
متخبطاً في سيرك ولا تذهب الى أطباء القلوب واحداً بعد واحد أو
الى العدد العديدهم فتعرض نفسك عليهم مجتمعين متباحثين كما تعمل
الشورى الطبية على يد لجنة من الأطباء المسماة (بالكـصـلتـو) عندما يهتك
بعض أمراض بدنك حتى يزول ما بك من شقاء العيش وتعاسة الخال في
الدنيا والآخرة ولكنى أعذرك فقد قل وجودهم وعن الوصول اليهم
والعثور عليهم ومنها ان تنظر في الآيات الواردة في مكارم الاخلاق
هل تنطبق عليك أم أنت على الضد مما جاء فيها كقوله تعالى (قد
أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاضعون والذين هم عن اللغو
معرضون) فتنظر في صفات نفسك فلعلك من ألهى اللاهين وألغى
اللاغين وكقوله تعالى في وصف المتقين (الذين ينفقون في السراء
والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)
وقوله تعالى (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) وقوله تعالى
(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاماً) الى آخر ما جاء في القرآن العزيز والسنة الغراء ومنها ان
تنظر الى عيوب الناس وتقائصهم ثم تعرض نفسك على ما علمت ولعل
هذا وما قبله أسلم الطرق وأقربها فإذا انضم الى ذلك كثرة الاطلاع
على الكتب الدينية والاخلاقية التى تبين صفات النفوس وما جبلت

عليه مع اتهامها وعدم الثقة بها وخضوع العالم الطبيعي للعلم العقلي بقدر
ما يمكن وايقاظ العمال المراقبين في دائرة العقل حتى يفتشوا عليها في كل
شيء ويأزدهوها بعدم التسرع والتحيز فيما تهواه ويفهموها انها من
السفء بحيث يجب ان يحجر عليها فلا تتصرف الا بذن القيم الرشيد
وهو العقل

ان تم لك ذلك كله فقد عرفت الحق لاهله واهتديت في سيرك
وانتظمت في امرك فكان لك ما تبتغيه وتم لك ما تشتهي

(بيان اختلاف الناس في قبول الاخلاق)

« وما للمخالطة من الآثار الحسنة والسيئة »

ذهب قوم الى ان الانسان مجبول على الشر فلا يتأتى اصلاحه
ولا فرق بين الاوصاف الظاهرية القائمة بالاجسام من السواد والبياض
وبين الاوصاف القائمة بالنفوس من محبة المال والجاه وما تدعو اليه
المحبة من الشره والحقد والحرص والحسد الى غير ذلك ،
وذهب آخرون الى انه مطبوع على الخير ولكنه يكتسب الشر
من البيئة التي هو فيها ،

وذهب فريق ثالث الى انه مطبوع على الشر ولكن يمكن تثقيفه
وتهذيبه بمكارم الأخلاق

وقال فريق رابع انه خلق خاليا من الخير والشر جميعاً ، فان
شئت فاجعله شيطانا رجياً ، وان شئت فاجعله ملكا كريما ، لانه

يقبل الخير والشر على السواء ، وهذا الرأي هو المشهور بين علماء الاخلاق
المريض عند محققينهم ، ولكن اذا دقت النظر ولم ترعبك عظمة
القاتلين بذلك ترى وجدت الناس مختلفين في أصل النعمة اختلافاً
كثيراً ،

فلو فرضنا اثنين وجدافى بيثة واحدة وتعلم اعلوا واحداً. وقل انهما ابنا
رجل واحد فجاز أن يكون أحدهما ميالاً للخير والآخر ميالاً للشر ، بل
اذا نظرت الى الاطفال وتفرست فيهم تجلت لك تلك حقيقة بغاية الوضوح
من نفوسهم وحرركاتهم وأميالهم فهم يشبهون بالارض الطيبة التي يوجد فيها
الزروع ويطيب فيها الثمر وبالارض الخبيثة التي لا يخرج نباتها الا نكداً بل
لا يكون مبلغا اذا قلت وبالارض الفاسدة التي لا تنبت شيئاً

ولست أراك مبعداً اذا قلت أننا من جميع اجزاء الارض فلنا
خاصة جميع اجزائها قال الله تعالى ، (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن
والانس) فدل على انهم مخلوقون للشر البحت فلم يعرفوا للخير معنى
ولم يذوقوا له طعماً ، وكذلك ورد في حديث البخاري الذي قسم
الناس ثلاثة اصناف ، ان منهم من يشبه قيعان الارض التي لا تمسك
ماء ولا تنبت كلاً

ولتكن وجهتك الآن الى غايتنا التي نريدها من موضوعنا هذا
ودع ماعدا ذلك الى فرصة أخرى ، غير انه يلزمني هاهنا أن أوصيك
ان لا تتسرع الى اليأس من اصلاح أحد فلعل فيه خيراً كما نفي الطبقة
الثانية أو الثالثة أو السابعة من طبقات أرضه ، واذا كان رب الارض

المسبحة أو الرملية لا يئأس منها ويطمع في استصلاحها بماء حتى تزول
املاحها فتصلح للنبات او ينقلب رملها بكثرة فيضان المياه عليها طينة
صالحة لذلك فما بالك بالإنسان الذي هو مجمع العجائب والغرائب
على أن النفس الإنسانية لا تقاس على شيء من تلك المواد الأرضية
الجامدة، وقد اخطأ من قاس صفاتها بسواد الجسم الذي لا يتبدل مثلاً،
فإننا رأيناها تلين وترق حتى تكون ألين من الماء، وأرق من الهواء،
وتكاد تصل الى حد الذوبان، كما رأيناها تغلظ وتقسو حتى تكون
كالخجارة، أو أشد قسوة، وبالجملة فلم نر شيئاً من الأشياء أقبل
للتشكل والتطور من النفوس الإنسانية فلا ينبغي أن تيأس من فلاحها
ولا تفتر عن اصلاحها فهي أيديك الله

هذا وأرى أن من حقت على في هذا المقام ان أذكر لك أسباب
تفاوت الناس في ذلك

فمنها نقص خلق في تركيب البنية، ومنها اختلاف الامزجة،
وتفاوت الطينة التي خلق منها الشخص على ما تقدم لنا وعلى ما يشير له
ماورد من أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، ومنها لوراثة من
الآباء والامهات على نحو ما يرثه من أوصافهم الظاهرية، وبهذا
السبب يمكنك أن تفهم ماورد من ان الله تعالى، قال (يا داود أنا
الرب الودود، أنتقم من الذرية بما فعل الجدود) مع ما تعتقد من
العدل الالهي، ومع قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فليس
معنى ذلك ان صح الا أن الذرية تفعل ما يستوجب عليه العقوبة الشديدة

بشوء الأفعال القبيحة التي كانت تصدر من الآباء على مقتضى تلك
 الوراثة التي ذكرنا ، ويظهر لك معنى ماورد ، (تخيروا لنطفكم فإن
 العرق دساس) وما ورد أيضاً (اعف نفسك تعف بذاتك) وإياك
 والتفريق يرحمك الله ، ومنها طيب المطعم وخبشه كما دل على ذلك
 الأحاديث الكثيرة وقد اشتهر عن العرب في مقام المدح لله دره ،
 ومنها اختلاف التأديب والتعويد حالة الصغر ، ومنها مخالطة الأشرار
 أو الاختيار فإن الانسان مجبول على التقليد ، وأن الطبع يسرق من
 الطبع ، وان شئت أن تعمله تعليلاً فلسفياً فقل أن مراة القلب لا تقابل
 شيئاً من الأشياء الا انطبع فيها لمزيد صفاتها وتماثل قابليتها ، ولذلك
 قال صلى الله عليه وسلم (يحشر المرء على دين خليله) ، فليس ذلك
 جزاء للذنوب من غير سرفيه ، بل لكون تينك المرأتين قد انطبع في
 كليهما ما انطبع في الاخرى ، وقال (المرء مع من أحب) فانه
 ما أحبه الالتساب بينهما ولولا هذا التناسب لم تعتقد بينهما المحبة ،
 وعلى قدر تلك المحبة يكون الانطباع ، حتى أن الحب قد يصل بالحب
 الى درجة أن يقاد محبوبه في كل شيء ، فتفنى أخلاقه في أخلاقه
 وأوصافه في أوصافه ،

ولئن قيل بالعدوى في الأمراض الحسية فالنفوس الانسانية اقبل لها في
 الأمراض المعنوية: واني أوصيك (ولا أحب لك الا ما أحبه لنفسى) أن
 تنظر في هذا السبب كثيراً ولا تظن أنه لا يقبل العدوى الا نفس الصغير

وأن نفس الكبير لا تقبلها فإنه غلط ، لأن ذلك من مقتضيات
الطباع وما كان باقتضاء الطبع لا يمكن دفعه وليست المسألة مسألة
فكرية وإنما هي مسألة طبيعية ولكني معك على أن نفس الصغير
أقبل لما يرد عليها من نفس الكبير وقد نصحت لك وما توفيقى
الابالله

(بيان تفصيل المملكة الانسانية وذكر أمثلة لها)

قد اشتهر أن الانسان عالم صغير وأنه نسخة من العالم الكبير
وإذا أردنا تفصيل كل ما فيه مما يشبه الشياطين والبهائم والسباع والملائكة
والآلئيل والنهار والشمس والقمر والارض والسماء الى غير ذلك
طال علينا القول واتسع بنا البيان ولا يتعلق غرض الكتاب
الا ببيان ما فيه من خير أو شر فلنقتصر على بعض أمثلة ذكر وهافقول
قالوا أن كل انسان مع بدنه كوال في بلد قيل له طهر بلدك ، وأدب من
يقبل التأديب من أهله ، ورض من يقبل الرياضة من حيوانه وسباعه
فإن عجزت عن تطهيره وعن تأديب طغاته ورياضة حيواناته وسباعه
فلا تعجز عن الاحتراس من أن تفترسك سباعه وأن يسبك طغاته
حتى اذا لم تكن غالباً لم تكن مغلوباً ، والناس في ذاك بين ثلاثة أصناف
صنف لم يفعل ما أمر به وتهاون فيما فوض اليه فخرج وأسر فصار ملوماً
مخدولاً مع كونه مجروحاً مأسوراً وهو المشار اليه بقوله تعالى (ومن اعرض
عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) ، وصنف

فعل ما أمر به فصار عند ربه مأجوراً وعند أسس مشكوراً وعمر المشار
إليه بقوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون) وصنف جد تارة
وقصر تارة أخرى فجرح وجرح وغلب وغلب ، وهو المشار إليه بقوله تعالى
(خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) ، وقال
بعضهم الإنسان مع قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة الوهم مثله مثل من
بلى في سفره بصحبة ثلاثة اضطر إليهم حتى لا يمكنه أن يفصل منهم
ويقضي سفره بدونهم

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بد
فواحد أمامه هو له رقيب يحفظه وعين تكلؤه ، لكنه ملق
باهت مموه يلفق الباطل تلفيقاً ، ويخلق الزور اختلاقاً ، فيخطأ الكذب
بالصدق ، والخطأ بالصواب ، وهو الوهم ،

والثاني عن يمينه بطش دعر يحميه عن أعاديته ، لكنه كثيراً ما يقويه
فيهبج هائج فلا يقمعه النصح ولا يطاقطئه الرفق كأنه نار في حطب
أو سيل في صلب ، فيحتاج أن يسكنه دائماً فيحتمي به ومنه وهو الغضب ،
والثالث عن يساره وهو الذي يأتيه بالمطعم والمشرب ، لكنه
أرعن ملق قدر شبق وهو الشهوة فهو يحتاج أن يصابرهم حتى يقطع
سفره

ومن حيلته التي يرجي أن يسلم بها منهم أن يسلط هذا البطش
الدعر على هذا الارعن الملق ، وأن يطفىء غلو هذا الدعر التائه بخلافة
هذا الارعن الملق وأن لا ينجح إلى الباهت المتخرس حتى يأتيه ببرهان

مبين ، فيدفع ضرر بعض هذه القوى ببعض دفع الشر بالشر

(وجهة أخرى في البيان)

آثراً أن نذكر لك ما قالوه على طوله لما فيه من الفوائد الجمّة
وارادة أن يغلب عليك الذوق الحكيمى الفيلسفى المدينى ؟ وعسى ألا
تكون ممن غلبت عليهم الظلمات الشديدة والأذواق الجديدة
فنتقول

ذكروا أيضاً أن الإنسان اجتمع فيه أربعة أنواع من الأوصاف
وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث
سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم
على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى
أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ومن حيث أنه فى
نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربى) فانه
يدعى لنفسه الربوبية ويجب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص
والاستبداد بالأموار كلها والتفرد بالرياسة والأنسال من رتبة العبودية
والتواضع ويشتهى الأطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة
والأحاطة بحقائق الأمور ويفرح اذا نسب الى العلم ويحزن اذا
نسب الى الجهل

والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من
أوصاف الربوبية وفى الإنسان حرص على ذلك

ومن حيث أنه ينفرد عن البهائم بالتمييز مع مشاركتها في الغضب
والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط
وجوه الشر ويتوصل الى الأغراض بالكر والحيلة والخداع ويظهر
الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين فكل انسان فيه شوب
من هذه الأصول الأربعة الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية
وكل ذلك مجموع في القلب فكأن الموجود في بطن الانسان
خنزير وكلب وشيطان وحكيم فان الخنزير هو الشهوة فان الخنزير لم
يكن مذموماً لونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه
والكلب هو الغضب فان السبع الضاري والكلب العقور ايسا كلباً
وسبعاً باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة
والعدوان والعقرو في بطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص
الخنزير وشبهه ، فان الخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر ، والسبع
يدعو بالغضب الى الظلم والأذى ، والشيطان لا يزال يهيج شهوة
الخنزير وغضب السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما
مجبولان عليه ، والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد
الشيطان ويكشف عن تلبسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح
وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط هذا الكلب عليه اذ بالغضب
يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه
ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته ، فان فعل ذلك وقدر عليه

اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجري الكل على الصراط المستقيم

وان عجز عن قهر هذه الثلاثة قهرته واستخدمته فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس

والعجب منه أن ينكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله لرأى نفسه مائلاً بين يدي خنزير ساجداً للهرة وراكعاً أخرى ومنتظراً لأشارته وأمره متى هاج الخنزير اطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته واحضار شهوته أو رأى نفسه مائلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سميعاً لما يطلبه مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى شهوته ، وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فانه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويعتصم على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما ، فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى (ان أنصف) نفسه الاساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك مملوكاً والرب مربوباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً اذ المقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طبعاً وريناً مهلكاً للقلب ومميتاً له

أما طاعة خنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والخبيث
والتبذير والتقتير والرياء والتهتك والمجانة والعبث والحرص والجشع والملاق
والحسد والحقد والشاة وغيرها

وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها الى القلب صفة التهور
والبذاءة والبذخ والصلف والاستشاطاة والتكبر والعجب والأستهزاء
والاستخفاف وتحقير الخلق واردة الشر وشهوة الظلم وغيرها

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة
المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والغش والخب والخنا
وأمثالها ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر
في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والأحاطة بحقائق
الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه والاستيلاء على الكل بقوة
العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولا
استغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا انتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة
ورده الى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو
والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف
والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها
الى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر
والحلم والأحتمال والعفو والثبات والذيل والشهامة والوقار وغيرها

وسيمر بك مقالة تشرح لك الفرق بين المؤمن والكافر في طلب
الدنيا بعد اشتراكهما في الطلب ان شاء الله تعالى

(بيان ما تكسب به الاخلاق الفاضلة)

(وأن التربية ليست على ما يفهم الناس وأن القوانين قليلة الغناء)

ربما أطلنا عليك في هذا البيان لما فيه من الفوائد الجمّة وأرى
الاولى بك أن لاتسأم فعسى أن تجد فيه ما يكون كالا في علمك
وتزيد به فضلا على فضلك ، فإذا أردت ذلك فاعلم أن كثيرا من
الناس يظنون أن الطريق الى اكتساب مكارم الاخلاق والشفاء من
أضدادها إنما هو تعلم العلم ومعرفة الضار من النافع والحسن من القبيح
فيحسبون الاتصاف بالفضل والكمال لازما من لوازم العلم أيا كان
كما يعتقد العامة أو من لوازم العلوم الشرعية والاخلاقية على ما يعتقد
كثير من الخاصة ممن لم يعنوا بالبحث عن اسرار العلوم وأرواحها
والتنقيب عن ملكات النفوس ومقتضياتها ولهذا كان للعلماء المحل
الاول من النفوس وكان تعلم العلم هو الغاية المقصودة في التربية وكثيرا
ما تسمعون يقولون فلان مترب اى حاز لشهادة عالية وهو خطأ فاحش
فأن تعلم العلم بمجردة قليل الجدوى ، بل قد يكون لبعض الناس عونا
على ما يريد من الشر فهو قوة للعقل يستعين بها على ما يشاء ، فأن
صرفها للخير كان من أعظم الخيرين وان صرفها للشر كان من اول
الشريرين والسيف يقطع في يد اللص كما يقطع في يد المجاهد في سبيل
الله ، وقد قال بعض الحكماء أن الناس كالنبات وأن العلم كالغيث
فان أصاب حلو الثمر زاده حلاوة ، وان أصاب مر الثمر زاده مرارة

ولهذا ترى تلك التربية التي ينوّهون بذكرها لم تظهر ذويها من
رزائل الخصال وقيح الفعال حتى أننا إذا لم نغتر (بتلك التربية العالية)
ولم ندعهم واهواءهم بل قيدناهم في وظائفهم الادارية أو القضائية بلوائح
وقوانين ينقادون لها ويسيرون عليها تراهم يتوسعون ويتأولون كما
يشتهون ، وعلى ذلك حال كثير من العلماء بالنسبة الى الشريعة الغراء
وكان استعدادهم الخبيث يحيلها الى ما يوافق أهواءهم ، وليس هذا بالامر
العجيب فيما تفعله الاستعدادات

وان شئت فانظر الى ما كتب على الاجرومية من صرف كل
ما فيها الى اصطلاحات الصوفية وآرائهم وقد قال الله تعالى (يضل به
كثيراً ويهدي به كثيراً) فالذي أضل به هو الذي هدى به فليس
ذلك راجعاً الى تغير في عينه أو تبدل في وصفه ، بل الى اختلاف في
استعداد الفاهمين له ، ولعلك رأيت من هذا القليل شيئاً كثيراً ،
فاذاً ليس العلم طريقاً الى اكتساب الفضائل ولاد لئلا على الاتصاف
بالكمالات على الحقيقة ، وانما الطريق الذي يجب أن يسلكه طالب
الكمال ويعتنى به المربي أتم اعتناء هو تعويد النفس الخلق الفاضل
الذي يراد اكتسابه حتى يرسخ فيها رسوخ الملكات التي تتملك
النفوس وتصدر عنها الافعال بلا تكلف ولا عناء والا فهو تصورات
ومعلومات لأخلاق ووجدانات ، فإن الكمال لا يتم للانسان الا اذا
انفعلت نفسه به وتكرر ذلك الانفعال المرة بعد المرة حتى تعتاده فلا
تفعل به وحينئذ يصير كيفاً راسخاً فيها فيلتحق بالغرائز الاصلية فتصدر

عنه لا تار اخيدة بغية السهولة على نحو ما تصدر عنه الافعال الطبيعية وهذا الذي قررناه جز في اكتساب الاخلاق الحسنة والاخلاق السيئة فإذا يلزمنا أن نسارع بالعلاج ونفزع الى الطبيب قبل أن يستحكم المرض ويعضل الداء فيعبي الاطباء فإنه اذا وصل الى درجة الرسوخ والتحق بالطبيعيات كما شرحنا فقلما ينفع علاج أو ينجم دواء

اللهم الا لا قويء العزيمة القادرين على الضغط على نفوسهم المتعودين مخالفتها الذين لا يجبنون أمام اوامرها المؤيدين بتأييد من عنده تعالى (وقليل ما هم)

ولهذا تجد بعض من فيه شيء مما لا يليق بشرفه ومنصبه يتألم كثيرا مما هو فيه ولكن لا يستطيع ان ينزع عنه بمقتضى ذلك الرسوخ وقد قال تعالى في حق قوم من الكفار قد تأصلت فيهم تلك الملكات الخبيثة حتى صار يتعذر قلعها من نفوسهم لا متزاجها بها (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة) فليس الختم الذي ورد به القرآن شيئا غير تملك السيئات للنفوس واحاطة الظلمات بها (بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) فان الخلاصة أن الوسيلة لاكتساب الفضائل ان تمرن نفسك عليها بالعمل المتكرر ولا تضجر مما تلاقيه من العناء والمشقة زمن التمرين وتعتبر نفسك مريضا يصبر على مرارة الدواء لما يرجوه من حلاوة الشفاء وان تأخذ نفسك باللطف والخدم فانها سريعة الانخداع لا بالعنف والشدة فانها شديدة العناد وان تلاحظها

في مبادئها ولا تستهين بها (فمعظم النار من مستصغر الشرر) وان
صغار الآفات تجر الى كبارها من غير أن تحس بذلك لانك
تسير فيه بمقتضى ميالك اليه سيراً طبيعياً لا سيراً فكرياً ، ولعل هذا
هو المعنى بالاستدراج في قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)
(٢) وأن القوانين لا تجدى شيئاً ولا تضمن عدلاً ما لم ينظر في حال
القائمين بها والمنفذين لها (٣) وأن التربية الفاضلة ليست بنيل
الشهادات العليا كما يزعم أربابها فيجب أن ينظر فيها حتى تكون
تربية صحيحة تأتي بالغاية المقصودة منها

وليس ذلك الا في التربية الدينية (والنظر في اصلاحها قبل
النظر في اصلاح القوانين) (٤) وان الاستعداد الخبيث كثيراً ما يحيل
الكلام عن ظاهره حتى يقطع النظر عن الغايات كلها ، ولعل هذا
من جملة ما أريد من قوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه)
(٥) وأن تعلم العلوم ولو كانت دينية أو أخلاقية قلما يفيد

هذا وهنا غلطات كثيرة فيما تلقته المتعلمين بالمدارس والمعاهد
مما لا يفيدهم كثيراً في دينهم ودنياهم وترك ما هو مناط السعادة
الصحيحة مما لا يذكرونه فيما يدرسونه من علومهم الميئة التي لا تفيض
الحياة الصحيحة على الناس مما يجب أن يتسع فيه القول ، ولعلنا
نتعرض لذلك بعد ان شاء الله

(كلمة بمناسبة ذكر القوانين)

إذا رأينا شخصين وقد فعلا فعلاً واحداً لا يمكننا أن نحكم
عليهما حكماً واحداً بل يجوز أن يكون الفعل بالنسبة لأحدهما حسنة
كبيرة يستحق عليها عظيم الأجر وهو بالنسبة إلى الآخر سيئة
عظمى قد استوجب بها عظيم الوزر لاختلافهما في النيات والبواعث
والغايات وإن كانت صورة الفعل الصادر منهما واحدة ، بل إذا
قصدنا بما فعلاه شراً لا خيراً لم يمكننا أن نحكم عليهما حكماً واحداً أيضاً
بل يجب لتحقيق العدل التام أن يراعى حال كل منهما في الشر الذي
صدر عنهما فإنه بعد اتفاقهما فيه يجوز أن لا يكون على قصد واحد
من كل وجه وعلى رتبة واحدة فيما كان يحيط بهما وقت صدور الفعل
عنهما ، فإذا يجب في العدالة أن يختلف جزاء هذين الشريرين أيضاً
ومن جهة أخرى يجوز أن يكون لأحدهما من الصفات والحسنات
ما تنعمر فيه تلك السيئة وأن يحدث له بعد الفعل من التوبة الصادقة
والندم الشديد ما يطهر قلبه من أدناس تلك الفعلة التي فعلها ، ويحتم
عليه أن يعقد على نفسه عقداً لا يحله ما عاش إلا يتقارف معصية ولا
يأتى جريمة ، وكان يجب أن يراعى كل ذلك في مجازاته توفية لحق
العدل التام وتحقيقاً للفرق بينه وبين من ليس كذلك
ولكن عرفنا من ضعف البشر أن ذلك ليس في طاقتهم وأنه
فوق درجته ، ولا يقدر على العدل التام إلا من علم كنه الأشياء

على ما هي عليه ، وليس الا الله تعالى فلا يضع لديه مثقال ذرة من خير أو شر ، ولا يزيد جزاؤه للعباد على ما عملوه على اختلاف درجاتهم في مقاصدهم وكل ما اكتنف بهم مثقال حبة من خردل كما قال (وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقد علمت أن الشر قد يكون فيه ذرة أو ذرات من الخير وأن الخير قد يكون فيه ذرة أو ذرات من الشر ، ولعلك تفهم من هذا المقام استحقاق بعض المذنبين للعفو الالهي وعدم منافاة ذلك للعدل التام والحكمة البالغة

والآن نريد أن نبحث عما هو الاقرب الى العدل التام أهو ترك القضاة على الحرية والاطلاق يحكمون بما يرون وينفذون ما يعلمون ، وينظرون في تلك الاحوال كلها على قدر ما يستطيعون ، أم هو تقييدهم بقانون يحصرهم في دائرة ضيقة ويلزمهم باجراءات كثيرة طالما أضرت بالمتقاضين ، وكان التقاضي في غنى عنها لو رجع الى وجدانه الداخلي وعلمه الخارجي ، بل طالما حكمت القوانين بما يتألمون منه ولا يرتاحون اليه في بعض ما يكون أمامهم من الحوادث وإذا يكون التقاضي أمام القضاء أضمن للنتيجة وأقرب للعدالة ، وكان اذ ذاك ينتهي بغاية السرعة ، فلو وثقنا بتربية فاضلة تهذب النفوس وتطهر القلوب لوجب أن نلقى الى ذويها بمقاليد الامور يتصرفون فيها على ما تقتضيه طهارة نفوسهم وسعة نظرهم ولا تقيدهم بتلك

القوانين وان أعطتهم بعض الحرية في بعض المواضع ولكنها محدودة على كل حال ، والقاضي يجب أن لا يكون تحت التحديد والتقييد ولكننا وجدنا المذهبين الكاملين المأمونين على مصالح العباد قليلين بل لا يكادون يوجدون فارتكبنا أخف الضررين واختارنا أهون الويلين وقيدناهم ولم نطلقهم وكنا نود لو بالغنا في التقييد وضاعفنا من التشديد فقد لعبت بهم أهواؤهم وكادت تقضى علينا شهواتهم (توجيه نظر الى أمر يفيدك)

بيننا لك فيما سبق من القول أن الانسان قابل لكل أخلاق الحيوان أو تقول أنه يشبه كل أنواع النبات فمنه التفاح ومنه الخنظل ومنه الورد ومنه الشوك الى غير ذلك مما تجده في أفراد الناس فيحسن بنا هاهنا أن تنبهك ألا تعامل الناس بمقتضى استعدادك الذي تم لك وان كنت لا تحس بغيره ولا تعرف سواه فلا تكلف غيرك به فانه لا يطيقه ، فاعرف المراتب واعطها حقها وانظر فيمن تصاحب أو تعامل أى شئ هو من تلك الاشياء وعامله بما تعامل به صاحب هذا الخلق من الحيوانات كالعقرب والثعلب وغيرهما واياك أن تغتر بصورته الظاهرية فتهلك أو تندم وان كان جامعاً لكل خبث حاوياً لكل شر فلا تقرب به بوجه من الوجوه فانه لا دواء له ولا يمكن اصلاحه ولا ارضاؤه ، ومن الناس من اذا بالغت في الاحسان اليه بالغ في الاساءة اليك ، واذا تواضعت له تكبر عليك لمزيد لؤمه أو شدة حسده ، فاياك والتنزل لغير من

شرفت نفسه وكرم طبعه ورق احساسه وصفا ذوقه فلا دواء لمثل
هذا الشرير الا البعد عنه وعدم القرب منه

وقد عرفنا ذلك بالتجربة وكنا لا نصدق به ، ومنهم المطبوع
على الكذب الذى يجد لذته فيه وتأبى غريزته الصدق ، والانسان
لا يعرف أو لا يستطيع غير مقتضى طبعه ، والحنظل لا يكون تفاحا
أبداً (وتأبى الطباع على الناقل) فهو يفعل ما يفعل بمقتضى هيجان
الوصف الطالب لظهور الشر فيه وان لم يكن يئسك وبينه
ما يوجب ذلك

لدغ العقارب لم يكن لعداوة لكن نخبث تقضيه طباعها
وكثيراً ما توجد هذه الاخلاق فى أفقر فقير وأحقر حقير فان
أردت أن تنفعه بشئ نظراً الى كونه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى
وفى كل مخلوق صدقة فافعل معه ما شئت من الخير ولا تخالطه وفر
منه فرارك من الاسد

وقد قسم الحكماء الناس ثلاثة أقسام ، قسم كالغذاء لا يستغنى
عنه بوجه ، وقسم كالدواء يحتاج اليه فى بعض الاوقات ولا يلجأ اليه
الا عند الضرورات ، وقسم كالداء لا يحتاج اليه بوجه من الوجوه ولا
يطلب بحال من الاحوال

وان رأيت ما يعجبك من شخص فابحث عنه أصادر هو عن
غريزة خير ومحبة للفضيلة أم عن غرض تريده النفس وتسعى اليه
الجوارح ، فان لم يكن من ذوى الخير الغريزى ومحبة الفضائل لذاتها

فياك والاعتزاز به ، فإن عمل الخير للاغراض تربية ملكة الشرف في
النفس وتقوية الغريزة الخبث فيها

وقد ترى من الناس من يكون انساناً في بعض الاشياء وهو
حيون ضار في بعض آخر انقص في تركيه أوجهل في نفسه فياك
أن تغتر بما تراه من الخير الذي يصدر عنه فإنه ربما لحقتك من الشر
الذي تراد منه ما لا تنفعك فيه وسيلة ولا تغنى عنك فيه حياة

(بيان ان سعادة الانسان وشرفه ليسا بكثرة المال)

قد عرفت أن التوسع في طلب المال ضرره أقرب من نفعه ،
وانه مدعاة للشر أكثر منه مجلبة للخير ، ثم انك قد عرفت ان هذه
الذات الجثمانية التي نريد ان نتوصل اليها بالاموال ليست من
الانسانية في شيء ، وقد تكلمنا على تحقيق ما فيها من اللذة والالم
فيما سبق ، بل يشاركك فيها أفراد الحيوان ، فانها تأكل كما تأكل
وتشرب كما تشرب ، بل اذا نظرت الى الثور مثلاً وجدت أنه أكثر منك
أكلاً الخ ، ولا قيمة لما تشاركك فيه أفراد الحيوان ، فان الصفات
المشتركة لا تقضى منزلة ولا توجب فخراً ، وعلى قدر ما فيها من
الاشتراك يكون سقوط قيمتها ، كما انك على قدر انفرادك بصفات
لا اشتراك فيها يكون علو شأنك ، ورفع ذكرك ، وانظر الى الفرس
مثلاً كيف استحق التفضيل على الحمار بمزية التي لا توجد الا فيه ،
فاذا ضاعت منه نزل عن درجة الفرسية الى درجة الحمارية ، لانه لم

يكن فرساً في الحقيقة لصورته التي هو عليها ، بل لمزية التي انفراد بها
فاذا شرف كل شيء بل تحقيق نوعيته انما يكون بوجود خاصته
التي تراد منه ، كما كتسب العلوم والمعارف ، والاتصاف بالكمالات
بالنسبة الى الانسان ، فانه لم يكن انساناً لصورته التخطيطية وشكله
الظاهري ، وانما كان انساناً واستحق الرفعة على جميع أنواع الحيوان
لكونه يمكنه أن يدرك ما لا تدركه من الخيرات والفضائل ، فعلى
قدر ذلك تكون انسانيته لا على قدر ما يتوسع في الماء كل والمشارب
وغيرها ، فان الحيوان أقوى منه فيها ، فاذا تجرد عن تلك المزية
وانسلخ عن تلك الخاصة نزل عن رتبة الانسانية الى رتبة الفرس
أو الحمار أو غير ذلك من الحيوانات ، ولو تفنن ما شاء أن يتفنن في
الملاذ الحسية ووسائلها ، فغاية أمره في ذلك ان يكون حيواناً قوياً
لا انساناً على الحقيقة لقد خاسة الانسان منه ، أو تقول ايذاء لحقه
أنه سيد أفراد الحيوان في هذا العالم ، حيث أمكنه من اعداد
الوسائل التي تلزم للحيوانية ما لم يمكنها ، واذا صح ان نسوى بين
الكمالات الحسية الحيوانية والكمالات المعنوية الانسانية ، والسعادة
الفانية الجثمانية ، والسعادة الباقية الروحانية ، صح ان تقول انه نصف
انسان لا انسان ، وليسكن جأشك ، وليهدأ روعك ، وارجع الى
عقلك وانصافك ، حتى تنصفني ، فاني داخل معك على شرط التخلي
عن التعصب وعن كل ما علق بالاذهان ، وان مضت عليه الدهور
المتطاولة ، حتى يمكننا ان نعرف الحق ونرجع الى الانصاف

(بيان ان طالب الدنيا محال عليه ان يستريح)

لكل انسان مطلب يرجوه ، وأمنية يبتغيها ، ويظن ان سعاده
في الوصول اليها ، ويحسب انه عند ذلك يكمل هناؤه ، ويتم صفاؤه
وبودي أن يعرف ان النفس الانسانية لاتزال متحركة لما فيها من
قبول الفيض الدائم ، وانها لو سكنت لكانت نفس حيوان لا انسان
فطار على ألا يقف ولا ينتهي

بودى أن يتحقق ذلك ويتحقق معه ان نفسه لم تقتصر على
ما طالته منه الآن الا لكونه منتهى ما تبصره من طريق الاطماع ،
ولا تبصر ما وراءه لعدم الطمعية فيه ، حتى اذا وصلت اليه أمكنها ان
تبصر مسافة أخرى ، وتطمع في الوصول الى غايتها ، ولا تزال هكذا
الى غير النهاية فلا يمنعها عن الطلب الا عدم الاستعداد له ، فاذا
يرقت الى درجة من الدرجات تجدد لها استعداد لنيل الدرجة التي
تليها ، فيتجدد لها شوق اليها ، فاذا نالتها تجدد لها استعداد آخر
الى درجة أخرى ، فلا تهدأ أصلاً ولا تسكن أبداً ، ولا تنتهي
مطالبها ، ولا تفرغ حاجاتها ، بمقتضى استعدادها

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

وان كان ذلك لا يقع في علمك الا شيئاً فشيئاً على نحو ما
ذكرنا ، ولهذا قال بعض فلاسفة أوربا لا نتيجة لكثرة البحث عن
السعادة الا توسيع دائرة الالم

فليس الطريق اذاً الى الراحة أن تصدق ما تخدعك به نفسك ،
وتسعى في تحصيل ما يشبعها ، اغتراراً بما تعدك به ، فانها لا تشبع ، وان
ذلك من قلب الحقائق ، فان آيت الا ان تطلب الراحة بتحصيل كل
ما تريده منك فاعلم انك قد أضعت الراحة في سبيل طلب الراحة ، كما
هو شأن اكثر الخلق ، بل الطريق أن ترجع اليها فتفهمها أن السعادة
انما هي في راحة القلب ، وصفاء العيش ، لا فيما تظنه من كثرة الاموال ،
وسعة الآمال ، فان ذلك يوجب كثرة الطلب ، وكثرة الطلب توجب
كثرة الالم ، حتى تصل الى مطلوبها (ولن تصل اليه) فهي كالطفل
الذي ينبغي أن نريجه ونحافظ عليه ، بما نحدد له من الحدود حتى تسكن
نفسه فيستريح ،

فان سارعت الى كل ما يطلبه منك ، رجاء راحته فلا يزال يبكي ،
وتبلى عليه نفسه ماشاء لها تفننها وشرها ، فلا تستريح انت ، ولا هو
فتكون قد أسأت اليه والى نفسك ، وانت تظن أنك من المحسنين ،
ولا اراك مبعداً اذا قلت أن الغاية اسم بلا معنى ، فان الامور
لا تقف عند غاية ابداء ، ولكن الذي وقف انما هو استعدادك لاهي ،
هذا ولست اريد منك أن لا تكون عاملاً نشيطاً قائماً بما تحدده
لك الشريعة ، وتقتضيه الحكمة ، ولكن أريد الذي تعرفه من نفسك
اذا رجعت الى وجدانك وانصافك ، وتجردت عن أهوائك وشهواتك ،
فتطلب المال رشيداً حكماً ، عارفاً انه وسيلة الى غيره لا مقصود لذاته ،
كي تكون في عيشة راضية ، وحالة سامية ، وكى لا يضيع منك المقصود

في سبيل طلب الوسيلة ، فلا تكن ممن يحرفون الكلم عن مواضعه ،
أيديك الله

(بيان أن الناس متساوون في السعادة والراحة لولا توهم باطل)
يظن كثير من الناس إذا رأى من هو أعلى منه منصباً ، وأكثر
خداً وحشياً ، وأوسع داراً ، وأوفر ريشاً وأثاثاً ، أنه في غاية الهناء ،
ونهاية الصفاء ، ويتخيل له لذة فيها وابتهاجاً بها ، على نحو ما يقدره في
نفسه وخياله لو وصل إليها ،

واني أقول لك أنه معذور في هذا الظن ، لأن نفسه الآن
لا تطالب أكثر من هذا ، فإذا أدركته كان ذلك غاية سرورها ومتعتها
نعيمها ، وقد غاب عن ذلك الناظر المتلهف أن هذا المنعم في نظره
لا يزيد نعيمه عن نعيمه ، فإن الذي يراه من تلك النعم الكثيرة
لا تفعل بها نفس ذلك الأمير أو الوزير انفعال سرور وابتهاج كما
تظن فإنها بكثرة تكررها عليه صارت معتادة لا تلفت إليها نفسه ،
ولا ينشرح بها صدره ، فلا فرق بين حاله وهو في عربته ، وبين حاله
وأنت ماش على رجليك ، ولا بين ما يدور بنفسه وهو في قصره المشيد ،
وبين ما يدور بنفسك وأنت في بيتك الذي ورثته عن أبيك ، فإن
النفس إنما تفعل بالشئ مرة أو مرتين ثم لا تحس به

ثم لدى هؤلاء الذين يعجبك حالهم وإن يقولوا تسمع لقولهم من
التعب الشديد والألم الزائد ما لا يحس به غيرهم ، فإن لهم من الضرورات

ما ليس لك ، وعليهم من الواجبات ما ليس عليك ، وما كان ضرورياً
في حقهم كان كمالاً في حقك ، ثم يهمهم بعد ذلك أن يحافظوا على
جاههم ومرا كزهم كما يهم أصحاب الأموال أن يحافظوا على أموالهم ،
وأن ينموا ثروتهم ، فهم معرضون لما لا يطرأ عليك من الطوارئ
الكثيرة في جاههم وأموالهم وجميع أحوالهم ، مما يتكدر له عيشهم ،
ويتألم به احساسهم ،

وكثرة المصائب على قدر كثرة الأشياء المحبوبة ، فانك تتألم بما
يصيب كل شيء من هذه المحبوبات الكثيرة ، (فان شئت أن تقل
مصائبك فقلل محبوباتك) ولذلك قال القائل بالنسبة إلى بعض المحبوبات
وهو بان يسمى حكماً أولى من أن يسمى شاعراً

يقولون مالك لا تقتنى من المال ذخراً يفيد الغنى
قلقت وأفحمتهم في الجواب لئلا أخاف ولا أحرزنا
ويقول غيره

ولربما يلقي الغنى بماله أضعاف ما يلقي التقدير بهترة
فان شئت أن تغبط أحداً على ما نال من السعادة (ولا سعادة
ألفى النفوس) فلنغبط ذلك التقدير الذي عرف مورد رزقه فريضاً به ،
ولنظن أن إليه ، فسكنت نفسه ، واستراح قلبه ، فهو بيت كل ليلة على
فرح كامل ، وسرور شامل ، ليس عنده من التجارات ما يحتاج إلى
تدبير ، ولا من الهمم ما يدعو إلى تفكير ، ولا من الجاه ما يحمله

ثقل الأعباء ، ولا من العظمة والأبهة ما يخاف عليه من هبوب
الهواء ،

وانى وحقت كثيراً ما وجدت الخادم أنعم بالآ من المخدم ، وله
من التمتع بقصره وبستانه ولطف هوائه وبهجة مائه وتغريد أطياره وحسن
منظر أشجاره ما ليس للسيد الذى لا يرى ذلك الا فى قليل من أوقاته ،
وان رآه كان مشغولاً عنه لا متلذذاً به ،

ومن اللطف الالهى وان شئت فقل القهر الربانى أن الإنسان
يبدوا ما عليه من النعم ، ويخفى ما لديه من النقم ، فيرى الرأى حسن
حاله ، ولا يعرف دخيلة أمره ، فيظن أنه فى نعيم ، وهو فى عذاب
أليم ، فيتغص عليه عيشه ، ويتكدر صفوه ، ولعل هذا المثلث الآسف
محسود من غيره أيضاً ،

وما ذلك كله الا لمزيد الجهل ، وغلبة الوهم على العقل ، ومما
ينبغى أن تلتفت اليه كل الالتفات أن الضرورى للإنسان قليل جداً
وان أقل شىء يكفيه ،

نصف رغيف مشبع لمن أكل فالذل يا هذا ماذا يحتمل
ومن الغلط الذى أوجب العناء وأضاع الهناء ما يقع فى الوهم
من أن كثيراً من الاشياء ضرورى وربما كان من الحاجيات أو
الكليات لآمن الضروريات كما تتوهم أرشدك الله ، ومما استولى
على النفوس وكان أس الشقاء فى فريق كبير من المسلمين أن مراعاة
الناس عندهم على ما يقتضيه الجهل والترفع الكاذب ، من أوجب

الواجبات وأول الضروريات ، فإذا صدر من أحدهم ما لا يناسب علو مركزه الذى بناه له الوهم وشيده له الخيال ، سقط فى يده وكاد يموت من الأسف (وكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) ولو عقل لعرف أن الناس لا ينفعونه بشيء إلا إذا توهّموا منه المنفعة ، وقتاما فإذا رأوه قد سقط راغوا منه روغان الثعلب وطاروا عنه طيران الذباب ،

(الكافر يطلب الدنيا والمؤمن يطلب الدنيا والآخرة)

لعلك فهمت من كلامنا فى كثير من المواضع أن الانسان لا ينبغي له أن يطلب الدنيا بوجه من الوجوه لما سبق لك من كثرة ما اشتملت عليه من آلام وأكدار ولكن اذا عرفت أن الانسان لا بد له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن حتى يدفع عن نفسه ضرر الجوع والعطش والحر والبرد ، عرفت أنه لا بد له من مال يصل به الى تلك المطالب الضرورية والا ذهبت حياته وضاعت سعادته وما لم يكن عندك ما تسكن اليه نفسك تكدر عليك عيشك وتشوش عليك أمرك حتى فى صلاتك ومناجاتك بمقتضى حكم الطبيعة البشرية .

والمؤمن من أرفع الناس همّة وعلى قدر همّة الرجل تكثر واجباته وتكبر مروءته فتعظم أثقاله وهو الذى لا يزال لسان حاله يقول :
أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلى

فاذا الدنيا وسيلة الى دوام الحياة وفعل الخيرات وصفاء العبادة
وتمام السعادة، فالروح لا بد لها من بدن، والبدن لا بد له من دنيا
ولكن هناك فرق كبير بين المؤمن والكافر في طلبها وسنشرحه
لك اتم شرح فكن معي بالانصاف كما كنت معك بالانصاف

المؤمن يطلب الدنيا ليتوصل بها الى سعادته الباقية وليسير على
راحلتها الى محل قراره فهي في نظره لا تتجاوز رتبة الوسائل التي
تراد لغيرها ولا ترتفع الى درجة المقاصد لذاتها وان كان لا بد منها
وقد أثمر هذا النظر للمؤمنين أن يتمتعوا بقلوبهم وتتمام حريتهم اذ لم
تستعبدهم الدنيا بمحبتها كما استعبدت أبناءها المتعشقين لها المتهاالكن
عليها ولم تأخذ من قلوبهم الا كما تأخذ الوسيلة من قلوب ذوى العقول
السيمة ، ومن أجل ذلك قل منهم الخصام وتم بينهم الوئام ولا تظن
أيديك الله انا نرى أن المؤمن لا يتوسع في الدنيا ولا يكون بعيد النظر
فيها فانه هو العاقل الحكيم بحكمة دينه وتعليم سيده ، ولكنه يعمل
كل ما يعمل فيه لله غير غافل عن مقصده الذي يريد فيتوسل
بكل شئ منها الى فعل الخير واكتساب الاجر

المؤمن يتعاطى الاسباب المشروعة ولكن لا يذل لها ذل
العاشق لمعشوقه ولا يخضع لها خضوع العابد لمعبوده لان قلبه مع
مسبب الاسباب لا مع الاسباب فهو دائماً يستمد منه الرشيد والمعونة
فيما يريد علماً منه أن بيده مقاليد الامور فان شاء أضله في السير
وأوجد له من العقبات ما يحول بينه وبين مطلوبه وان شاء هداه السبيل

ويسر له من الاسباب ما يعلم وما لا يعلم ، ولديه تعالى من الاسباب الخفية ما لا يصل اليه علمك وتدبيرك ، ولئن علمته فلن تصل اليه قدرتك ، وليس لتصرفه تعالى حد يقف عنده أوقانون لا يخرج عنه بل ما لا تعلمه من الاسباب الخفية أكثر مما تعلمه ، ولست تدبر الا على حسب عامك وقد ينقلب ما دبرت ولا يكون ما قدرت ، وكثيراً ما كانت المقتضيات موانع والمضار منافع ، واذا لم تكن قد اهتمدت الى ذلك بما وصلت اليه من العلم فلعلك اهتمدت له بما حصل لك من الحوادث

المؤمن لا يموت أسفاً ولا ينتحر غيظاً اذا فاتته شىء من الدنيا مهما كان لأنها ليست كل المقصود عنده ولا تمام السعادة في نظره ولأنه يعلم أن الله على كل شىء قدير ، فان شاء أعطاه اضعاف ماضع منه وأن لم يعلم له سبباً ولم يعرف اليه طريقاً ، فليست الاسباب منحصرة فيما علم ولا الطرق مقصورة على ما عرف ولأنه كثيراً ما وجد الخير فيما كان يظنه شراً وكثيراً ما وجد الشر فيما كان يظنه خيراً ، وطالما استتبعت الأفراح الاتراح والشرور السرور ، فغلب عليه الركون لله عز وجل والثقة به والتوكل عليه وتقليد كتابه العزيز فيما قال (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فعزاه هذا الخطاب فهان عليه المصاب فتلج منه الصدر وخف عليه الامر

هذا وهناك فروق كثيرة أعرضنا عن ذكرها اكتفاء بما اعلمه
يكفيك

(القول الفصل فيما جاءت به الشريعة)

« من اللذائد البدنية والمطالب الدنيوية »

قد علمت أن الانسان مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى
أرضى وأنه لا بد له بمقتضى هذا الجزء المادى أن يتغلغل فى المحسوسات
ويوغل فى وادى اللذائد الجثمانيات ولاشئ عليه فى هذا بل بذلك
تحصل سعادته وتم راحته ، وقد اعتنت الشريعة بذلك أتم اعتناء
فرسمت له قواعد وحددت له حدوداً وقالت (ليس خيركم من ترك
دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه وإنما خيركم من عمل لدنياه وآخرته)
وقالت (لارهبانية فى الاسلام) (أن لبدنك عليك حقاً وأن لزوجك
عليك حقاً) الى آخر ما بينت من الحث على العمل الذى تصلح به
دنياك ، وما شرعت لذلك من مسائل النكاح والطلاق والبيع والشراء
والمضاربات والشركات وحدود التعديات والجنيات محافظة على تلك
الحقوق الجثمانية التى أقامت لها وزناً كبيراً وشأناً خطيراً وأن من أول
ما تقصده من غرس خلق الشجاعة فيك أن تدفع بها غائلة من يتعدى
عليك فى حق من حقوقك المشروعة وما بالغت الشريعة فى شأن الامام
العادل حتى كان يوم واحد من أيامه بعبادة ستين سنة وحتى كان من الذين
يظلمهم الله فى ظل العرش الامن أجل اقامة العدل بين الناس فى تلك

الحقوق ، ولا وردت لعنة الظالمين في الآيات العديدة الا من أجل ذلك ، ولا استعاذ صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل الا وقد لاحظ ما يترتب عليهما من مضار الدنيا والآخرة الا أنك اذا لم تتفان في طلب تلك اللذائذ ولم تهالك عليها وراعت حدود الله فيها سعدت سعادة كبرى وصفا عيشك صفاء يطلبه قلبك وان ضايت عنه في سيرك

وأما اذا كنت ممن يعدو وراء الاوهام وينخدع بأضغاث الاحلام ويغره لمعان السراب فيحسبه من لذيذ الشراب شقيت شقاء لا سعادة فيه وكددت كدأ لا راحة معه وطلبت أن تستأثر بكل شئ فوثبت وثب الوحوش على اخوانك وبنى نوعك تفترسهم افتراس الذئب الضاري نائمة الغنم وتستلب منهم ما استطعت اليه سبيلاً حتي يكون لك من رفعة الجاه ووفرة المال وضروب اللذات ما ليس لاحد سواك في بلدك أو جهتك أو قطرك أو الدنيا كلها على حسب ما تسمح به درجتك وتوصلك اليه قدرتك

وهذا الذي في نفسك من التكالب الحيوانى على جمع المال والحرص على قتل غيرك لتنفرد بالحياة كلها وما ركب فيك من ذلك الشره الدس لا يتناهى حتى لا يساويك أحد ولا يدانيك انسان فتكون وحيد دهرك وفريد عصرك على ما يزعمه شيطانك (ولو أنصفت لعرفت أنك وحش اخوانك وهفترس أقرانك)

كل ذلك الذى يدور بنفسك وتطلبه على موجب شرهك

وجنتك هو بعينه في نفس كل واحد من بني نوعك ، فلا تلبث
أن تقوم في وجنتك قومة الأسد في وجه من يريد أشباله ، فلا يزال
يساورك حتى يصرعك أو تصرعه وبين هذا وذاك يضع منك الصفاء
ويقتضى على ما كان لك من المناء بفضل غلبة الأهواء وعدم معرفة
حقيقة السعادة والشقاء

وإذا تنحل الروابط الانسانية بل علاقات القرابة الابوية كما
شاهدنا ونشاهد فتتفكك أجزاء الأمة ويكاد ينهار بناء المجتمع
الانسانى لولا لطف الله تعالى ووجود الكمالين فيه

وإذا كان غرس مكارم الاخلاق التي توقف النفوس عند حدها
وترسم لها طريق السعادة الحقيقية وتنفع فيها روح الانسانية وتعالو
بها عن الصفات البهيمية من أول الضروريات التي يتوقف عليها
صلاح الكون وبقاء النوع الانسانى حتى لا يذهب فريسة الشره
وضحية الاطماع

لا فرق بين الافراد وبين الأمم في ذلك، وكثيراً ما يحسون بما
شرحنا وأن مآل ذلك الى التلاشي والدمار ويشعرون بأن غريزة
الشره التي فيهم لا يكاد يقنعها مطلب من المطالب أو تشبعها غاية من
الغايات

وعند ما يتحرك فيهم ذلك الاحساس الحق يطالبون عقدهم وتمر
للسلام العام حتى يوقف النفوس ايقافاً قهرياً عند ما حد لها
فانخلاصة ان المطالب الجمائىة واللذائذ الحسية هي أس السعادة

ومناط الراحة اذا عرفت للمقصود منها ووقفت بها عند حدها المشروع
والا كانت سبب التحاقد والتحاسد ومبعث التنافر والتدابير ومثار
التكالب والتغالب ومذهبة السرور ومجلبة الشرور ومجمع البلاء وأس
الشقاء

ولذلك احتجنا الى الشرائع التي تمحو من نفوسنا رذائل تلك الغرائز
وتنقش فيها فضائل الاخلاق حتى نحيا حياة طيبة ونأمن من انحلال
نظام مجتمعنا الانساني وانهدام بناء وجودنا البشرى
ويحسن بنا هاهنا أن ننبهك الى أمرين عظيمين :

الاول أن مكارم الاخلاق التي تجب فيما بين الناس ويتوقف
عليها معاملتهم وصالح حالهم لا تتم على ما ينبغي الا من أخذ الدين
بمجامع قلبه فامتلاً خوفاً من الله ورجاء في الله فوقف عند ما حد له
من حدود وشرع له من رسوم قائلاً لنفسه وبني نوعه (تلك حدود
الله فلا تعتدوها) فكانت معاملته للناس فرع ذلك الاصل الثابت
في أعماق قلبه ومشيدة على ذلك البناء الذي أسس على التقوى ، وأما
من لم تكن معاملته فرعاً عن معاملة الله تعالى ولا مسببة عنها بل لما
يقصد من أمر يعود عليه ونفع يرجع اليه فليس له من مكارم الاخلاق
الا صورها وأشباحها لا حقائقها وأرواحها ، بل تستطيع أن تقول أنه
ليس من مكارم الاخلاق الحقيقية في شئ لانه انما يعمل لأغراضه
ويسعى لغاياته فهو معها لا مع الكمال ، فلا يلبث أن يتلون بالالوان
المختلفة على حسب ما تقتضيه الظروف وتشير اليه الغايات

وكذلك من أخل بواجبات المعاملات فيما بينه وبين الناس فقد
أخل بمعاملته مع الله ، لأن له تعالى في كل شأن من شؤون الخلق
حقاً أوجبته عليك وحداً أمرك بالتزامه ، ولا يتصور أن يفرد حق
الناس عن حق الله تعالى كما بين ذلك عند ذكر مراتب الذنوب وما
فيها من الحقوق المتعلقة بالخلق والخالق معاً أو بالخالق فقط ولا ثالث
لهما ، فهما مرتبطان ارتباط الأس بالبناء وممتزجان امتزاج الأرواح
بالأجساد فاعرف ذلك واحرص عليه

والامر الثاني أنه قد ورد عن على كرم الله وجهه أوعن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك
كأنك تموت غداً) وهو مما يناسب موضوعنا الذي نحن فيه بل هو من
أول الشواهد عليه ، ولسنا نحملة على الحث على الاجمال في طلب الدنيا
كما يقول بعضهم فإن من عرف أنه يعيش أبداً عرف أن ما لم يحصله
اليوم حصله غداً ، فاجمل في الطلب ولم يكثر من التعب ، ولكننا
نقول هذه الرتبة التي اشار اليها الحديث لا يستطيعها إلا أكابر الرجال
الذين لم تأخذ الدنيا من قلوبهم مأخذها من قلوبنا اليوم فهم يعملون
فيها بأمر الله لا يبالون لمن تكون ثمرة أعمالهم موقنين بأن الملك لله
وأن الخلق عيال الله فهم يتقنون ما يعملون مراعاة لما أوجبه تعالى
عليهم فيما اقامهم فيه ، قائمين في ذلك بمراده لا بمرادهم متوجهين اليه
تعالى بأرواحهم وحقائق ذواتهم ، وان كنت تراهم منهمكين فيها
بظواهرهم وأبدانهم فكانت دنياهم على أحسن ما يكون وآخرتهم

على اتم ما يتصور . فدنياهم لا آخرتهم وآخرتهم لربهم (وانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى)

هذا وأظنك قد رأيت من يستدل بهذا الاثر على الاجتهاد في طلب الدنيا التي أصبح من أسرائها وأول عبيدها ، معذراً عن نفسه مبرراً قبيح خطته وسيئ عمله فرحاً بصدر الحديث غافلاً عن عجزه على أن القلب ليس له الا وجهة واحدة متى توجه اليها بالمحبة لم يمكنه أن يتوجه الي غيرها (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) فاذا طلبتها محباً لها شغوفاً بها معطياً اياها رتبة المقاصد التي تراد لذاتها أخذت بكل قلبك بمقتضى تلك المحبة شئت أم أيت (شأن المحبوب مع المحب)

ولا يتأتى لك أن تجمع في القصد الذاتي والحب القلبي بين الفاني والباقي كما لا يتأتى لك أن تجمع بين الحركة الى السفلى والحركة الى العلو ولا بين المشرق والمغرب فهما ككفتي الميزان متى رجحت احدهما خفت الاخرى وكالأثناء الممتلئ ماءً لا يدخله هواء الا على قدر ما يصب من الماء

فاذا كنت مع الدنيا على تلك المحبة القلبية وذهبت تطلب الآخرة ذهبت اليها بلا قلب لا محالة (ولكن بلا قلب الى أين تذهب)

اذا علمت ذلك علمت انه لا يمكنك الجمع بينهما والعمل الصحيح لهما الا على ما شرحنا ، فاحذر من الجلاء وكثير من العلماء

الذين أصبحوا من أكبر عشاقها وأول دعايتها فكانوا ضرراً على
الدين وفتنة للمسلمين

وراعى الشاة يحى الذئب عنها فكيف اذا الرعاة غدوا ذئاباً
(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) وقد قالوا أن
فساد الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء فامعن النظر أيديك
الله في هذا الموضوع والذي قبله وزن محبة الدنيا ومحبة الآخرة في
قلبك ، واعرف الحق بوجدانك وانصافك فيما بينك وبين نفسك ،
وليس يهمنا أن تعترف لنا بعد بما وصلت اليه ، ووقفت عليه ولكن
يهمنا ألا يخذلك الوهم أو يضل بك الفهم

(تمة للموضوع بذكر سائحة فيه)

سر ماورد من احاديث الزهد في الدنيا هو أن الانسان يحبها بطبعه
جاً شديداً فيغلب عليه الهوى والشهوة فيكأثر ويفاخر ويمحاسد ويمحاقد
ويكون جرثومة الشرور كلها اذا ترك وأمياله الفطرية
فاقتضت الحكمة أن يزهد فيها حتى ترتاض نفسه وتتكسر سورة
هواه حتى اذا تكمل بالاخلاق الحمودة وتطهر من الاوصاف الطبيعية
السيئة وانتقاد لحكم الدين والعقل وصار مهيئاً للنور والحكمة أباح له
الشرع أن يمسك الدنيا ويتوسع فيها ما شاء لأنه حينئذ خير
لا شرف فيه ، ولست أنكر ان على الامراء والكبراء الذين ييدهم

زمام الامور ان ينظروا في مصالح الدنيا بأوسع نظر ويطلبوها أكبر طلب لما في ذلك من النفع العميم والفضل العظيم
وبعبارة أخرى تقول ليس يخفى أن الانسان مجبول على محبة الدنيا والافراط فيها كما قال تعالى (بل تحبون المال حباً جماً) وقال (بل تحبون العاجلة) وهذه المحبة غير المعتدلة ينشأ عنها التحاقد فالتحاسد فالتنازع فالتقاتل (نتائج طبيعية يستلزم بعضها) بعضاً فرأت الشريعة ان تزهد الناس في الدنيا قليلاً لتلك المفسد وتفرغاً لقلوب حتي تستعد لمحبة الله تعالى مكان محبة الدنيا فاذا تطهرت النفس بفيض الانوار ومعين مياه الاسرار وذاقت من اللذة المعنوية واستجلاء جمال الحقائق الربانية ما صغر لديها تلك اللذائذ الحسية وكثف في عينها ملك المطالب الجسدية اباحت له الشريعة أو طلبت منه بعد ذلك الكمال ان يرجع الى الدنيا ثانية بذلك العقل النوراني واثقل القلب الرحمانى حتى يفيض خيره ويظهر بره فانه لا يعرف اذ ذاك المصالح الشخصية ولا المطالب النفسانية وليس يعنيه الا المصالح العامة واقامة ميزان العدل كيفما كان، واحقاق الحق حيثما وجد، تابعاً في ذلك الحكمة، غير مخاف للرحمة لا فرق عنده بين قريب وبعيد، ولا صغير وكبير، واصلاً الى درجة من يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ناظرأ في الاشياء كلها بنظر الله عز وجل، لا بساً بمقتضى ذلك الاستعداد الرفيع تاج الاخلافة عنه تعالى، آمناً من ان تغشاه الظلمات أو تفترسه الشهوات فهو في حالتيه هاتين في نظر الشريعة بمنزلة الطفل أو السفينة الذي اذا لم

تمحجر عليه كان الى الشر أقرب منه الى الخير حتى اذا تم رشده واستقام
أمره أبحنأ له ان يتصرف كما يشاء لمكانه من العقل والحكمة فلا يخاف
من ذلك ضرراً عليه ولا على الناس فهذا هو شأن الشريعة مع بنيها
تأمرهم بالرياضة والزهادة على سبيل الاستحباب حتى اذا طهرتهم من
أدناس الجبالات وتقتهم من أرجاس الطبائع وأمنت عليهم وعلى الناس
منهم قالت لهم لا تثريب عليكم اليوم فافعلوا ما شئتم فأتى الحكماء الذين
يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم والعلماء الذين أصبحوا دريافاً للامم
ودواء الشعوب

(الشرعيات)

« الشريعة منبع السعادة »

سر معى على ما أحب عسى أن تجد ما تحب وإياك والرعونة فطالما
حرمت أهلها من خيرات وحجبت عقولهم عن حقائق فحرك معى الفكر
أيديك الله وتجرد عن كل ما تملك نفسك وانطبع فى مرآة قلبك عن
تقليد واستحسان لا عن دليل وبرهان

اذا غلب عليك الأنصاف وصادفك الرشد وفعلت ما اتفقنا عليه
وجدت الشريعة قد جاءت بسعادة الروح والبدن جميعاً والانسان كما
علمت بالبرهان فيما تقدم مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى
ارضى وأنت لا تسعى وراء مطالب الابدان وما تحتاج اليه ألا من

حيث أنك حيوان لا من حيث أنك إنسان وعلمت أن كل حيوان يطلب الطعام والمشارب وما يقيه من الحر والبرد الى غير ذلك وأنه لا قيمة لما يشاركك فيه الحيوانات وان كنت في طلبه أوسع تدبيراً وأتقن صنعا وأعظم تفننا واستحقت بذلك أن تكون سيد الخيرات كما قلنا في بعض ما سبق لك، ولكن الوصف الذي صيرك انساناً وألحقك بالملائكة هو أنك أعطيت نفساً شريفة تشاكل بها الملائكة وتستعد لأن تعرف من جلال الله تعالى وجماله ما لا يعرفه غيرك ويمكنك أن تترقى في الكمالات دائماً وتنخرط في سلك العالم الأعلى الذي لا يلحقه ألم ولا يشوبه نقص وأن تفارق عالم الحيوان الذي تؤذي فيه البعوضة ويسقمك فيه الحر والبرد وترزعجك الأحلام وتخيفك الأوهام

وبمقتضى ذلك الجزء الروحاني الذي ليس له حد محدود في الترقى في الكمالات (وعلى قدرها تكون اللذة والنعيم) كانت هذه الحياة الحيوانية غير كافية لروحك ولا موفية حق استعدادك فكان لك بمقتضى حكمة الحكيم حياة أخرى لا تنفذ حتى يتأتى لك فيها أن تأخذ كل ما يقتضيه استعدادك وتوجيه حقيقة ذاتك مما لم يحتاج له الحيوان ولا يمكنه أن يصل اليه

ولولا ذلك لكان غيرك من المخلوقات أسعد منك حالاً وأنعم منك بالاً ولكان إيجادك على هذا الوجه من السفه بمكان (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم ألينا لا ترجعون) وقد سبق لك أيضاً أن لذة هذا الجزء الروحاني إنما هي بالعلوم والمعارف

والانوار والاسرار وأنه قد يصل الى حد تنفعل عنه الاشياء كلها ويكون
في نعيم بلا كدر وصفاء بلا تشويش (١) وقد جاءت الشريعة تعالجك من
الأمراض التي أحاطت بك وتحاول أن توصلك الى هذا الحد وتظهر فيك
خاصة الانسانية ولا تعجل على برحمتك الله فاني معترف معك بانها جاءت
تحت على مصالح الأبدان وسعادتها أيضاً وقد أفضنا القول في ذلك ،
فاذاً قد جاءت الشريعة بسعادة الأبدان والارواح ، وان شئت فقل
بسعادة الدنيا والآخرة فشرعت العبادات البدنية عسى أن تدخل الى
قلبك من الانوار وتذكرك من العظمة الالهية ما توفي به قسط الروح
وما يجاوز مرآة القلب مما تراكم عليها من ظلمة وعلا عليها من صدا بل
وما تنتفع به في مصالح البدن أيضاً فانه اذا انجلت مرآة قلبك تجلى فيه
الحق حقاً والباطل باطلاً وظهر لك قبح الصفات الذميمة من الحقد
والحسد والطمع والشره ، وحسن العفة والسخاء والشجاعة والاقتصاد
وسلامة الصدر الى آخر الفضائل والردائل وتقوى عقلك بذلك المدد
النوراني فاجتنبت ما يشينك وتحليت بما يزينك فطاب عيشك وتم
سرورك والا حقت عليك الكلمة وأحاطت بك الشقوة ولم تغنك
أموالك ولا أولادك متى كنت فيها على غير تأييد الهى ونور ربانى
(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها) فيضيع
منك طيب الحياتين ويفوتك تحصيل السعادتين (ومن أعرض عن

(١) قد جاء التشويش والتهويش جميعا خلافاً للحريرى الذى جعل

التشويش لحنا

ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) بصرك الله في
أمرك وهداك الى رشداك ولا جعلك ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم
بمنه وكرمه

(ذكر شيء مما جاءت به الشريعة على التفصيل)

جاءت الشريعة بتفقد أحوالك في نفسك وفي أسرتك وفي
جيرانك وفي الناس أجمعين فاجبت عليك ألا تخاطر بنفسك (ولا
تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وقد ورد النهي عن النوم فوق سطح البيت
اذا كان بلا حاجز يمنعك من السقوط رحمة بك واعتناء بشأنك كما ورد
الوعيد الشديد فيمن قتل نفسه، وبما أورثته في القلوب من الرغبة والرغبة
من الله عز وجل امكنا أن تردع الناس عن أن يخاطروا بأنفسهم أو
يلقوا بها الى المهالك وليس في امكان القوانين الوضعية أن تردع الناس
عن قتل أنفسهم بوجه من الوجوه ، وليس يغيب عنك ما تسمعه كل
وقت من حوادث الاتحار في أوربا (بلاد القوانين والمدنية) وقد سرى
ذلك بطريق العدوى لقوم منا لم يدخل الايمان في قلوبهم ولا استقرت
تعاليمه في نفوسهم

جاءت الشريعة موجبة عليك أن تراعى زوجك فقالت (خيركم
من كان خيره لاهله وشره من كان شره لاهله) وقالت (أن الرجل ليحشر
مع المتجبرين يوم القيامة وليس عنده غير أهل بيته) وجاء في القرآن العزيز

(لا تعبدون (١) الا الله وبالوالدين احساناً وذى القربى واليتامى والمساكين
وقولوا للناس حسناً) بدأ بتوحيده تعالى لانه أساس كل خير ثم بالاحسان
الى الوالدين لانهما أقرب الناس اليك وأمنهم عليك ثم بذوى القرابة
لمكان قرابتهم وعلى حسب درجتهم ثم باليتامى الذين لا يستطيعون
حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ثم بالمساكين من الناس ثم بعموم الناس
كافة الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة

جاءت الشريعة بالحث على معاملة الجار بالحسن حتى قال صلى
الله عليه وسلم (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)
جاءت بأبلغ ما يكون من الحض على عمل الخير مع من تعرف
ومن لا تعرف حتى جعلت أمانة الأذى عن الطريق شعبة من
شعب الإيمان

بالغت فى الحث على آداب الاجتماع حتى حرمت عليك أكل
الثوم والبصل اذا أردت حضور المحافل أو دخول المساجد حتى أسقطت
عنك الجمعة بذلك اذا لم تجد ما يزيله ابعاداً لضررك عن الناس
طلبت منك الاغتسال على سبيل الوجوب أو السنية يوم الجمعة لما
يكون فى ذلك اليوم من الاجتماع ولم تكثف بذلك بل نذبتك بعد الى
التطيب والتعطر ثم أمرتك أن تمضى اليها بالسكينة بعداً بك عن
الرعونة والطيش واستبقاء لما فى باطنك من الخشية وفى ظاهرك
من الوقار

(١) والنفي فى الآية بمعنى النهى وهو ابلغ منه كما قال علماء المعاني

ندبتك الى ادخال السرور على أخيك المسلم بأى وجه من
الوجود ووعدتك عليه أحسن الجزاء

عقدت بين المؤمنين عامة عقد الاخوة الذى تقلهم الى دائرة
الاسرة الواحدة على تنأى ديارهم وتباعد أقطارهم (انما المؤمنون
اخوة)

بالغت فى محبة بعضنا لبعض حتى جعلتها شرطا فى الايمان
(لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا)

بالغت فى أمر النصيحة حتى جعلتها الدين كله (الدين النصيحة)
بالغت فى ترك الأذى حتى جعلته هو الاسلام (المسلم من سلم
المسلمون من لسانه ويده)

بالغت فى أمر الاخلاص وعمل الخيرات لوجه الله تعالى وحذرت
من الرياء الذى يفسد النفوس ويحبط الاعمال ويقاب الفضائل رذائل
حتى جعلته شركا (أن الشرك اخفى فيكم من ديب النمل فى الليلة
الظلماء)

عرفت مقدار الميل الطبيعى الى الظلم فحذرت منه بأبلغ ما يكون
حيث قالت (ما من أمير عشرة الا يجاء به يوم القيامة مغلوله يدها الى
عنقه فلا يفكه الا العدل ، بل شددت فى الأمر جدا على ما يقتضيه
العدل الالهى فلم تدع أحدا من المسئولية وكان لها فى ذلك أعلى نظر
وابلغ حكمة فقالت (كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته)

عرفت ما جلبت عليه النفوس من الاوصاف الذميمة ومن السعى وراء أهوائها وشهواتها بما يضيع عليك الحياة الطيبة ويحرمك من السعادة الأبدية من حيث تشعر ومن حيث لا تشعر كما شرحناه فيما سبق

عرفت ذلك بما لا يصل اليه أكبر يدا جوجي (١) في العالم فنبهتك أن تحذر من نفسك حذرك من عدوك أو أشدقاتها اخفي مكرها وأعظم ضرراً لأن متابعتها تذهب بنعيم الأبد وقد قال القائل

أنت عدو أم صديق لنفسه فانك ترميها بكل مصيبة

ولو فعل الاعداء بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمتي

عرفت ذلك كله فقالت (أعدى عدوك نفسك التي بين

جنبك) (أن النفس لأماراة بالسوء)

عرفت مقدار تسلط الهوى علينا فحذرتنا منه كل التحذير

وعرفتنا مكانه من نفوسنا ومبلغ سلطانه على قلوبنا حتى جعلته الها

يعبد من دون الله لما علمت من مسارعة النفوس الى طاعته وطيرانها

نحو اشارته ، شأن العابد مع معبوده والعبد مع سيده فقالت في بيان

تلك الألوهية (أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم

على سمعه وقلبه) وفي التحذير من أتباعه (ولا تتبع الهوى فيضلك

عن سبيل الله) وفي الترغيب في مخالفته (وأما من خاف مقام ربه

ونهي النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)

رأت أن كثيراً من الناس يتخبطون في أودية الاوهام والخيالات

(١) عالم من علماء النفس وأستاذ من أساتذة التربية

غير مستعملين عقولهم فارادت أن مخلصهم من أتباع الظنون فقالت
 في معرض الذم لقوم كان هذا شأنهم تنفيراً من مثل حالهم (أن يتبعون
 الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً) وقالت (وان تطع أكثر
 من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم
 الا يخرصون) فبينت أن سبيل الله لا يسلك باتباع الظن والتخرص
 وانه لا يهدي اليه الا العقل السليم والتفكير القويم ولذلك أكثرت من
 قولها (ان في ذلك لآية لقوم يعقلون ، ان في ذلك لآية لقوم
 يتفكرون) ثم تقول في توبيخ قوم (أولم يتفكروا) (أولم ينظروا)
 الى غير ذلك

عرفت نفاسة الوقت وأن النفس ميالة الى اللغو وضياح الأوقات فيما لا ينفع
 فأرشدتنا الى ذلك واكثرت من الحث عليه (والذين هم عن اللغو معرضون)
 (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (ان الله يكره أن يرى
 عبده فارغ القلب من عمل الدنيا والآخرة) (من حسن اسلام المرء
 تركه مالا يعنيه) وقد قال بعض الصالحين قد عملت بهذا الحديث
 أربعين سنة ولا تزال تتجدد فوائده وتترادف عوائده ولم أفرغ
 منها بعد

عرفت مالا أمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفوائد وما هو
 مركز في الطبائع من مراعاة الناس فيما تميل اليه نفوسهم فقالت
 (لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر) (أوليسلطن الله عليكم شراركم
 فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) وبينت لنا أن ترك ذلك من موجبات

سقوط الأمم فقالت في بيان جريمة قوم استحقوا بها المقت واللعة
(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)

عرفت ما جلبت عليه النفوس من محبة الدنيا والتطلع اليها وما
يكون في قلوب الفقراء من الحقد على الاغنياء والحسد لهم وما يكون في
نفوس الاغنياء من محبة أموالهم والحرص عليها فأوجبت لهم قسطاً من
مالهم يؤخذ منهم كرهاً (وان بقتال) وندبتهم بعد ذلك الى الصدقات
ووعدتهم عليها الثواب الجزيل حتى تذهب الشحناء وتجتث البغضاء
من قلوب الفقراء فيتم الصفاء ، وحتى تطهر نفوس الاغنياء من رذيلة
الشح (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وندبت الى
القرض وجعلته أفضل من الصدقة وعملت على توثيق عرى المحبة وتربية
خلاق المروءة في نفوس الجميع فخرمت الربا

فانظر بصرك الله الى أى حد وصل الناس من البعد عن الفضائل
ولو أنصفت لأعطيت الاثراً كين بعض العذر فيما يفعلون وقد كان
لهم من الدين الاسلامي أكبر دواء في ازالة هذا المرض القتال للأمم
الفتاك بالشعوب

عرفت حاجة الانسان الى الدنيا وانها وسيلة سعاداته وأنه عظيم
الشره فيها وأن ذلك سبب شقائه فقالت مراعية للأمرين جميعاً (من
طلب الدنيا حالاً لا في عفاف كان في درجة الشهداء)

حثت على التقوى وذ كرت علامة المتقي ثم عرفت أن نفسه
لا بد أن تغلبه بعض الشيء فتسوقه الى مالا ينبغي فوضعت له الدواء

الناجع وأرشدته الى ما يصلح به حاله مع الخالق والمخلوق فقالت (اتق الله حينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) وقالت لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس عرفت من النفوس أنها تتأثر بأقل شيء فتكمن الحقد والشر ، وكثيراً ما يكون لصاحب الهفوة مقصد حسن أو عذر مقبول فيما صدر منه ، فحضت على الأصلاح بين الناس وجعلته من أفضل الأعمال فقالت (لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً)

عرفت أن النفوس تحب مزيد الأتقام ولا تقف عند حد العدالة في المجازاة (والظلم من شيم النفوس) وأن لصاحب الذنب من جهله وبواعثه التي استولت على نفسه الضعيفة حتى ساقته الى أن يقارف ذلك الذنب بعض العذر فيكون العفو أقرب الى الرحمة وأبعد عن الحيف فأكثر من الحث عليه فقالت (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (ولن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور)

عرفت مقدار ما في النفوس من الجهل ومحبة العاجلة والتأسف على الفائت الذي يكاد يتلفها ويذهب بإيمانها حيث قصرت النظر على الاسباب ولم تترق منها الى مسبب الاسباب غير عاللة أن للأمر من الاسباب الخفية والمعدات القرينة والبعيدة ما لا يدخل

تحت علمها وقدرتها ، وإنما هو راجع للفعل الالهي والتقدير الأزلي
فكانت أشبه شئ بالتملة التي تعتقد أن الكتابة من القلم اذ لم يمكنها
أن تشاهد اليد ولا تعرف الأعصاب المحركة لها ، ولا أصل ذلك كله
من القدرة والارادة

عرفت ذلك من النفوس وأنها مجبولة على هذا الجبل فداوتها
بأنجع الادوية وأخرجتها من الظلمة بإشراق نور الحقيقة فقالت :
(ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من
قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) جمعت مجامع الآداب
والفضائل ، حاثه على العدل الذي هو الوقوف عند الحد المطلوب في
كل شئ وهو الفضيلة الجامعة للفضائل كلها ، ناهية عن الرذائل جمعاء
فقات موجزة آمرة وناهية (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء
ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى)

سلكت بك كل طريق ودخلت بك من كل باب الى
مكارم الاخلاق فتارة تذكريك ثمراتها وما يترتب عليها في الدنيا
كما قال صلى الله عليه وسلم (من وصل رحمه زيد له في عمره ووسع
عليه في رزقه أو كما ورد) وتارة ترغبك فيها بما لك عند الله من
حسن مشوبته لك ومزيد رضاه عنك

ومن أعظم أبواب مكارم الاخلاق ما أمرتك أن تشعر به نفسك
في كل عبادة من الخضوع لعظمة الله تعالى والرهبة من جلاله حتى
يمنعك ذلك الخوف وتلك المراقبة من ارتكاب الدنياوحتى يرجع بك

تور العبادة الى طهارتك الذاتية وصفاتك الاصلية وحتى تعلم أن لك
حظاً آخر غير حظك من الدنيا فلا تحبها الحب الشديد الذي أخذ
بكل قلبك فتكاثبت عليها تكالب المتهاالكين فيها فكثرت منك
المنازعات والمخاصات لانها محبوبك الوحيد وكل من نازع أحداً في
محبوبه الوحيد فهو عدوه لا محالة ، وقد كان من حق الدنيا ألا تأخذ
ألا بشئ يسير من قلبك لا بمجامعه او بتعبير آخر لا تأخذ الا بظاهرة
دون باطنه حتي يصفو عيشك ويستقيم أمرك ويستريح الناس من
شرك وتم ينكم المحبة والولاء

ولو أخذنا نشرح ما اشتملت عليه الشريعة من أسرارها الحسية
والمعنوية لطال بنا القول وستسمع في الخاتمة شيئاً من أسرار الصلاة
وقد عرفوا الآن من أسرار الطهارة أنها تنفع في أمراض كثيرة
أخصها ما يكون بالأنف

وناهيك ما يزيل تغير رائحة الفم من المضمضة (ثلاثاً) واستعمال
السواك مع الحض الشديد عليه حتى كادت توجهه وخصوصاً بعد
النوم ، وما في ذلك من المحافظة على الأسنان وما ينتظم في سلك آداب
الأجتماع ، وليس يقل عن ذلك ما في غسل القدمين كل وقت من
ازالة الروائح التي تنبعث منهما اذا طال مكثهما بلا تعبد ، الى غير
ذلك من الفوائد الطبية والحكم الروحانية مما لا محل لذكره الآن
عرفوا من تلك الاسرار بل من أسرار ما جاء به الدين الاسلامي
عموماً ما جعل الكثير منهم ينتصر له معجباً به مبتهجاً بما جاء فيه

موقفنا أن دين الاسلام على غير ما عليه المسلمون اليوم على حين أن
أبناءه يحاربونه في بلاده بجهلهم تارة وتقليدهم أخرى
ولو لم يكن من آيات الشريعة الإسلامية إلا أنها جاءت بتلك
الأصلاحات كلها في زمن يسير على حين أن غير المسلمين لم
يهتدوا الى بعضها الا في قرون عديدة لكفاها اعجازا لدى المنصف
المتبصر

هذا والمقام واسع جداً ولم يمكن أن أبرز الاشياء يسيراً مما في
نفسى وكل ما في نفسى ليس الاشياء يسيراً من تلك الاسرار (قل
لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ووجوه الأعجاز الراجعة الى
معانيه أكثر من وجوه الأعجاز الراجعة الى لفظه وحسن نظمه ،
ولا بد أن يكون قد تحرك منك الأنصاف وصادفك التوفيق فعلمت
سر قوله صلى الله عليه وسلم (بعثت لأتم مكارم الأخلاق) وقوله
تعالى (وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد)

(مقارنة الشريعة بالقوانين الوضعية)

الشريعة جاءت باصلاح الظاهر والباطن وراقبت الفرد في
أعمال نفسه وأخلاقه التي يتخلق بها وخلصت روحه من مضيق سجن
البدن وفتحت له نوافذ كبيرة يشرف منها على عالمه الفسيح فتأخذ

الروح حظها من وطنها الاصل وتشفى غلتها من سلسال منبهه العذب وتمتع نظرها بجمال رياضه الموتقة ثم تستضيء منه بنور لامع تبصر به في ظلمات هذا العالم ما ينفعها وما يضرها وما يسعددها ويسعد أمتها ثم ترشد بذلك اللا لآء أبناء نوعها ثم حركت فيها الاحساس بالخالق عز وجل ومحبه والنظر في آياته والفكر في عظمة ذاته ثم شرعت له معاملة مع الله تعالى الذي يراقبه في خلواته وجلواته ومعاملة مع أسرته ومعاملة مع الناس كافة وهي الانسانية الحقيقة التي يشربون اليها ولا يستطيعون الحصول عليها ويدعون انهم من عشاقها ، وكثيراً ما يجنون عليها ويكونون من ألد أعدائها ، ولو نظرت الى قوانينهم لوجدت فيها ما يستخرج من قلبك أيها المؤمن شكر الله عز وجل ، وأظنك تعرف انه لا يراد من تلك القوانين الاحفظ النظام العام لا اصلاح الافراد في كل شئونها (كما هو مرمى الشريعة المطهرة) فهي لا تكفل السعادة للافراد على الحقيقة ، وانما تكفل وحدة الامة وراحة الحكومة القائمة بشئونها

ومع هذا فسل الخبير بأحوالهم ينبئك عما ظهر لهم من النقص فيها حتى بالنسبة الى غرضها الذي ترمى اليه مما أوجب كثرة الجرائم والشرور فاهتدوا الى تعديلها بما يقربها من قوانين الشريعة الاسلامية فاهتدت المانيا الى منع المضاربات الا على وجه مخصوص يقرب من

المعاملات الشرعية وانجالترا الى منع الزنا رسمياً في آخر ما يعلمه
الباحثون عن أحوالهم

وقد عرفوا من أسرار الشريعة شيئاً كثيراً فاعترفوا لها في
مسألة تحريم الخنزير وتحريم الخمر والمقامرة والضرورة إلى الطلاق
وكثرة الزواج

وان فرنسا لتئن الآن أنيناً شديداً مما عليه أبناءها كما أن
فلاسفة ألمانيا لهجون بذكر فوائد الاكثار من الزواج ويغبطون
المسلمين الذين يصيرون في زمان يسير ذوى عدد كثير بفضل كثرة
الزواج (مع ملاحظة أن الشريعة حددت لذلك حدوداً وشرطت له
شروطاً) واذا كنت قد علمت أن الشريعة جاءت باحثة عن
السعادتين معرفة اياك كلا الطريقين كما قالت (وهديناه النجدين)
علمت أنه لا يمكننا أن نقارن بينها وبين القوانين الوضعية من حيث
البحث عن السعادة الروحية لانه مما انفردت به الشريعة المطهرة ،
وكان يكفينا ذلك فرقاً كبيراً بينهما خصوصاً بعد ما علمت رتبة
السعادة الروحية الانسانية الباقية من رتبة السعادة البدنية الحيوانية
الفانية وانما يمكننا أن نقارن بينها وبين هذه القوانين فيما اشترك فيه
من البحث عن السعادة البدنية

فاذا قارنا بينهما من تلك الوجهة بعد ما تقدم لك في هذا الموضوع
والذى قبله كان للشريعة القدح المعلى أيضاً فانها تردع النفوس عن
ارتكاب الشرور والقبايح كيف كانت وحيث كانت اذ جعلت عليها

رقيقاً من أعماق قلوبها يصيح بها زجراً ويملاًها رعباً عند ما تنهم
بمعصية أو تتوق الى قبيح

لا فرق بين أن تكون وسط العواصم تشرئب اليها الاغناق
وترقبها العيون وبين أن تكون وسط الصحراء الكبرى حيث
لا انسان ولا ديوان لأنه استقر في قلبك أن الله رقيب عليك حينما
كنت (وأنه يعلم السر وأخفى)

وأما القوانين فلا يهملك أن تحافظ عليها متى وجدت الى ما تريد
سبيلاً ولم تخف شاهداً أو دليلاً ، ولا يسعنا الا ايجاز القول في هذا
الموضوع الواسع ، وسنعمل كتاباً نبين فيه بعض أسرار الشريعة فيما
جاءت به من الجزئيات والمسائل الكلية وتتكلم على القوانين الغربية
وعلى آراء الغربيين في الاخلاق والعادات وعلى ما قاله فلاسفتهم
بالنسبة الى الدين الاسلامى حتى تعرف أن الله جمع لك في تلك
الشريعة الغراء من الاسرار ما لم يهتدوا الى بعضه الا فى مئات من
السنين ، ولعلمهم فى كل قرن يهتدون الى جملة منها حتى يكون الدين
كله لله (وما اهتدوا الى ذلك الا بعد ان برحت بهم الحوادث
وأوجعتهم الكوارث) وقد منحك الله ذلك كله بغير تعب ولا نصب
ولكنك تأبى الا أن تسير سيرهم وتتمرهم حتى تهتدى بعد كما
اهتدوا ، وليتك تتسائل عن آرائهم الاخيرة التى يصرخ بها أكابرهم
هناك حتى تستريح من ذلك العناء الذى لا تدرى أين يذهب بك
فقد رضيت لنفسك (والقضاء لا مرد له) أن تتلاشى أنت ولغتك

ودينك وعاداتك وجميع أحوالك في تقليدهم فيما يجارون منه في بلادهم
واعمالك قد عرفت من كلامنا في بعض المواضع مقدار مركزهم من الانسانية
الحقيقية، أرشدك الله الى دينك حتى تتعرف أسرارها ، وأودع فيك
المحبة له والغيرة عليه ، والافتة من ان تتلاشى أمتك في غيرها وسدد
نظرك قبل ان يحل الصغار ويحقق الدمار

(الاسلام دين الرحمة والحكمة)

« لا دين القسوة والتعصب »

يحسن بناها هنا أن نورد لك هذه المقالة التي رددنا بها على من
طعن على الدين الاسلامي بأنه لا يعرف معنى العدل ولا يأمر بغير
القتل إلا فيهما من الفوائد الجمّة وما لها من المناسبة التامة بهذا المقام وهذا انصها
خفض عليك أيها المسلم المشفق على دينه الخفيف دين
الفطرة ولا يهولك ان رماه أعداؤه بالتعصب وتقض العهد وابتاحة الظلم
وسفك الدماء الى آخر ما أملاه عليهم ضميرهم الممتلئ هوى وقلبيهم
المتقد حقدا على الاسلام والمسلمين

فأمر دينك بما له من القوة الذاتية والمتانة الطبيعية أجل من أن
تؤثر فيه هذه الترهات أو تطمس نوره الساطع غياهب تلك المفتريات
فدعهم يعوون خلف حصونه المنيعه ويستعوون من قلبيهم ممن لم
يعرف مكانهم من العلم ولا مكان الدين الاسلامي من مكارم الاخلاق
وسنورد عليك في مقالنا هذا من البراهين القاطعة والحجج الدامغة

ما ينطق بأنه الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد

ثم تتبع ذلك بما اشتمل عليه من حكم سامية وأسرار عالية فلا
يسمك طول البيان ولا كثرة ما تأتي به من برهان

فمن لي بمن يحرك احساس الحياء من نفوس أولئك المتفهمين حتى
ينجلوا من جهلهم وكذبهم على الدين أنه يديح تقض العهود ولا يحترم
مبادئ العدالة ، وقد غاب عنهم أنه دين يقول كتابه المبين (ان الله
يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) ويقول
(الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً
فأتوا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) (وان أحد من
المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (يا أيها
الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق)
دين يقول نبيه صلى الله عليه وسلم (من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم
القيامة) وأظنك لا تجد من عبارات التحذير وقوارع الزجر أبلغ
من هذا

دين يقول خليفته أبو بكر الصديق فى كتاب لبعض عماله (عليكم
بالعدل وتباعدوا عن الجور ولا تغدروا ان عاهدتم ولا تنقضوا ان صالحتم)
الى آخر ما قال فى كتابه

دين يقول خليفته عمر بن الخطاب لبعض قواده (نحن منازل أصحابك

عن قري أهل الصلح والذمة ولا يدخلها منهم الا من تثق به (ثم قال
في آخر كتابه (واعلم ان أشقى الرعاة من شقيت به رعيته)
دين يقول خليفته علي بن أبي طالب للأشتر النخعي حين ولاد
على مصر (وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة او البسته منك ذمة
فتم عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالامانة ، واجعل نفسك جنة دون
ما أعطيت ، فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد اجماعا عليه مع
تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ، فلا تغدرن
بذمتك ، ولا تختلن عدوك ، وإياك والدماء وسفكها بغير حلها فانه ليس
شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أخرى بزوال نعمة وانقطاع مدة
من سفك الدماء بغير حقها)

وان تعجب بعد هذا فعجب قولهم أن دين الاسلام يبيح الظلم
ولا يعرف غير الايذاء وسفك الدماء بعد ما يقول كتابه الكريم
(وجزاء سيئة سيئة مثاها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب
الظالمين) (أنه لا يفلح الظالمون) (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا
هم يستعقبون) وبعد ما يقول صلى الله عليه وسلم (الظلم ظلمات يوم
القيامة) ويقول (عقوبتان معجلتان في الدنيا الظلم وعقوق الوالدين)
فمن لم يوصل الى نفوس أولئك المتعنتين ذلك العلم مكان تلك الجهالة
ان دين الاسلام يأمر بنيه بالرحمة لكل شيء لا لخصوص النوع
الانسانى فقد قال صلى الله عليه وسلم (ارحموا من في الأرض يرحمكم
من في السماء ، وقال (في كل كبد حرى صدقة) وكل حيوان فيه تلك

الكبد الحري، وان دينا يقول دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي أطلقها لا يتصور فيه أن يأمر بسفك دم الانسان ظلما وتقتض عهده حيفا مع مزيد حثه على الرفق بالحيوان الاعجم، فدين الاسلام دين لا يعرف القسوة ولا يأمر بغير الرحمة لكل ذى روح من الحيوان فضلا عن الانسان وهو القائل (ولقد كرمتنا بني آدم)

ولعمر الانصاف ان دينا هذا شأنه لجدير أن ترحب به النفوس وتتسع له الصدور حتى يدخل في شغافها ويستقر في أعماقها وفوق محل حياتها

وقد كان الواحد من المسلمين يعذب بكل أنواع التعذيب وتوقد له النار ليرمى فيها كي يرجع عن دينه فيأبى الا أن تخرج نفسه من بين جنبه ولا يخرج دينه من سويداء قلبه ويقول

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى
وقد قال هرقل ملك الروم لأبى سفيان بن حرب حينما سأله
عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (هل يترد أحد منهم سخطا لدينه)
فقال لا فقال هرقل (كذلك الدين اذا خالطت بشاشته القلوب) فهكذا
كان الدين وهكذا كانت أربابه الذين عرفوا ما يدعوهم اليه مما كان
لهم شفاء من أمراضهم وسعادة فى أنفسهم أحسوا بها أحساسا هون عليهم
القتل دونه

دين يصدع بالحجة قبل كل شىء ولا ينخذل أمام برهان

دين يملك النفوس المنصفة بمجرد ما تعرف أصوله وتقف
على مبادئه

دين يدعو الى كل خير ويأمر بكل فضيلة ويسوق الناس الى
ما يوجب رفعتهم وينتهى بهم الى سعادتهم

نعم هذه قواعده المتينة وقوانينه الرفيعة وان أمره فوق هذا، فانه
لما رأى الانسان كثيراً ما تلعب به الالهواء وتغلبه الشهوات وكان
يمكنه أن يحافظ على ظاهر تلك القوانين ولا تقوم عليه حجة بعد
المحافظة على أشباح هذه الرسوم مع ما له من القصد السيء فيما يأتي
ويذر، فيكون ظالماً يلبس ياب العادلين ومتدنساً يتسم بسيمى المتطهرين
علم ذلك فعلمنا أن المحافظة على تلك الرسوم الظاهرة لا قيمة لها
في نظر الدين فقال « ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى
قلوبكم » وقال (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى)
وقد قال تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) (ولكن
يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وعلم صلى الله عليه وسلم أن الاشياء
تتشابه فأمرنا بالاحتياط عند ذلك فقال « دع ما يريك الى مالا
يريك » وقال « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات فمن
اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » وقال تعالى (فمن يعمل
مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (وان كان
مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (وأنه يعلم السر
وأخفى)

فأنت ترى (وقد أفصح الصبح لذي عينين) أن الاسلام لا يريد من أبنائه الا الحق الصراح الذي لا يعتريه ريب والعدل الكامل الذي لا يشوبه ظلم ولا يبنى أموره الا على المصالح الحقيقية والحقائق الواقعية

وانى لأعجب كل العجب أن يوصم الاسلام بذلك الذي يرميه به أعداؤه وكتابه ينادى بأن الله يجازى على ما فى الضمير ويحاسب على الفتيل والنقير ، فما أدرى كيف صمت آذانهم عن سماع ندائه العالى وعميت أبصارهم عن رؤية شمسهِ المشرقة (ولكن هى الاهواء تعمى وتصم)

(الدين منبع السياسة الحقيقية والتربية الصحيحة)

ان مثلى وقد أردت أن أبين سعة نظر الدين وعظم سياسته وحسن تربيته وبيان أن ضرر التربية الحديثة أقرب من نفعها مع ما عليه المسلمون اليوم من ارتباك الأحوال واختلال أعمالهم مثل رجل فقير اتضعت مكانته وسقطت من النفوس حرمة لكن كرم محتده وطاب منبته ، فاذا قام يفاخر الامراء والكبراء لم يحملوا به ولم يصغوا اليه ورأوا أنه قد جاء شيئاً اداً (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا) قائلين لو كان آباؤه من العظماء الاجلاء لم يكن هو من الفقراء الاذلاء مقتفين فى هذه البرهنة نهج قريش حيث تقول فى حق الدين وأهله (لو كان خيراً ما سبقونا اليه) واذلم

يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم . ولكنى سأصدع بصرى الحق معتقداً أن فى الأمة خيراً كثيراً بين أعماق قلوبها فأقول :

يظن فريق من الناس أن الدين يبين السياسة وأن كل متدين ساذج لا يدرك كيف يعامل الناس على اختلاف طبقاتهم ولا يمكنه أن يدير شيئاً من الأشياء ولا أن يسوس أمة من الأمم بل ولا طائفة من الطوائف فتراهم إذا أرادوا أن يرموا أحداً بالبله أو الغفلة قالوا انه رجل صالح وأغناهم ذلك عن الاسهاب والاطناب ، وقد جهلوا أن سعة النظر واحكام التدبير وقوة الحزم وبالع الحكمة ليست الا للمؤمنين الكاملين (المؤمن ينظر بنور الله)

وأن السياسة الحققة التى لا يلحقها شر ولا يخشى لها عاقبة انما هى سياسة الدين الذى أخرج الناس من الظلمات الى النور فى كل شئ حتى أمكنه أن يقول (ما فرطنا فى الكتاب من شئ)

نعم ان الدين لا يعرف سياسة المصالح الشخصية الا على وجه اندراجها فى المصالح الكلية حتى لا يفرق الانسان بينه وبين غيره فيحب لأخيه ما يحب لنفسه ويعرف أنهم جميعاً كالبنيان يوهنه سقوط لبنة منه وانه لا ثبات له الا بأجزائه التى يشيد بعضها بعضاً كما أنه لا يعرف سياسته الكذب والخداع والنفاق الى غير ذلك مما يقتل الفضائل فى النفوس ويجعلها ذئاباً وثوراً وأسوداً وعقارب فتموت الأمة بموت تلك الأخلاق وتترجى فيها ملكات الشر وصفات الخبث وتذهب منها الشفقه والرحمة والنخوة والمروءة وتحل محلها القسوة والشره

والتباغض والتحاسد فيما بين أفرادها أو فيما بينها وبين أمة أخرى مما يوجب الدمار وينهدم به بناء العمران عاجلاً أو آجلاً وتشقى به الأمم والأفراد جميعاً ، وليس يعلم ما تأتى به سياسة ساسة العالم من الشر المستطير الذى ستراه أو يراه أبناؤك إلا الله تعالى ، وأنها نفوس وحشية يضلها الشره فلا تبصر موضع الصواب ثم يسوقها الطمع الى حتفها وأن تملأ الدنيا ناراً والقلوب رعباً وتذهب بذلك سعادتها وسعادة غيرها ويضطرها هذا وذاك الى ضروب السياسة التى تسمعها من الغدر وعدم الوفاء والتلون بألوان الحرباء ، غير مباليين بظهور فضائحهم وكذب نصائحهم ، وكأنهم فسدت انسانياتهم وبقيت حيوانيتهم ، فما نتيجة سياستهم إلا شقاء حاضر ودمار منتظر

وانما الأمم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
تلك السياسة التى تمت الاخلاق وتحى النفاق وتذهب بالنعيم وتأتى بالعذاب الا ليمحقا ليس يعرفها الدين ولا يدير دفتها رجال المؤمنين

فسياسة السياسيين من أبناء الدنيا انما تدور على خدمة الشهوات والسعي وراء مطالبها على أى وجه وبأى وسيلة والغاية لديهم تبرر الاعمال (وان أغضبت الخالق وضح منها المخلوق)

وسياسة الدين تدور على مقاومة الشهوات ومصادمة الهوى فى كل ما ياباه العقل ولا ترضاه الفطرة فهي سياسة حكمية الهية ، وتلك

سياسة شهوية شيطانية ، فالدين لا يعرف الا السياسة التي تنتج الالفة والمحبة وتقدم العمران وتوجب الهناء الحقيقي والفوز السرمدى

يأمرك الدين باحترام ذوى المكانة من الناس والشفقة على غيرهم وأن تكظم غيظك وتعفو عمن ظلمك من غير أن تكن الحقد فى صدرك وتظهر خلاف ما تبطن

نعم يأمرك عند مقاومة عدوك أن تكون شجاعاً ، مقداماً ، بعيد النظر ، واسع السياسة ، متين التدبير ، معداً له كل ما تستطيع من قوة مبيحاً لك أن تخدعه بكل ما يمكنك وقد قال (الحرب خدعة) وليس ذلك قادحاً فى الفضيلة ولا طاعناً فى مكارم الاخلاق بل هو من أكبر الفضائل وأشرفها وهو الحزم والحكمة ، ولا تبعة عليك بعد أن آذنته بالحرب وانك ستفعل معه كل ما تصل اليه قدرتك وتديرك

جاء الدين بالمداراة وجعلها من أوجب الواجب قال صلى الله عليه وسلم (أمرت بالمداراة كما أمرت بالفرائض) ولكن تداريه لأجل أن تدفع شره وتأمين مكره حيث لا تستطيع أن تقاومه

تداريه مداراة لا تضرب بحق ولا توقع فى باطل ، غير مبالغ مبالغة المنافقين ولا مسترسل استرسال الكذابين ، ولكنك تستعملها استعمال الدواء على قدر ما تحتاج اليه ، تفر بذلك من أن تشير شراً بلا فائدة تترتب عليه فتكون جاهلاً يقترب العيب ، وسفياً يخالف الحكمة حتى اذا خفت أن تعلوا دولة الباطل أمرك الدين أن تجاهر بالحق ولا تخشى فى الله لومة لائم

حظر عليك الدين أن تكذب ولكن أباح لك أن تستعمل التورية مكان الكذب كما قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي سأله وهو يريد فتح مكة وكان لا يعرفه (نحن من ماء) وكان من دأبه صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يغزو جهة وري بغيرها ، وكل ذلك محافظة على فضيلة الصدق وبقاء ملكته في النفوس

جاء الدين بطاعة المرءوسين للرؤساء كما قال تعالى (وأولى الأمر منكم) ومشاورة الرؤساء للمرءوسين (وشاورهم في الأمر) واحترام الطبقة الدنيا للطبقة العليا أنزل الناس منازلهم « كما جاء برحمة الأقوياء للضعفاء فعل كل ذلك كي تتم المحبة بين الجميع وتكون الروابط على أكمل وجوها جاء الدين بالتواضع وضم الكبر حتى جعله شركاً ولا شيء كما تعلم يخرج الصدور مثل الكبرياء

جاء الدين بالتعاون والاتحاد وطالب من كل أحد أن يعمل من الخير ما يعود على عشيرته وأمته فقال (على كل مسلم صدقة ، الأمر بالمعروف صدقة ، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة ، وإعانة الرجل حتى يحمل على دابته صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، فمن لم يستطع فليكف عن الشر فهو له صدقة) وقد قال « يد الله مع الجماعة » وقال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان) يحثنا الدين على خشونة اللبس والمأكل وعدم التغافل في الرفق والنعيم ويأخذ نفوسنا بعض الأخذ عن الدنيا حتى تتم الراحة وتأخذ الروح حظها من علمها ولا تكون من الذين (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)

كي يمكنها أن تلتجئ إليه وتعول في كل أمورها عليه وأن تطفىء
ببرد هذا اليقين ما تأجج من نار ما يصيبها في هذا العالم ولا تتفانى
في لذائذه وشهواته التي تقطع الأرحام وتفكك أواصر المحبة وتقضي
على المصالح العامة وتقتصر النظر على المصالح الخاصة حتى اذا سمعت ممن
أصبح أسير اللذات وعبد الشهوات ما يعجبك فاعلم أنه قوال لأفعال
وأفعال شهوة كاذبة ان لم تكن لغرض سافل، وهبهات أن يقاوم مارسخ
لديه من محبة تلك اللذات وذاك النعيم الذي يسوقه اليه طبعه وتجذبه
اليه ملكته التي رباها في نفسه طوعاً أو كرهاً (شأن الشهوات كلها
اذا تملكك النفوس واستولت على القلوب)

وانظر ان شئت في عشاق الدخان الذي هو أقل اللذات بل
المعتادات كيف يحنون اليه ولا يصبرون عنه فضلاً عن غيره مما هو
أبهى وأشهى

هذا الترف هو الذي جعل الناس كلهم يتقلبون في الشقاء وقلوبهم
تتقد حنقاً على القضاء وتكاد نفوسهم تميز لهفاً على مظاهر النعيم والملك
العظيم حتى الوزراء والملوك ، ولست أدري من ذلك المغبوط الذي
أدرك ذاك النعيم وذلك الملك الجسيم

فنتيجة الترف أن ترى الظواهر في جنة عالية والقلوب في نار
حامية مع تسلط تلك الملكات الرديئة على أربابها حتى تقهرهم على
محبة الذات وترك الواجبات فيصير كل منهم فرداً تقطعت الوصلة
بينه وبين غيره، ان لم يكن عدوه المبين الذي يقطع دونه سبل المنافع

ويسد أمامه وجوه الخير والنجاح (نتيجة طبيعية لمحبة الذات وتربية ملكة الشهوات) فضلاً عما يحدثه الرفه ونعومة العيش من الجبن والنخور وضعف العزيمة والاخلاد الى ما لا ينبغي الا للنساء فلا يستطيع أن يقاوم عدواً مهاجماً اذ لا تساعد نفسه الشحيحة بالحياة ولا جسمه الذى له تلك الواجبات المحترمة والقوانين المقدسة

وليس يغيب عنك ما فعلته العرب فى الحرب الطرابلسية من الافاعيل بفضل شجاعتهم وخشونة عيشهم وتربيتهم البدوية وصيانة بلادهم ممن يفسدها بذلك الترف الذى أفسدنا وقضى على شجاعتنا وكل سعادتنا ولا ندرى الى أى حد يصل بنا بعد أن جعل الوزير يئن والامير يتأوه وصاحب الالوف من الفدادين يتدلل للمرابين ويبيت يفكر فيما عليه من الديون

هذا وأرجوك أن تنظر نظرة بسيطة بعد ما تقدم فيما تأتى به التربية الحديثة من التفريق بين المرء وذويه، ودخوله فى كل ما لا يعنيه وغرس رذيلة القسوة، وامانة المروءة والهمة والشفقة حتى على أخيه وأبيه مع ما كان بيننا فى العهد السابق من التراحم والتآلف والمروءة وحمل بعضنا أثقال بعض وتعاوننا فى كل شدة ومهمة الى غير ذلك مما يرشدك اليه انصافك ان لم يغلبك هواك

فانخلاصة أن التربية على غير مبادئ الدين ترمي بالانسان فى هوة لا يستطيع منها مفراً ولا يجد فيها مستقراً ، فان سئح له من نتوء تلك الهوة ما يضع عليه احدى رجليه زلقت به الاخرى فهوى أبعد

مما كان ، واذا تنسم بعض النسيم الذى يصل اليها أحيانا لم يلبث أن يزول ذلك عنه ، ثم يختنق بهوائها الفاسد ولا يزال كذلك يعانى صنوف العذاب (يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) حتى يذهب الى حيث شاء الله أو يعمد الى الانتحار تخلصاً من ذلك الشقاء كي يصل الى مركز يستقر فيه وما هو بواصل اليه (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً)

لا يجد من نور اليقين ما يتسع به صدره فيهبون عليه أمره وتستقر روحه فى مركزها الذى تحن اليه من عالمها الأعلى فتنزل عليها السكينة وتحفها الطمانينة فتعيش هادية مهدية وراضية مرضية بل أخذته الدنيا فلم تدع منه شيئاً حتى مات أسيراً فى يديها وهو متلف عليها فهو معها (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) وهى معه (كسراب بقية يحسبه الظلمات ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً) فضاع منه نصيب قلبه وبدنه جميعاً وناهيك قول الله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى) وأما تربية الدين فهى التربية التى يعيش بها الانسان هادئاً مطمئناً يتبادل الصفاء والهناء هو وأخوانه المؤمنون قد اتحدت مبادئهم فلم تختلف أهواؤهم ولم تتباين آراؤهم (كحالنا اليوم) فضلاً عما له من السعادة الروحية التى هى أصفى وأرفع من السعادة البدنية

وأما غيره فليس له من تلك اللذة شئ لأنه مشغول عنها منكس القلب نحو العالم الادنى

وليتك تصدق أن المؤمن يجد من لذة الاكل والشرب وهبوب
النسيم وأزهار الرياض ونفحات الطيور ما لا يجده غيره لأن له نصيباً
روحانياً لا يعرفه غير أهله

ولعلك بكلامنا هذا يهيج منك خالص الايمان ويتحرك لديك
صادق الوجدان فتفهم ما يشير اليه قوله تعالى في حق الكفار
(يا كلون كما تأكل الانعام)

وان كنت لا تتذكر تلك اللذة الروحانية التي كانت لك زمن
الصحة وسلامة الفطرة عند ما يهب نسيم الاصيل أو يفوح شذى
الازهار أو يشرق نور الصباح وما كنت تجده اذ ذاك مما يكاد يسرك
بخمرة ذلك الجمال حتى يجعلك مهوياً مستغرق القلب لا على النحو
الذي تعرفه الآن مما يجعلك تتحرك وتفكر، بل مما يلقي عليك سباتاً
لذيذاً يملأ القلب نوراً ويفيض الدمع سروراً

فحرك من نفسك ذلك الشوق فحسى ألا تكون قد بطلت منك
غريزته والا فلا تحكم على غيرك حكماً جائراً (ولا تقف ما ليس لك
به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)

(أحاديث نبوية)

« في مكارم الاخلاق »

قد رأيت هاهنا أن أورد لك جملة من الاحاديث النبوية وشيئاً
مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى تتحقق أنه قد بعث ليتم

مكارم الاخلاق وأنه أرسل رحمة للعالمين وحتى تقتدى به في بعض ما كان عليه فقد قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فعسى أن يتحرك بذلك منك احترام دينك ومحبة نبيك فتنتفع بذلك في الدنيا والآخرة ، وقد سمعت بعض الناس يقول ان من العار والشرار ألا يدرس فن الاخلاق في الازهر ولا يعرفه أهله فأجبتهم أن لنا فيما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم لغنى عن كل شئ وأن أهل الدين يعرفون من أسرار الأخلاق وطبائع النفوس ما لا يعرفه غيرهم ، ولو قدر لسواهم أن يطلعوا على ما جاء في الدين الاسلامي من مكارم الأخلاق وما يغرسه من الكمال في النفوس لا لغرض ولا غاية لم يرموه بما رموه به ، غير أنى معك على أن المسلمين اليوم أبعد الناس عن الاتصاف بها وان جاء دينهم الحنيف آمراً بها حاثاً عليها حتى جعلها الغاية التي لم يرد سواها

وها أنا ذا أجاو عليك من حكم ذلك الدين ما يكون تبصرة وذكري لأولى الألباب فأقول

قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح ومطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه ، ثلاث منجيات ، خشية الله في السر والعلانية والتقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب ، الاقتصاد وحسن السمات والمهدي الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة ، علو الهمة من الايمان ، ان الله يحب الرفق في الأمر كله ، الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والدان لا يموت فكن كما شئت فكما تدين تدان ،

أحب الاعمال الى الله تعالى أدومها وان قل ، اذا أراد الله بعبد
خيرا فقهه في الدين وألممه رشده ، اذا رأيت أمتي تهيب الظالم أن
تقول له انك ظالم فقد تودع منهم ، اذا غضب أحدكم فليسكت ،
استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود ،
استنزلوا الرزق بالصدقة ، أشكر الناس لله أشكرهم للناس ، ان الله
تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ،
انما الصبر عند الصدمة الاولى ، ان أشد الناس ندامة يوم القيامة
رجل باع آخرته بدنيا غيره ، ان من كنوز البر كتمان المصائب ،
الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، والتودد الى الناس نصف العقل
وحسن السؤال نصف العلم ، بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا عن
النساء تعف نساؤكم ، من تنصل اليه فلم يقبل لا يرد علي الحوض
يوم القيامة ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، تعلموا ما شئتم
أن تعلموا فان ينفعكم الله حتى تعملوا بما تعلمون ، حصنوا أموالكم
بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة ، الحياء خير كله ، خير الامور أوسطها ،
الدال على الخير كفاعله ، ان الله يحب اغائة اللهفان ، رحم الله عبداً
قال خيراً فغنى أو سكت فسلم ، الرجل على دين خيله فلينظر أحدكم
من يخالل ، السعيد من وعظ بغيره ، صنائع المعروف تقي مصارع السوء
وصدقة السر تطفى غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر ، الظلم
ظلمات يوم القيامة ، عند الله خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال ،

فلو بني لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر وويل لمن جعله
مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير ، القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى ، الكيس
من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى
على الله الامانى ، ليس الشديد من غلب الناس انما الشديد من غلب
نفسه ، ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف
وينه عن المنكر ، ما أسر عبد سريرة الا ألبسه الله رداءها ان خيراً
فخير وان شراً فشر ، ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال
من اقتصد ، ما زاد الله عبداً بعقة الا عزاً وما تواضع أحد لله الا
رفعه ، مداراة الناس صدقة ، ملاك الدين الورع ، من أرضى الناس
بسخط الله وكاه الله اليهم ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه
الله شرهم ، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، المجاهد من جاهد
نفسه وهواه ، المستشار مؤتمن فاذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى
الله عنه ، لا تنزع الرحمة الا من شقى ، لا خير فى صحبة من لا يرى
لك مثل ما ترى له ، لا يغنى حذر من قدر ، آية المنافق ثلاث اذا
حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان ، أبلغوا حاجة من
لا يستطيع ابلاغها فمن أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغ حاجته ثبت
الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة ، اتقوا دعوة المظلوم وان كان
كافراً فانه ليس بينها وبين الله حجاب ، اجعلوا بينكم وبين الحرام
سترأ من الحلال ومن لم يفعل ذلك كان كالراعي حول الحمى يوشك

أن يقع فيه ، أحب الجهاد الى الله تعالى كلمة حق تقال لأمام جائر ،
إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ، إذا التقى المسلمان فسلم أحدهما على
صاحبه كان أحبهما الى الله أحسنهما بشراً ، إذا خفيت الخطيئة فلا
تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة ، أربع من كن فيه
حرمه الله تعالى على النار وعصمه من الشيطان من ملك نفسه حين
يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب ، أرحموا ترحموا
واغفروا يغفر لكم ، أستمم وليحسن خلقك للناس ، أفضل الأعمال بعد
الايمان بالله التودد للناس ، أفضل الايمان الصبر والسماحة ، أقلوا الدخول
على الأغنياء فإنه أحرى ألا تزددوا نعم الله عليكم ، أكثر خطايا ابن
آدم في لسانه ، أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً فيما
لا يعنيه ، ان الله تعالى أوحى الي ان تواضعوا ولا يبع بعضكم على بعض
ان الله تعالى خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقال له
فقلت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل
من وصاك وأقطع من قطعك قالت بلى رضيت يارب قال فذلك لك ،
ان الله لا يحب الفاحش المتفحش ، ان الله يتلى العبد فيما أعطاه فان رضى
بما قسم الله له بورك له فيه وان لم يرض لم يبارك فيه ولم يزد على ما كتب
له ، ان الله عفوي يحب العفو ، ان الله تعالى يبغض كل عالم بالدنيا جاهل
بالآخرة ، ان الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفاهة ، ان الله تعالى
يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا ، ان الأمير اذا ابتغى الريبة
في الناس أفسدهم ، الدين النصيحة لله ولكتابه ورسوله ولخاصة

المسلمين وعادتهم ، ان الشيطان نالسان كذذب الغنم ياخذ الشاة
القاصية فاذا كم والشعاب وعليكم بالجمعة والعمرة والمسجد ، ان الناس اذا
رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب منه ، ان
أبر البر ان يصل الرجل أهل ودايه بعده ، ان حقا على المؤمنين ان
يتوجع بعضهم لبعض ، كما يألم الجسد اذا تألم عضوه منه ، ان شر الناس
منزلة يوم القيامة من يخاف الناس من شره ، ان لله ما أخذ وله
ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، ان لكل شيء توبة الا صاحب
سوء الخلق فانه لا يتوب من ذنب الا وقع في شر منه ، انكم لا تسعون
الناس باموالكم ولكن يسعون منكم بسط الوجه وحسن الخلق ،
أهل الجور وأعوانهم في النار ، أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة
فان صلحت صلح له سائر أعماله وان فسدت فسدت له سائر أعماله ، الا أدلكم
على أشدكم ؟ أملككم أنفسه عند الغضب ، الا يارب مكرم لنفسه وهو
لها مهين الا يارب مهين لنفسه وهو لها مكرم الا وان الجنة حفت بالمكاره
وان النار حفت بالشهوات الا يارب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا ،
أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فهي نعمة من الله عليه فان
قابلها بالشكر والا كانت حجة من الله عليه ليزداد اثما ويزداد الله عليه بها
سخطا ، أيما راع غش رعيته فهو في النار ، أيما والى شيئا من أمرا متى
فلم ينصح لهم كنصيحته لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة في
النار ، كفى بالمرء علما ان يخشى الله وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بنفسه ،
كف شرك عن الناس فانها صدقة منك على نفسك ، كم من جار متعلق

بجاره يوم القيامة يقول يا رب هذا أغلق بابي دوني فمنع معروفه عني، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت

(ذكر شيء من شمائله صلى الله عليه وسلم)

كان أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، كان أصبر الناس على أذى الناس، كان أبغض الأخلاق إليه الكذب، كان إذا طلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضا عنه حتى يحدث توبة، كان إذا رفع بصره إلى السماء قال يا مصرف القلوب ثبت قلبي على طاعتك، كان إذا مشى لم يلتفت، كان أكثر إيمانه لا ومصرف القلوب (أى لما يعلم من سرعة تقلب القلب وعدم ثباته على حال واحد كما قال ان القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن فكان يغلب عليه هذا المشهد صلى الله عليه وسلم) كان خالقه القرآن (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون) الخ، كان طويل الصمت قليل الضحك، كان أسمع الناس وأطيبهم نفسا، كان يقول للخادم ألك حاجة، كان لا يضحك إلا تبسما، كان لا يواجه أحدا بشيء يكرهه، كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم، كان يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك، كان يكثر الذكر ويقل اللغو ويطول الصلاة ويقصر الخطبة وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين

والعبد حتى يقضي له حاجته ، كان أحلم الناس وأعدل الناس وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ، كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر وأبلغهم في غير تطويل وأحسنهم بشرا لا يهوله شيء من أمور الدنيا ، كان يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف ويصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، كان يمزح ولا يقول إلا حقا ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، كان لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه ، لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ، ولا يهاب ملكا لملكه ، كان لا ينتقم لشيء صنع قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرها إلا أن يكون فيه اثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس عنه ، وما كان يأتيه أحد حرا أو عبدا أو أمة إلا قام معه في حاجته ، كان لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا وكان أراف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ، كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، كان يقول لا يبلغني أحد منكم شيئا أكرهه فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا

سليم الصدر ، كان يسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه
ويقبح القبيح ويوهيه ، كان دائم البشر في جلسائه سهل الخلق لين
الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، كان لا يذم أحداً ولا يتطلب عوراته ،
كان اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير واذا سكت
تكلموا ، كان لا يغضبه شيء ، الى آخر شمائله الرفيعة صلى الله عليه وسلم

(آيات من القرآن العزيز)

هذا ما أردنا أن نسوقه اليك مما كان عليه صلى الله عليه وسلم
من محاسن الشيم (ولا بأس أن نورد لك من القرآن العزيز ما يذكر
بما فيه من الحكم والمواعظ وضروب السياسات وفنون التعليمات والدعوة
الى مكارم الاخلاق حتى تعلم حقا أنه الكتاب الذي من عمل به نجا
ومن تمسك به عصم ولعل كثيرا من شباننا لم يسمع تلك الآيات أولم
يلتفت اليها في عمره وسيعجب كل العجب من غفلة أو غفلة المسلمين عنها
وهي في كتابهم وبين أيديهم فنقول قال الله تعالى (خذ العفو وأمر
بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا
تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في
الارض ان الله لا يحب المفسدين ، أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن
المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك
للناس ولا تمش في الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، وجزاء
سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله ، ولا تجعل يدك مغلولة

الى عتقك ولا تبسطها كل البسط ، ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع
والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه
عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن
سبيل الله ، أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي
هي أحسن ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ،
من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، ومن
تزكى فأنما يزكى نفسه والى الله المصير ، توبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون
لعلكم تفلحون ، أطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم
وأصبروا ان الله مع الصابرين ، لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق
وأنتم تعلمون ، ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقربوا
مال اليتيم الا بالتي هي أحسن ، وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ،
وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واستعينوا بالصبر والصلاة
واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى
والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن
السبيل ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله
عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، ولتكن
منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون ، واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، وأن
هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ،
ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، ولا تتبعوا

خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله
فأنساهم أنفسهم ، واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا
أن الله شديد العقاب ، فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، كونوا
قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ،
وايخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله
وليقلوا قولا سديدا ، يأبى الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، يأبى الذين آمنوا
اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، يأبى الذين
آمَنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ،
يأبى الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، يأبى الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم
ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فلوائك هم الخاسرون ،
يأبى الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه
ولا خلة ولا شفاعة ، يأبى الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم
لا يآلؤنكم خبالا ، يأبى الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم
لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ، يأبى
الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، يأبى
الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا
يغتب بعضكم بعضا ، يأبى الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبى ، فتابوا ،

(أوصاف المتقين)

الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن
الناس الصابرين والصادقين والثقاتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار
وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما ، ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا
فاذا هم مبصرون ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم
ينفقون ، والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما
والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين اذا ذكروا
بآيات ربهم لم ينخروا عليها صما وعميانا ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم
راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ،
لا يخافون لومة لائم ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ،

(أوصاف المنافقين)

يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ،
يحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون
الناس ولا يذكر الله الا قليلا ، ولا ينفقون الا وهم كارهون ،
مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء واذا قيل لهم لا تفسدوا
في الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن
لا يشعرون واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم
خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، وقذف في قلوبهم الرعب

بما أشركوا بالله إلى آخر ما جاء في أوصافهم ويكفيك من السور ما جاء
في تلك السورة (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ومن الآيات قوله تعالى (من
يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)

إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب العزيز مما عرفه العلماء واعترف
له الحكماء ، وبالجملة (فهو للذين آمنوا هدى ، والذين لا يؤمنون في
آذانهم وقر وهو عليهم عمي أولئك ينادون من مكان بعيد)

فقل لنفسك وإخوانك (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد
حدود الله فأولئك هم الظالمون) وقل لمن غلب عليهم الجهل وأحاطت
بهم الشقوة (يا قوم اعملوا على مكاتبكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون
ولتعلمن نبأه بعد حين)

(عجيب أن يعادوه في بلادهم ويدعونا إليه همنا)

أردنا أن نذكر لك هنا هذه المقالة التي نشرت في بعض الصحف
لما لها من العلاقة بهذا الموضوع واليك نصها :

ثارت ثائرة المسلمين من جراء تأليب المسيحيين (نصراء العدل
والإنسانية) ضد انتشار الإسلام طمعا في أن يوقفوا سيره السريع
وتقدمه المدهش على حين أن لا مرسل يبشر به ولا قوة تعضده ولا
مال ينفق عليه بل لا مدافع يرد هجمات أعدائه عنه ولا ناصر ينصره
إمام الصائين عليه

دهش المسلمون لذلك الاجتماع الذي كان بمدينة لنדרه (أكبر مدن العالم علاقة بالمسلمين) عقد ذلك الاجتماع للمفاوضة في الوسائل التي توقف سير الاسلام وتكفل تقدم المسيحية مما يخيل للانسان أنهم أشربوا في قلوبهم حب التوراة والانجيل فاذا نظر في أحوالهم ذهب به العجب كل مذهب حيث يرى أنهم طاردوا رجال الكهنوت ، طاردة العدو اللدود الذي يريد أن يذهب بسعادة البلاد وتقدم أهلها ويقف عقبة كؤودا في طريق كل خير وفلاح ، وكان لهم الحق فيما فعلوه فان رجال الكهنوت طالما قرروا أن العلم عدو الدين ، بل اذا نظرت في التاريخ واطلعت على ما كانت تفعله محكمة التفتيش في كل من يدور بنفسه رأى أو يتحرك في رأسه فكر من مصادرة الاموال وازهاق النفوس بأفطاع الوسائل (الاحراق بالنار) مما لا محل للافاضة فيه علمت أن محاربة رجال هذا شأنهم لمن أوجب الواجبات وأول الضروريات ، وقد أدرك العلم تأثره فقام أبناؤه يطاردون رجال الكنيسة بكل الوسائل مستهزئين بما كان لهم من سخافات وجبالات مبهجين بما وصلوا اليه من التخلص من أغلال الكهنوت الى باحات العلم وحرية الفكر ، حتى تعدوا في ذلك حدود الآداب اذ جاءوا بأحدى بنات باريس وسموها العذراء وذهبوا بها الى الكنيسة وفعلوا هناك ما أرادوا أن يمثلوا به شعورهم نحو الدين وتعانيه المقدسة

رجعوا الى الانجيل فنظروا فيه وما لبثوا أن أهملوا تعاليمه وكانوا أول المجافين له والناقمين عليه رأوه يقول أن الغنى لا يدخل ملكوت

الله وأن دخول الجحيم في ثم الخياط أيسر من دخول الاغنياء في رحمة الله فعلموا أن في ذلك تأخيرهم واضمحلالهم وظهور الامم عليهم فنبذوه وراء ظهورهم ، وعملوا بقول القرآن (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) وبقوله صلى الله عليه وسلم (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)

رأوا الانجيل يقول من اطمك على خدك الايمن فأدر له خدك الأيسر وعلموا أن في ذلك الذل الابدی والشقاء السرمدی فضلا عن مضادته لمقتضى الطباع البشرية فأهملوه ، وعملوا بقول القرآن (من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وبقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

رفع دينهم مقام أبناء الكنيسة عن درجة البشر وقال لهم ما حلتهموه في الارض فهو محلول في السماء وما ربطتموه في الارض فهو مربوط في السماء فرأوا أنه لا معنى لهذه الميزة مع كون الكل من بنى نوع واحد فمالوا الى ما جاء به الاسلام من تعظيم أمر العقل الانسانى وعقد المساواة بين جميع أفراد البشر ومطالبة الجميع بالتفكير والتدبر ،

سوى الاسلام بين الناس جميعا حيث يقول (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) عظم أمر العقل حتى قال (ان الله يقول للعقل ما خلقت خلقا أعز علي منك) وتراه يوجب من لم يستعمل عقله بمثل قوله (أولم يتفكروا) (أولم ينظروا) الى غير ذلك وهو كثير ، لم يرفع من شأن

الرؤساء الدينيين حتي يستبدوا بالرأى وينفردوا بالسلطة بل أمراً كبيرهم وهو (سيدنا محمد) صلى الله عليه وسلم أن يشرك غيره معه اعترافاً بحق العقل واحتراماً للمواهب النوع الانساني فقال (وشاورهم في الأمر) رأوا ذلك الذي جاء به الاسلام أولى بيني الانسان وأبعد عن الاستبداد وتقييد العقول بما يقضى عليها فساروا على نهجه وتركوا نهج الانجيل الذي لا يفهمون له معنى ولا يعقلون له سرا

جاء الانجيل بالزهادة في الدنيا وحبب الى الناس اعتزالها بأبلغ ما يكون وأقصى ما يتصور ودعاهم الى الرهبانية وسكنى الصوامع ، فرأوا أن ذلك قاض على سعادتهم موجب للدمار وخراب الديار في القريب العاجل ، فعدلوا عنه عدول الصحيح عن مكان العدو المهلكة الى ما جاء به الدين الحمدي الذي يقول (لا رهبانية في الاسلام) وقد سرى ذلك الشعور حتى الى قسمهم فأصبحوا يديرون المدارس والمستشفيات ويحررون المجلات ويشاركون الناس في كل ما هم فيه ، ولو شئنا أن نعدد ما خالفوا فيه دينهم ووافقوا فيه الدين الاسلامي علماً بأنه الطريق الى سعادتهم لأتعبنا القارىء وأملنا السامع لكثرة ما جاء في الدين الاسلامي الذي عرفوا أنه دين المدنية والعمران فارتقوا بفضل تعاليمه التي أشرقت عليهم شمسها من سماء الاندلس على يد المسلمين الفاتحين ، فلم يرتفعوا الى أوج العز الذي نراه به اليوم الا عند ما هجروا دينهم وتقرّبوا من ديننا ، كما اننا لم نهبط الى حضيض الذل الا من يوم فارقنا ارشاده العظيم وطريقه القويم فلم نعمل بما ندبنا اليه

وحضنا عليه وأما هم فاجابوا داعي الله وتفكروا وتدبروا فسادوا وأفاحوا
حيث تمسكوا بما حض عليه القرآن في مثل قوله (ان في خلق السموات
والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب) (أولم ينظروا
في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) ففتحوا أبصارهم
للفلكيات والجويات وعلوم النبات والحيوان وغير ذلك، تمسكوا بهذا
الاصل الاسلامي وأهملوا أصلهم المشهور (الدين عدو العلم) وكأننا
تبادلنا واجبات الاعمال الدينية فعملنا بمقتضى المسيحية وعملوا بمقتضى
الاسلام. رأوا القرآن يبالغ في أمر الحيوان ويرفع من شأنه حتى قال
(وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم)
وقص علينا في النمل ما لفت نظر الباحثين هناك الى أمر الحيوانات حتى
أصبحوا ولديهم من العلماء من يقدر شأن القرآن كل التقدير
رأوا القرآن يقول (وأنبتنا فيهما من كل زوج بهيج) فبحثوا عن
ذلك حتى عرفوا ان في كل نبات ذكر وأنثى وأمسوا ولهم الايادي
البيضاء في علم النبات ، رأوا القرآن يقول (وأرسلنا الرياح لواقح)
فبحثوا عن ذلك (منذ عهد قريب) حتى علموا ان الرياح تلقح
أنواع المزروعات خصوصا الاشجار الكبيرة ، نظروا الى ما جاء في
القرآن من مكارم الاخلاق وعلم الاجتماع وأنواع السياسة وشرح أحوال
النفوس فأصبحوا به فلاسفة في كل ذلك، وان علماءهم يشهدون للقرآن
أكبر شهادة لما يكتشفون من أسرار السامية وعلومه الجملة كل يوم مما

عرضنا لذكر شيء منه في بعض مقالاتنا ولعلنا نتعرض له في مقالات
ضافية اذا سنحت الفرصة

فما بالحلم (وقد تركوا دينهم وما سعدوا الا بديننا) يشنون الغارة
الشعواء عليه اليوم ، هل يجازى المحسن بغير الاحسان ، أم يليق طمس
الحقائق الناصعة ممن يزعمون أنهم أكابر بني الانسان؟؟ أليس ذلك شأن
الغاصب المستبد الذي يقتصب المال ثم يتبجح بغناه على صاحبه معيرا
اياه بالفقر والمسكنة ، هل هذا شأن الكريم الذي يأبى أن يقابل الاحسان
بالاساءة ، هل هذا شأن الحر الذي لا يرضى ان يجازى المعروف الا بالمعروف

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجاني

أيها القوم ان العصر عصر علم ونور وحرية واستقلال فلا تطمعوا
في غير مطمع ولا تنزعوا الى شر منزع فالحقائق ليس يطمسها التاريخ
وان طمستموها ، والشموس لا تؤثر فيها الترهات وان موهتموها ،
والثقن في الوسائل المختلفة لا ينفع امام العيان ، والقوة لاسطان لها
على القلوب التي لا تدعن الا للبرهان

(قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم
ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)

(أسباب الشقاء التي يجب البعد عنها)

هي أشياء كثيرة غير انا نعد لك منها أهمها التعرفك به أو نلفت

من نظرك اليه فنقول أهملها الترف الذي أجا ذويه الى اكتساب
المال من غير وجوهه المشروعة واضطروهم الى الدل في تحصيله حتى
يتوصلوا الى ما يريدون من زخرف باطل، ونعيم كاذب . وأما منهم
خلق المروءة والمواساة، لان ذلك من فضل المال ولا فضل عندهم، ومنها
الاسراف وعدم الاقتصاد وهو نتيجة الترف ولكنه قد يكون ناشئ
عن ضعف الرأي وعدم الحكمة في التصرف فيكون بلا ترف ولا فائدة
أصلا ويلتحق بالعبثيات الصرفة، وبودي أن تعني الحكومة بأمرهم
فتشفق عليهم اشفاق الاولياء الرحماء على الأبناء الضعفاء فتضع في أعناقهم
سلاسل الحجر حتى لا يتصرفوا على مقتضى نزعات الاهواء واشارة
الشهوات بلا عقل ولا بصيرة، ولا غرو فهم من السفه بالمكان الأول
وأحسب ان هذا أعظم دواء للأمة تداوى به أدواؤها المالية فكم
من سفه لم يحجر عليه ولم يلتفت اليه حتى كادت تذهب ثروة الأمة
وهناؤها بفضل ذلك السفه وغفلة الحكومة عنه، ومنها عدم تنظيم
الأوقات وصرف الكثير منها في غير ما ينفع، وعلى الانسان أن يعمل
لنفسه نظاما يتبعه ولا يحيد عنه في كل شيء ولا يصدق نفسه في أنها
غنية عن النظام وليست تفعل الا اللائق أو اللازم فانها جاهلة أو خداعة
تهوى الاطلاق وتفر من التقييد وان كان فيه صلاح حالها، والانسان
طويل العمر جدا اذا كان من العاملين، وما أظهر له أنه قصير العمر
وأذهب حياته بلا فائدة الا عدم الزامه نفسه قانونا مخصوصا حتى
ضاعت أوقاته واختلت أعماله، ومنها الا اكتفاء بالعلم في تهذيب النفوس

وعدم تعويدها الفضائل : والعلم قليل الجدوى في ذلك كما علمت، ومنها
عدم غرس الدين في نفوس النشء على ما يجب وعدم تمرينهم على
مجاهدة فيه وتركهم للتعاليم المدرسية أو ترك ولاية الأمور الاهتمام بذلك
وليس هناك شيء يردع النفوس عن القبيح ويأخذ بها عن شهواتها
ويوصل بها إلى كمالها مثل الدين وقد تقدم لك ما يكفيك ومنها عدم
رياضة النفس وأشعارها بالفضائل بالمطالعة في كتب الدين والأخلاق
أنا فانا (فان النفوس تحتاج في حفظ صحتها إلى الرياضة بذلك العلم
كما تحتاج الأبدان إلى الرياضة المعروفة) وعدم تحريك الاحساس الديني
فيها من وقت إلى وقت حتى ضعف في أغلب الناس أو كاد يقضى عليه
بالكلية (والغفلة والنسيان من طبع الإنسان) وإذا استمر القلب على
التوجه إلى وجهة واحدة كاد يجهل ما عداها أو يعلمه علما لا يترتب عليه
أثر (وتعهّد النفوس في رياضتها يجب أن يكون قبل تعهّد الأجسام)
ومنها انكار الروحانيات وقصور النظر على الطبيعيات وهو أساس الشقاء
وسبب البلاء

وقد جاء ذلك من البعد عن علوم الدين وما ورد فيه ومن تقليد
الغربيين الذين لا يعرفون غير علوم الأجسام لأنها وجهتهم (ولكل
وجهة هو موليها)

ولذا أكثرنا لك من الكلام على الروح وأثبتها وخصائصها
حتى ترق عنك تلك الغشاوات وترجع إلى دينك وما جاء فيه
ومن المصائب الكبرى التي تعوقك عن كل خير وتسوقك إلى

كل شر أن تفهم أنك قد وصلت الى كل شيء وأن لا شيء وراء ما علمت

ومنها عدم ملاحظة استعداد النشء فكثيرا ما يكون الولد قوى البنية ميالا للحركة تتعبه الاعمال الفكرية (لأنه لم يخلق لها) ويرتاح للاعمال البدنية ولو اشتغل بها لكان له نتيجة حسنة تعود عليه وعلى الناس فيسعد في نفسه وتسعد به أمته ولكن والده تحمله الألفة أو المحافظة على أن يكون مثله بل الجهل وعدم التبصر أن لا يعلمه ما هو مستعد له من الصنائع والاعمال فتراه يرسله الى الازهر أو المدارس طمعا في الشرف الرفيع والمستقبل الباهر فيقهره على غير ما خلق له فلا يزال يعاني مشاق الحياة الجلوسية ومتاعب الاعمال العقلية حتى يغلبه استعداده أخيرا (وقد فات زمن التعليم) فيشقى شقاء طويلا وتفقد الأمة عضوا من أعضائها كانت تنتفع به لو لم يكن أشل أو مجزما يخاف على جسمها منه ، ولو تبصر الناس ولا حظوا ذلك وهو أصل كبير في التربية وأرسلوا الى التجارة من يصلح لها والى الصناعة من يميل اليها على اختلاف أنواعها والى العلم من خلق له لأتوا للرقى من بابه وللسعادة من أقرب طرقها .

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

(غلطات ينبغي التنبيه لها)

هي أكثر من أن تحصى ونذكر لك منها ما عن لنا في الوقت

ولعله من أهمها أو مما يلحق بأسباب الشقاء وربما دل عليه ما تقدم
بالإلتزام ولكننا لا نكتفى بالدلالة الإلتزامية علما بخطورة الموضوع
واهتماما بكثرة النصيحة للمسلمين فنقول

منها ما يقع بين العلماء قديما وحديثا من كثرة الخلاف وولوعهم
بالجدل والتوسع في القيل والقال اتقيادا لخلق طبيعي في النفوس
وهو حب الترفع والعلو والافتداد بالكمال أو السبق فيه والافتقار من الغلبة
والخذلان فترى الواحد منهم يجادل ويناضل ويفرغ كل ما في وسعه
مستشعرا لذة الانتصار خائفا من عار التأخر في ميدان المنازعة ، وكثيرا
ما يكون ذلك حجابا عن الحقيقة وصارفا للقلب الى نحو ما يقهر الخصم
لا ما يظهر الحق وربما كان الخلاف لفظيا ولكن حجبه عن ذلك
طلب التقدم والتفوق على الأقران وفي بعض المواضع يكون الكلام
في حقيقة تعلو عن الأفهام فيطول النزاع فيها سيرا مع الخيالات
والأوهام وهو شقاء للعلماء والمتعلمين والعلوم جميعا وطالما ترتب عليه
أضرار كثيرة وستسمع أكثر من ذلك في هذا الموضوع مع ذكر أمثلة
له إن شاء الله تعالى .

ومنها اعتقاد ان التربية هي تعليم العلوم التي تدرس في الأزهر أو
في المدارس بدون تربية ملكة الدين القويم والأخلاق الفاضلة التي
هي التربية الحقيقية لا مازعموه

ومنها عدم معرفة الشريعة وأسرارها وتربية ملكتها في القلوب
حتى خالفوها في أعمالهم وأحوالهم فشقوا في الدنيا والآخرة ، وما من إنسان

اتبع هواه ولم يتقيد بأوامر الشريعة التي أنزلها الحكيم العليم الا ضل في سيره وشقى ماديا وأديا وان كان أذى الأذى كيا وأعظم المفكرين وانظر الى أمتنا المصرية ان شئت تجد أسعدها أبلدها وأشقىها أذكاهما وما ذاك الا لكثرة تصرفه على غير ما جاءت به الشريعة الغراء (والذكي كثير القلب ولو الى موجبات شقائه)

ومنها التزام طريقة واحدة في تأليف الكتب وعدم تقريبها بالتسهيل والايضاح على حسب ما يناسب كل جيل وكل زمان حتى سدت طرق العلم الصحيح في وجوه من يريدونه ومن وصل منهم الى شيء فقلما يصل الا الى قشره ، بعيدا عن ابيه وروحه ، فلو أزيلت التشكيكات والخلافات وانمحي التعقيد وحجب الاصطلاحات التي ما أنزل الله بها من سلطان لعرف المسلمون كثيرا من أسرار دينهم ولكانوا الى السعادة القصوى أسرع منهم الى الضلالة اليوم

ومنها عدم التفرقة بين الرقي الحسي والرقي المعنوي واعتقاد أن صاحب الرقي الأول هو صاحب الرقي الثاني ، ومن هنا قلدنا أوربا في كل شيء ، ولو أمعنا النظر لعرفنا اننا فرطنا كل التفريط في تقليدها في الصناعة والتجارة وأسباب الثروة كما أفرطنا كل الافراط في تقليدنا اياها في الاخلاق والعادات على حين أن الواجب عكس ذلك الذي فعلناه فانه لا شعور أرقى من الشعور العربي ولا عاطفة أسمى من العاطفة الشرقية (وخصوصا الاسلامية) التي تتم بها الانسانية الحقيقية

فانظر ان شئت الى اكرام الضيف والغيرة على الحرم وصلة

الأرحام والمروءة والنجدة (لا في نظير مقابل) مما لا يوجد بأتم معانيه
الا في الشرقيين ، وإن شئت فأنفقت الى ما يكون منهم من كثرة
المبرة والصدقات ، وأما أوربا في هذا الباب فقد نزعنا منها الرحمة
والحنان حتى على بناتهم وأخواتهم فضلا عن بقية بني الانسان
خصوصا على الشعوب الاجنبية ، وحوادث التاريخ أكبر
برهان على ذلك فلا تراهم يفكرون في غير سياسة التغالب لا بتلاع
الشعوب الضعيفة بالطرق المختلفة . وسر ذلك انه غلبت عليهم محبة
المصالح الشخصية وانحصر الكمال عندهم في الكمال المادي (وما
تسمعه عنهم مما يخالف ذلك فهو من السياسة أيضا) فإن شئت فقلدهم
جهدك في الحسيات وتباعد عنهم ما استطعت في المعنويات والعادات ،
وهل أتاك نبا الذين يلقون بأنفسهم في البحر كل ليلة قبل طلوع الفجر
طلبا للراحة من الجوع على مرأى ومسمع من القوم هناك بلا رحمة
تعطفهم عليهم (ولو باقراضهم بعض النقود بلا فائدة)

ومنها عدم تنمية الثروة التي هي مناط القوة وأساس السعادة
ووسيلة اصلاح الدين والدنيا باهمالنا طرق المكاسب من التجارات
وتأليف الشركات التي يستفيد منها أغنيائنا الذين لا يدرون كيف
يستعمون الاموال وينتفع بها فقراؤنا الذين لا يعرفون كيف يطارقون
أبواب العمل فكانت النتيجة أن انحطت الامة بفقرائها وأغنيائها ، وناهيك
أن ما تعلم من كثرة أرباب الشهادات الذين يطلبون ان يزوج بهم في سجون
الوظائف الصغيرة التي يكتنفها الذل ويحيط بها الشقاء ومع هذا فلا يجدون

اليها سبيلا، فلو انفتحت الشركات المختلفة كما تفعل الامم الاخرى لفتح من
ابواب الارتزاق وينابيع الثروة ما يصلح حال الامة ويرتقى بها الى
شأن بعيد في مضمار الحياة في امد قريب

ومنها عدم تعليم الصنائع المختلفة التي يتقدم بها العمران وتم بها
القوة، وما أصبحت أوروبا سيدة أم الدنيا الا بالبراعة في الصناعات
وفنون الاختراعات التي صيرت الامم امامها عزلا بلا سلاح، وجدير
بالمسلمين أن يعلموا ان ذلك مما جاء به الدين الحنيف وحث عليه بل
جعل من فروض الكفاية التي يأثم الجميع بتركها وقد نص العلماء على
ان الاشتغال بكل ما يحتاج اليه فرض كفاية فاذا خلا البلد من
حجام مثلا كانوا آثمين جميعا لتركهم ذلك الواجب . فلا بدع ان يكون
المسلمون آثمين اذا لم يكن لديهم من الاسلحة الجديدة وكل ما يحتاجون
اليه في عصرهم هذا من الوسائل المختلفة ما يدفعون به عدوهم ويصلون
به الى سعادتهم، ألا وأن الدين يؤثمهم باحتياجهم الى الابرة فضلا عما
يتوقف عليه حفظ دينهم واصلاح دنياهم، فليعلموا ان ذلك من الدين
وان كلما يتوقف عليه الواجب فهو واجب

ومنها تضييع الامة لفضلائها حتى يمتوا ما توقعوا من ذكائهم ونشاطهم
فيحرموا خالص نصائحهم وباهر أعمالهم وآرائهم وينتهي الامر بقتل
عاطفة محبة الامة من نفوسهم ويأسهم من فلاحها، ومنها عدم التحري
في اسناد الوظائف الى أربابها واعطائها لغير مستحقها اعتمادا على
شهادات مدرسية عالية (كما يزعمون) من غير أن يسألوا عن سيرة

الرجل وما يملك نفسه من الاميال والعواطف وما يترفع به عن ارتكاب
الدنيا من كريم الاحساس ويسوقه الى طالب معالى الامور من
شريف الوجدان .

و يودى ان يمتحنوه من حيث لا يشعر فى تلك العواطف التى ترتبط
برقى الأمة وسعادتها أشد الارتباط كما يمتحنونه فى تلك العلوم المدرسية
ومنها ضعف احترام الرؤساء السياسيين والدينيين على ما كان
يجب ، وشدة الولوع بكثرة الخلاف والنزاع (وكل ما زاد عن حده التحق
بضده) مما فرق الآراء وباين بين الأهواء فلم تتحد كلمتهم على الحقيقة
وان اتحدت فى ظاهر الأمر ، فذهبت وحدتهم وبذهب وحدتهم تذهب
قوتهم لا محاله ، وليس كل فرد أهلا للرأى بل من الواجب كما يقول
بعض الحكماء تقليد فريق من الناس لغيرهم ، ولأن يجتمعوا على ضعف
من الرأى خير من أن يتفرقوا على صواب فيه ، وان اجلال صغار
المسلمين لأكابرهم فيما مضى هو الذى كان يمسك بنفوسهم وقت
الشدة فيجعلها كالحلقات التى تكون سلسلة واحدة تجاذبت أجزاؤها
وتكهربت حلقاتها فبأقل حركة تكون فى بعض أطرافها يتحرك الجميع
حركة واحدة لا تتميز ابعاضها فى أسرع ما يكون وعلى أتم ما يتصور .
ومنها الاقبال على العلوم النظرية أزيد مما يجب لها دون العملية
التي هى أهم بكثير لامتنا المصرية

ومنها ان فريقا منا اذا وجد من له نبوغ فى فن من الفنون وأصبح
معجبا به قلده فى كل شئ وكأنه يسرى الى وهمه ان ذلك العظيم

لا يفهم الا حق، ولا يقول الا صواباً ومن هذا قلد كثير منا عظماء علماء
أوربا اعتماداً على ما لهم من حسن الصيت ورفعة المنزلة عند الناس في كل
شيء حتى في الاديان والنبوات مع كونهم من علماء الطبيعة أو غيرها من
الحسيات، ولو تبصر أولئك المقلدون من أبنائنا اعرفوا ان العقل ليس له الا
وجهة واحدة متى توجه لشيء أتقنه كل الاتقان ولكنه لا يكاد يعرف
موضع الحق فيما سواه وان كان من أظهر الاشياء عند ذويہ، فليس من
الرأى أن تسأل الخليل بن أحمد وهو واضع علم العروض وصاحب أوزان
الشعر عن موازين الحرارة أو ثقل الهواء ولا ان تسأل سيديو به وهو أعرف
الناس بما اعتل من الافعال النحوية وما صح منها عن عالم الاجسام وصحتها
ومنها ما يقع للناس من الاشتباه في الأخلاق الفاضلة لعدم وقوفهم
على حقائقها وعسر معرفة الاوساط التي هي الفضائل، أو لعدم صبرهم
عليها فيميلون تارة الى الافراط وتارة الى التفريط، ثم منهم بعد ذلك
من يقرب من نقطة الوسط ومنهم من يكون في نهاية البعد عنها فتكون
رذيلته من أقبح الرذائل لما فيها من مزيد التفريط أو شدة الافراط،
فمن ذلك ما نجده في بعض الناس من البخل وهو يعتقد أنه من المقتصدين
فيرى ذلك حزمًا وحكمة غافلاً عن كون الاقتصاد هو الوقوف عند
نقطة الوسط بين التقدير والتبذير وهو الكرم بعينه، فليس معنى الاقتصاد
أن تكون ممسكاً للمال حريصاً عليه، بل معناه ألا تصرف المال في غير
ما ينبغي صرفه فيه حتى تكون مبذراً ولا تمتنع من بذله فيما يجب مما
تقتضيه المروءة وتحث عليه الشريعة من اكرام الضيف وهو اساة الجيران

ومعونة الاخوان مما يفضل عن حاجتك، وليس معنى الاقتصاد ان تمت
مروءتك ولا تؤدى ما طلب منك فان هذا العمرك هو البخل بعينه
ولكن نفسك مغالطة لك أو شهوتك حكمة عليك

ومن ذاك ما عمت به البلوى من اماتة خلق الحياء من نفوس
النشء وغرس الاخلاق الرديئة فيها من الوقاحة والبذاءة والخروج
عن الآداب الشرعية والعرفية وضعف الاحساس بها، وكثيرا
ما تسمعهم يقولون يجب ان نربيهم على الحرية والشجاعة والصراحة
لاعلى الخمول والضعف والجبن (كلمة حق أريد بها باطل) فقضوا بذلك
على أشرف الخصال وأكرم الأخلاق الذى هو زمام النفوس عن
ارتكاب كل ما يشينها حتى اذا ذهب منها لم تتخرج عن منكر ولم
تبال بقبیح فيصير صاحبها ممقوتا عند الناس يحذرونه حذرهم للأفاعى
ويكرهونه كراهم للأوبئة القتالة

فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

اذا ما المرء كان بلا حياء تقلب فى القبيح كما يشاء

نعم نربيهم على الشجاعة بحيث لا ترعجهم الاوهام ولا تخيفهم
الخيالات ولا يجبنون عن طلب ما لهم من الحقوق ولا تضطرب أعصابهم
عند مقابلة الكبراء ومخاطبة الامراء لا بان يخرجوا عن الآداب فى
حركاتهم وأفعالهم وأقوالهم حتى مع آبائهم كما رأينا، ومعلوم أن
النفوس أميل الى الرذائل وأنها تكره التقيد حتى بالآداب والشرائع

فلا بد من الضغط عليها حتى لا تسترسل مع متبهواه استرسال الحيوان
غير المروض ، وخصوصا النشء الذين لا تقوى عقولهم على نفوسهم ، والا
فقد أفسدت ذوقهم وأمت احساس الآداب من نفوسهم فكنت مسئولا
لدى الله والناس ولعلك تلاقى من ضرر ما صنعت مع بنيك بعد
ما يجعلك تندم ندامة الكسعى لما رأت عيناه ما صنعت يداه

ومن ذلك اشتباه العزة بالكبر وليست العزة الا ان تترفع عن
الدنيا ولا تذلل لاحد من أجل شهواتك وأغراضك لا ان تترفع على
الناس تبها وعجبا وتدع الآداب والواجبات وحسن المعاملة مع الناس ، وقد
رأينا من يقابل الناس بالانفة والكبرياء وينقبض في وجوههم انقباض
البخيل في وجه قاصده ، و ينظر اليهم نظر السيد الذي برئت منه الرقة
وأحاطت به الغلظة الى عبده الضعيف ، وكأنه بتلك الوظيفة أو الرتبة الوهمية
أصبح من أفراد نوع آخر ، ولكنه أمام الرؤساء والكبراء ينزل من
سواء هذا الترفع الى أرض التملق وحضيض النفاق مما دل على ان طبعه
من الأم الطباع ونفسه من أصغر النفوس ، وأما صاحب العزة فينما
تراه يلاطف الصغير ويجالس الفقير ، قد امتلأ رحمة وعطفا ، وحنانا ولطفا
اذ تراه كبيرا في مجالس الكبراء ، وعظيما في محافل العظماء ، يديه على
الوزير ، ويصدع بالحق بين يدي الأمير ، لا يكتر من الزيارات ، ولا
يخضع للإشارات ، ولا يذل للغايات ، فاياك أن ترميه بالكبر الذي هو
أبغض الأخلاق عند الله فانه صاحب العزة التي هي من أشرف المزايا
وأعظم مكارم الأخلاق ، ولهذا جعلها الله من أوصاف المؤمنين فقال

(والله العزة ورسوله والامؤمنين) مع كونه يقول (انه لا يحب المستكبرين) الى غير ذلك من الأخلاق التي تشبه فضائلها برذائلها لدى كثير من الناس قابوا الحقائق وسموا الاشياء بغير أسمائها وهو كثير جدا في عصرنا هذا

تشكل فينا كل شيء بشكل ما يباينه والناس عنه نيام

(كلمة عن العلماء)

ندكر لك هنا ما وعدناك به فيما سبق فلعلك متشوق اليه فنقول أن الانسان يحب أن يعلم كل شيء وتأنى نفسه من الجهل بأى شيء وتأنى أن تتصف به متى استطاعت الى ذلك سبيلاً فان لم يساعدها العقل على ذلك وقوفاً عند حده وتخرجاً عن أن يتقفوا ما ليس له به علم حركت منها تلك الشهوة الغريزية الإوهام وهيجت الخيالات حتى تروى غلبتها مما يرجع به الوهم من الماء الآسن ويأتى به الخيال من الملح الاجاج حيث لم تجد العذب الفرات

فلهذا تجد العلماء ينخوضون فى كل شيء ولعله مما لا تصل اليه العقول فيكثرون فيه القول أخذاً ورداً واستحساناً وتقديراً وكلما أوغلوا بوادى الخلاف فى البحث عن الحقيقة أسرعوا فى السير عنها (لا اليها) فمن ذلك ما أطالوا به من أن الصفة عين أو غير وأن ماوردهن اثبات اليد والوجه ونحوهما له تعالى يجب تأويله وارجاعه للقدرة

والذات أو يجب أن نعتقد أن لله يداً لا كالأيدي وهي غير القدرة
ووجهاً لا كالوجوه وهو غير الذات وما يذكرونه من التأويل عند
الخلف والتفويض عند السلف في مثل ذلك، وأيت شعري هل عرفوا
كنه الذات حتى يعرفوا كنه الصفات وهل تعرف الصفات أو يحكم
عليها بدون أن تعرف الذات التي وجبت تلك الصفات لها بها اقتضاء
ذاتها وهل إذا أولوا اليد بالقدرة عرفونا أياها وأوصلونا إليها

كلا بل لا يمكننا أن نعرف كنه صفاته تعالى أصلاً فإن القدرة
التي يقع في نفسك أنك تعرفها والارادة التي يخيّل لك أنك عالم بها
انما هي القدرة الحادثة والارادة الحادثة فان ظننت أنه يريد على نحو
ما تريد أو يسمع على نحو ما تسمع أو يبصر على نحو ما تبصر فقد
جهلت أو كفرت

فاذاً لا فرق بين أن تؤول اليد مثلاً أو لا تؤولها، بل يمكنك أن
تقول أن كل ما ورد من الصفات فهو من المتشابه عندنا بحيث لا يمكننا
الوصول الى كنه معناه وانما نعرف ما هو من لوازمه وخصائصه لا غير
ولا يصح أن نقيسه على ما نعلمه من نفسنا فانه قياس مع الفارق

وبالجملة فلا يمكننا أن نعرف ماهي الصفات ولا كيف يتصف بها
بل ولا ماهي حقيقة الافعال ولا كيف يفعلها مادامت الذات التي هي
مصدر الصفات التي هي مصدر الافعال مجهولة لنا، وأنها لا لو هيّة تحت
حجاب العزة ذاتاً وصفة وفعلاً تجل عن أن تشبه شيئاً أو تقاس على
شيء أو تصل عقول مخلوقاتنا إليها بوجه من الوجوه، فرتبهم الآثار

لا تتخطاها عقولهم ولا تتجاوزها أفهامهم الا الى الحيرة في عظمة
مبدعها وجلال خالقها لا أن يعرفوه أو يصفوه (سبحان ربك رب
العرزة عما يصفون) وستأتى لهذا الموضوع تمة بعد ان شاء الله تعالى
ومن ذلك ما ملأوا به الدفاتر وأنفدوا فيه المحابر من الخلاف
في رؤيته تعالى ما بين مانع يرى انها تستلزم الحيز واللون والمقدار وغير
ذلك من صفات الاجسام، ومجيز يرى أن الله على كل شيء قدير
فيعارضه الآخر بان الرؤية على غير ذلك الوجه من المحال وقدرة الله
لا تتعلق بالمحال الى آخر ما قيل ويقال

ولو دققوا النظر لعلموا أننا لا نعرف غير أحكام هذا العالم الجثمانى
وأما ما فوقه من العوالم فله أحكام أخرى لا نعرفها ما لم نصل اليه
(ومن الجهل الفاحش ان نحكم على عالم باحكام عالم آخر) ولكن
يمكننا أن تقرب الامر الى العقول فنذكرها بما سبق لنا من أن الروح
تحت نواميس أخرى غير تلك النواميس الطبيعية فلها أحكام أخرى
غير تلك الاحكام الجثمانية وأنها ليست خاضعة لسلطان النواميس
الطبيعية فهي تؤثر فى الاشياء بلا مماسة ولا مجاورة وترى الاشياء بلا
شرط من الشروط فهي ترى ما يكون أمامها كما ترى ما يكون وراءها
وما يكون قريبا كما يكون بعيدا ويمكنها ان تتراءى المعانى كما تتراءى
الأجسام لما بينها وبين المعانى من المناسبة فى اللطافة فليست المعانى
أرق منها ولا عالمها فوق عالمها

فاذا يمكننا أن نقول أن سلطان الروح فى الدار الأخرى فوق

سلطان الجسم (عكس الدنيا) فتظهر مقتضياته هناك وتخفى مقتضيات
الاجسام وتكون الأحكام السائدة هناك هي أحكام الارواح
لا الاشباح

واذا كنت قد علمت أنها في رؤيتها وجميع أفعالها على غير
قوانين الاجسام علمت ان هذه الشروط وتلك التقييدات التي تعرفها
انما هي للأجسام فلا يمكن حقيقة أن تقع الرؤية في عالم الاجسام بدونها
واما الحكم على الروح بها فهو حكم فاسد وقياس كاسد ، وأظن أن المقام
قد أحاط به من الضياء ما تزول به ظلمة الخفاء غير أني خائف من
بعض الناظرين أن يكون ممن يحرفون الحكم عن موضعه فيتمسك بما
عسى أن يكون من كلمة خفية ويدع كلمات واضحة ثم يرميني بغير
ما قصدت وينسب لي اغير ما أردت وربما لم يحيط به خبرا فلم يستطع
عليه صبرا ولم يعرف له قدرا

على انه لو كان من ذوى العلم الواسع والنظر الشاسع وغلب عليه
الانصاف وجانبه التعصب والاعتساف لوجدلى من علو المقام عذرا فلم
يوسعني نكرا ولفرح بما ذللناه له من بدائع الاسرار وأنزلناه اليه من
روائع الأنوار

(بيان السبب في أن الدين لا يؤبه له ولا يرتفع صوته)

ما ذا على أن لا أكتمك ما في نفسي وان كنت أعلم أنه سيحول
بين كثير من الناس وبين ما أقول صبغة نفسه التي انحطت به من كل

جهاته ولكني سأحييك على ما تعلم وما على بعد
وأني ومحبتى للحق وشفتى على أبناء المسلمين لست ممن يتحيز
للعلماء أو يقدسهم في كل ما يأتون ويذرون ولكن ليس من العدل أن
تنسى ما لهم أعظم ما عليهم

وأياك أن تفهم أنى ممن ينقم على تعلم العلوم الحديثة والصنائع الجميلة
والمخترعات الجديدة مما يقدم العمران ويزيد المسلمين ثروة وقوة ويؤثرونهم
من خوف ويرفعهم من ضعة

واسكنى أريد أن يكون تعليم أبناء المسلمين على نحو ما أرسمه لك
في الكلام على العلم والتعليم بعد وهالك ما أريد أن أوجه نظرك إليه الآن
تعلم أن النفوس تنفر بطبعها من كل ما يصادمها في أميالها فهي
لا تريد أن تجعل هواها تابعا للحق بل أن يكون الحق تابعا لهواها
(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) ولا
تستعد لقبول الحق الصراح حتى تطهر من كل ما علق بها وتتخلص
من سلاسل الشهوات التي تجذبها نحو مطالبها شاءت أم أبت وحتى
تكون مذعنة لأحكام العقل الصرفة طالبة وجهة الصواب غير سالكة
سبيل العناد ودون ذلك ما لاقى الأنبياء وعانى الحكماء

وان رأيت من خلا من الأهواء وتطهر من أدناس التعصب والعناد
فلا تجده في الغالب إلا خيالاً تعلو الحقائق عن متناول ادراكه فهو
إلى الخيالات الروائية أميل منه إلى الحقائق البرهانية لأنها أقرب إلى
استعداده وألذ في وجدانه خصوصا من لم يعود نفسه البحث والتنقيب

ولم يغرس فيها ملكة الصبر على السكد في تمحيص الحق ودحض
الباطل ، فهو انما يطالع الكتب تفكها وتلذذا لا طلباً للحق (الذى
يشتاق اليه ويؤمله ضميره من أجله وتطيل معه نفسه الحديث فيه)
وان غالب المصريين من هذا القبيل ويعجبنى قول بعضهم ان الجدد
لا تهضمه معدة أكثر المصريين

وهذا ما قعد بكثير من الفضلاء عن تدوين معلوماتهم وبث
معارفهم مبهوتين بما يرونه من صولة المبطلين ودولة الجاهلين مغمضين
العين على القذى والحلق على الشجى عالين أن هذا دور من الادوار التي
تعتري الأمم وان أمتنا فى أثناء تلك الحركة القسرية لم تستقر بعد
فالتيار لا يقاوم والعواصف شديدة لا تصادم ، موقنين أنهم لو
أبرزوا للناس كتابا ينطق بالحق لكان عليهم طامة كبرى وداهية
عظمى ، وظهر بين تلك الأمة بأشع المظاهر وأقبح المناظر والأمر
فوضي والدين عدل به عن سننه وتحكمت فيه الآراء ولعبت به الالهواء
وقامت قائمة الشهوات التي لا ينازعها شيء الا حطمتها ، وكان من قدر
الله أن قوى برهانها وعز سلطانها بما أتيح لها من الحرية غير المشروعة
والتربية الجديدة التي ليس أساسها الدين ولا رائدها التبصر ، ولا
وجهتها غير مطالب الاجسام ، وليس هناك مرجع يعترف له الجميع ،
ولا حظر فى قول على قائل ، ولا أحد يحس بالجهل الذى هو فيه ،
ولا غاية للخيال الذى يستمد منه

فاذا قام من يصيح بالناس (أن تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم)

هب في وجهه زعانف القوم وأراذلهم يحقرون من أمره ويخفضون من قدره يصدون عن سبيل الله (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)
(شأن المصري الذي لا يعمل ولا يشجع عاملا)

فإن قابلهم بما يستمد من بحر الحقائق قابلوه بما يستمدون من بحر
الأوهام والخيالات، ولا غاية لهذا ولا ذاك (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء
من عطاء ربك) وأمتنا الآن (إلا الذين أخلصوا دينهم لله وقليل
ما هم) على ما يعتقد أولئك الزعانف بفضل تلك التربية الجديدة التي لم
تدع رذيلة من رذائل الغربيين ولم تستبق فضيلة من فضائل الشرقيين
وربما رماه أولئك النفر بأنه أول الضالين وأكبر المبطلين

يارب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال المسلمين دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا
ومما يجعل المسلم يعرض على يديه أسفا ويكاد يمتزغظ أن الجانب
يعملون على تنصير المسلمين بالوسائل المختلفة من المدارس والمستشفيات
وارسال المبشرين إلى كل أنحاء المعمورة

وأما نحن فبدلاً من أن تقوم بالواجب علينا أزاء ذلك حمية دينية
أو غيرة وطنية فانا نعمل على اقتلاع أصول الدين من النفوس وغرس
جذور الاتحاد في القلوب

وترى أولئك النفر إذا سمعوا أن امرأة تنبأت بأوروبا لم ينبسوا
بينت شفة ولم ينبض فيهم عرق لتكذيب ماسمعوا، بل يتساءلون عن
أخبارها العجيبة (وأنباؤها الصادقة) !!

ولو سمعوا أن بعض المسلمين قد وصل الى درجة الكشف
وظهرت فيه خاصة من خصائص روحه التي شرحناها فيما سبق وأثبتها
ابن خلدون في مقدمته (حتى للكهنه من الكفار) قامت قيامة ألعادهم
وهدرت شقشقة علومهم وعنادهم

فلهذا سكت أهل الحق فلم يسمع لهم صوت ولم يظهر لهم اسم فيما
بين الكاتبين والمتقدمين صيانة لأعمالهم من العبث ونفوسهم مما عسى
أن يحقق بهم ، منتظرين للدين فرجا قريبا ونصرا مؤزرا وأن يثوب
الى الأمة رشدها ومحبتها لدينها وثقتها التي كانت لها بعلمائها الكاملين
وان كانوا قليلين حتى تحترمهم احترام الطبيب في طبه والحقوقى في
قانونه (وما ذلك على الله بعزيز)

وفي الناس فريق آخر قد جمدوا على ما ورثوه وليس يمكن تقويم
اعوجاجهم واذابة جمودهم الا بتحليل كيماوى عظيم يتناصر فيه العالم
والحاكم ، وأنا لنا باقتلاع تلك الجذور التي نفذت الى اعماق النفوس منذ
آماد طويلة تسقيها الأوهام وتنميها الأهواء ويدافع عنها العامة ، وكثير
ممن تزيا بزى الخاصة ، لا شك أن الامر يكون أبعد منالا من الثريا
وأصعب من اقتلاع شم الجبال ،

ومن البلية زجر من لا يرعوى عن غيه وخطاب من لا يفهم
ولا تظن أنى أريد ان لا أخطئ العلماء فيما فعلوه ولا أوجب
عليهم واجبات كان ينبغي أن يتعاونوا عليها ويتحدوا جميعا فى الوصول
اليها ولكن أريد أن أشرح أمرهم حتى تعرف سرهم وجهرهم ،

وسيمر بك مقال مفرد في العالم وما يجب أن يكون عليه من الواجبات
وما ينبغي أن يتصف به من الكمالات .

(بيان الواجب في هذا الموضوع)

﴿ على الأمة عموما وعلى مشيخة الازهر خصوصا ﴾

ما أجدر مشيخة الازهر وأرققها بالمسلمين وأهداها الى موضع
الضعف منهم لو عنيت بهذا الموضوع (وهو أول ما يعنى به) وما أرشد
الحكومة وأعناها بحاجة الأمة لو ذلت العقبات في ذلك السبيل
فاختارت من أفاضل العلماء من يكون أوسعهم نظرا وأقواهم حجة
وأعرفهم بحال معاصريهم حتى يشخصوا الداء ويصفوا الدواء ، ثم تخصصهم
بأمر الدين وبيان ما يرمى اليه من روح السعادة ومكارم الاخلاق
وتحبيب أبنائه فيه والخوض بهم في كل ما يقع فيه الاشتباه أو تذكره
الجرائد أو المجلات عن أعداء الدين أو جهلة المسلمين ، ويكون من
أعمال أولئك المختارين اصدار مجلة علمية دينية تأخذ الناس الى سعادتهم
من حيث يعرفون لا من حيث يجهلون ، ومن حيث يأنسون لا من
حيث ينفرون ، مع ايداع ذلك من روح العلم وسر الدين ولب الحق
ما يأتي على أصول أمراضهم ويذهب بأسباب الشقاء من نفوسهم ، شأن
الطبيب الحاذق الذي لا تنسيه شدة المرض ولا شغفه بمقاومته أن
يلاطف المريض ، ولا تمنعه ملاطفة المريض أن يضع له الادوية الحادة
الفعالة فيما يستطيه ولا يستبشعه ، ويسير به في سبيل نجاته من حيث

يشعروا ولا يشعروا ، فتكون تلك اللجنة هي مرجع الامة في كل شأن من شئون دينهم ، اليها القول الفصل ، ولديها الحكم العدل ، بالادلة المقنعة والبراهين القاطعة ، حتى تجيز بذلك على تلك القوضى الدينية التي هي أضر الاشياء وأس كل بلاء.

هذا وعلى الامة أن تعرف لذلك مكانه من الرشد والحكمة ومنزلته من حاجتها اليه واستفادتها منه

ان الامة كثيراً ما نراها تسخو انفوسها بالمبالغ الطائلة وتقف الاوقاف الجملة على ما لا قيمة له في نظر العقلاء ، وليس له من الفائدة التي يعتد بها الا ما يمليه عليها الجليل أو يحركه الغرض من وهم كاذب وخيال باطل ، فلو عنيت بأمر دينها عنايتها ببعض تلك الشئون فاختارت من فضلائها من تثق بهم فخصتهم بما يرفع شأنها ويعز به دينها ، فيظهر ما فيه من الحكمة والاسرار ، وما انطوى عليه من الفضائل ومكارم الاخلاق مما يورثهم حياة جديدة يعود اليهم فيها مجدهم الاول ، ويزوقون فيها معنى الاخلاص في العمل ، ويتمتعون فيها بمحلاوة الصدق والمحبة والاتحاد ، ويذهب عنهم هذا التفرق الذي أوهن عزائمهم وفكك روابطهم ، فترجع اليهم تلك القلوب التي لا تخاف غير الله ، ولا تخشى غير الله فيسرى فيها روح التوحيد الذي لا يبقى معه شيء من ضعة الهمة وسفاسف الاخلاق ، وقد قال تعالى في حق غير الموحدين (سألني في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله)

ومن ذلك تعرف ما يكون في قلب الموحد من الشجاعة والثبات واليقين ، لو أرشدت الامة الى ذلك وعسى أن يكون قد حان وقت رشدها لوجدت من علمائها وفضلائها ما تقر به عينها ويجذبها الى سعادتها من أعماق نفوسها لا من أطراف جسومها ، ولزأت من مزايا دينها ما يقوم به أودها ، ولعرفت من حقائقه الناصعة ما تطمئن اليه وتبتهج به ،

ان الامة كثيراً ما تلقى التبعة على كواهل العلماء وترى أن من من الواجب عليهم أن يفعلوا ما يفعلاه المبشرون ولو مع أبناء المسلمين وفي بلادهم دون البلاد الاجنبية ، ويرون أن ذلك أول واجب عليهم ولو أنصفوهم لعرفوا أن عليهم من المسؤولية ما لا يقل عن مسؤولية العلماء ، عليهم ان يشجعوهم فيما يراد منهم ويزيل ما ينغص عليهم عيشهم ويفرق عليهم قلوبهم ، حتى اذا لم تقم الحكومة (ولها العذر) بما كان يجب عليها من تأليف تلك اللجنة قامت الامة وهي أعلم بأمراضها وأدرى بمواقع الداء منها ، فاختارت من ترتضيهم لذلك وفصلتهم عن كل علاقة لهم بالحكومة (ولا نجاح لعمل لا يكون أساسه الحرية) فرتبت لهم المرتبات الكافية وطالبتهم بما تريد منهم نحن لا نريد من الامة أن تسمح بما تسمح به أوروبا وأمريكا لمبشرها ولا معشار عشير ذلك ، وانما نريد من الامة أن تقوم لذلك العدد القليل الذي تختاره بما يكفل له حاجته ويحفظ عليه مروءته ويستعين به على ما شاء من ترجمة المجلات العلمية والفلسفة الجديدة

والآراء الأوروبية ، وبالجملة كل ما يقرره العالمون بالدين الاسلامي الذين يشهدون له أو الجاهلون به الذين يطعنون عليه ، وأما تكليفهم بعمل المبشرين وارشاد المسلمين وليس من بين وظائفهم التي استغرقت أوقاتهم وأخذت قلوبهم (وظيفة هداية وارشاد) وهي الوظيفة التي يجب الدأب عليها صباح مساء لما نراه يتجدد كل يوم وما نشاهده من عظم البلاء واعتضال الداء ، ولا يكفي فيها الالتفات الوقتي ولا التفرغ العرضي ، مع عدم تكليف الامة السمحة بشيء زهيد من مالها ونذر يسير من ثروتها ، فهو من الاعتساف وقلة الانصاف أو ضيق النظر وسوء الفهم ، واني أعتقد ان كل ما يحاوله الكتاتيون والمرشدون والمقننون والمصلحون لا يمكن ان يأتي بنتيجة أو يكون له أثر صالح حتى ترجع الامة الى دينها الصحيح وتعاليمه الحقة (والا أخلت بالتنفيذ وان أصابت في أصل التقنين) وكان نصيبها من ذلك كله نصيب من يداوى الظاهر ويترك الباطن أو يتلمظ تلمظ من يأكل الاطعمه الشهية وليس في فمه منها شيء

اذا رجعت الامة الى تعاليم دينها وأصلحت أنفسها بما يغرسه الدين فيها فاضت الاعمال المبرورة والآثار الجميلة من منابع تلك النفوس بلا سائق يسوقها ولا مسيطر يهيمن عليها ، وكان كل فرد منها أمة وحده ، والا فهمما وضعت القواعد وعملت النظمات وقررت من الاصلاحات فلن تجد من يقوم بها على وجهها ، بل تدفعه الاغراض والاهواء الى التوسع في التأويل وسوء التنفيذ ، وكل من يحيطون به

من البيضة التي هو فيها على شاكلته لا تهمهم الا ما ربههم الشخصية
ومطالبهم الذاتية ، وان كانوا يقولون (بألسنتهم ما ليس في قلوبهم)
فيكون ذلك شبحاً لا روح فيه وصورة ليس وراءها معنى ، فما لم
تظهر نفوس الافراد من ملكاتها الخبيثة وصفاتها الخائفة عليها (ولا
طهارة لها الا بالدين القويم ومراقبة الله عز وجل في السر والعلانية)
فلن يفيد عناء الحكماء ولا تقنين الكبراء وكان قولاً باللسان فلم يجاوز
الآذان ، وقد جاهرت لك برأي عسى أن يقع منك موقع استحسان
فيهيج منك الامل ثم تكون من أرباب الهمة فتنبعث للعمل أو يحرك
منك رأياً يكون أنفذ الى كبد الغرض المقصود وأسرع في الوصول الى
الغاية المطلوبة

(تكميل جليل في فوائد متفرقة)

رأينا من الحكمة ومحبة الخير وبذل النصيحة أن نذكر لك
ما تقر به عينك ويتهيج به قلبك ان شاء الله
ثم اذا خيل لك أن في هذا التكميل ما هو مكرر فأقول لك ولا
أطيل معك المناقشة أنه لم يذكر في الموضعين على وجه واحد ولا
أريد أن أكتفى بدلالة ملزوم على لازم ولا لازم على ملزوم فانه
نريد نتيجة مخصوصة ولعلنا بعد هذا كله نصل اليها فيرسخ بعض
ذلك في قلوب شباننا الذين أعضل منهم الداء وعز فيهم الدواء
ومن لنا بمن يبرز النصيحة الى أبناء أمته وأهل دينه في صور

مختلفة ليترتب عليها المقصود منها فربما وافقت كل صورة من تلك
الصور استعداداً من تلك الاستعدادات أو وجد فيها من المحاسن
والزيادات ما ليس في غيرها على حسب ما اقتضاه التصريف الالهي
وقت ابرازها، وما على إلا أن أخلص فيما أعمل على قدر ما أستطيع
وعلى حسب ما اعتقد (وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما
نوى) فدع عنك كثرة الجدل والقييل والقال وابتهج بما يسر الله
لك ولا تعقني عما أريد أن أسوق اليك من الخير فاني سأطرفك بما
تحب فأقول

يجب أخذ النفس بالخدع والحيلة والمغالطة حتى تصل الى الكمال
المراد منها فانها سريعة الانخداع والركون الى الوهم ويمكن للعاقل
أن يتخذ من ذلك وسيلة الى سعادته وتوليد الاحساسات الارتياحية
عنده والسير بها في طريق المقصود من غير أن تتألم

النفس من شأنها التلون والتليس على صاحبها لمكان الهوى
والشهوة التي تعمى البصيرة، وسر ذلك أن القلب ليس له الا وجهة
واحدة متى توجه اليها انصرف عن غيرها وان كان من أوضح
الواضحات وأول البدييات فاذا اقتاده الهوى لم يمكنه أن يوجه
بصره الى غير ناحية الامر المحبوب

شدة القرب حجاب كما أن شدة البعد حجاب والعين لا ترى
نفسها ومن هنا جهل الناس نفوسهم فلم يعرفوا دخالها

النفس تأبى الا قضاء شهواتها ولو فسدت السموات والارض

ومن فيهن ، أكثر ما يؤتى الناس من قبل ضعفهم أمام شهواتهم
لأن قبل جيلهم بالانقاص والكمال

الحرية الحقيقية أن تحرر نفسك من أسر الشهوات التي
استعبدتك لمن لا يحصى عدداً من الشركاء المتشاكسين ، فالناس
كلهم في الذل من خوف لذل وفي الفقر من خوف الفقر وقد قال
أبو الطيب المتنبي

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
محب المال قلما يرجي منه خير أو يتصف بفضيلة
الكامل يعطي كل وقت حقه وكل حال حكمه وغيره يجب
عليه أن يأخذ بالقواعد العامة ولا يتخطاها
القوة الشهوية والقوة الغضبية أسبق وجوداً من القوة الفكرية
وهو من أسباب ضعفها عن أن تقاومهما

الهوى لا يعرف من عابديه غير الامتثال والتسليم
الآثار التي تترتب على رذائل الاخلاق لا تكاد تنتهي
الفضائل أوساط والرذائل متفاوتة بحسب القرب والبعد من
نقطة الوسط

الانسان اذا رسخ فيه الكمال تعدى منه الى غيره فكان اماماً
مقتدى به تصلح به الامم وتسعد به الشعوب وكان له من الميراث
النبوي على قدر ذلك

الانسان مستعد لبقاء السرمدى مع الفيض الدائم واللذة انصافية
إذا طلب السعادة من وجهها والا فنى فناء النبات والحيوان بل كان
شراً منها

اجعل بدنك خادماً لنفسك واجعلها سيده تدبره تدبير السادات
لعبيدها وإياك أن تنزلها عن مركز سيادتها الرفيع الى حضيض العبودية
فتنغمس في سلك من كانوا أنفسهم يظلمون

السعادة على الحقيقة هي ما لا يلحقها كدر ولا يتقدمها ألم ولا
يعترىها فناء ولا يحيطها خوف وليست الا في السعادة المعنوية

يجب تربية الاحساس بالفضائل والآداب في النشء وانهم مع
مريضهم لا شبه شيء بالنوم تنويماً مغناطيسياً مع منومه وان الانسان قد
يبلغ من التأثير في غيره الى حد ان يجعل المر الزعاف عنده حلوا للذيد
الطعم اذا أمكنه أن يغرس في نفسه اعتقاد ذلك فان شأن الخواص
والابدان مع النفوس ، والاعتقادات من أغرب الشؤون وأعجبها

لا تصلح أن تكون هادياً لقوم الا اذا علوت عن استعداد الكل
حتى تشرف من أفقك الأعلى على تلك المراتب التي مرت بها زمن
سيرك وترقيك ، فتعطى كل أحدا ما يناسبه وترقيه الى أفقه الذى يشاقق
اليه ثم توقفه عنده فان الشوق علامة الاستعداد وفقدته علامة فقده ، ولا
يصلح أن يكون اماماً للناس جميعاً الا من بلغ درجة الرسالة حتى يحيط
بالاستعدادات كلها ويعرف ما يناسبها فيمكنه أن يداويها بما يليق لها

من الدواء وهو الانسان الكامل ، ما أوجب الشقاء الا نظر الناس
الى الناس

الفقر كثرة الحاجة فكل من كان أكثر حاجة كان أشد فقرا
ولو كان ملكا

اجتهد في أن لا تبيح شهوتك خيرا من أن تجتهد في تسكينها
أو تحصيل مطالوبها بعد هيجانها

اجتهادك في الوصول الى درجة الراضين أسرع عليك من تحصيلك
مطالب الطامعين ، السعادة تجل عن أن تكون بهذه الاشياء الخارجية
الفانية المكدره التي تجدها عند أشرار الناس وسفلتهم أكثر من
خيرهم وملكهم

كل انسان يعتقد أن السعادة في نيل مطلبه لا غير على تفرق
أهوائهم وتباين آرائهم والسعادة وراء ذلك كله

اجتهد في أن تملأ نفسك بالكمال لا أن تملأ بيتك بالمال فإنه لا
سعادة الا في النفوس

النفس تتكامل وتزكو بأنوار العبادة متى صدرت من قلب امتلأ
توحيداً وقاض إخلاصاً ، وما شرعت العبادات الا لتطهير القلوب بما يدخل
فيها من تلك الانوار

لم يقبل الانسان القلب في الاخلاق المختلفة والاحوال المتضادة الا
بواسطة امتزاج الروح بالبدن والا كان شيئا بسيطا لا يقبل المتضادات
يجب على الانسان أن يحاول غرس ملكة الصبر في نفسه وعدم

التأثر بالعوارض التي لا بد منها لكل من كان في دار الحوادث والفناء
وانك في هذا الكون الذي تقتضي ذاته التغير والتكدير وتأبى طبيعته
البقاء والصفاء بمنزلة المحكوم عليه بالقتل نهائيا فلا سبيل له الا أن يوطن
نفسه على الصبر ويحرك منها ملكة الشجاعة حتى يهون عليه ذلك
المصاب الذي لا بد منه ، وأما الذين لم يمرنوا أنفسهم على هذا الخلق
الفاضل وان أمكنهم أن يتشبهوا بذويه في ضبط ظواهرهم فلا يمكنهم
أن يحفظوا بواطنهم التي لم تنصبغ بصبغة الفضائل من التألم والاضطراب
ان من العار أن يصبر السراق وقطاع الطريق على ما يلاقون من
المكاره ويتوقعون من المهالك في سبيل عرض لا قيمة له ولا تصبر
أنت على طلب السعادة الابدية

إذا تمت الالة ساقت البدن من السقم الى الصحة ومن النقص
الى التمام ويتعذر ذلك في لذات الاجسام (فاطلبه ان شئت في
الذائد الروحانية)

يلزمك أن تعرف طبيعة الدنيا حتى توطن نفسك على مقتضياتها
فلا تجزع عند حصولها ومن طمع فيما لا يكون أنه يكون فقد طمع في
الحال ومن طمع في الحال لم يزل محزونا

ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
دواء النفوس انما يكون باقتلاع الأدوية من أصولها وأن الذي
قعد بالناس عن درجة الصحة الحقيقية مع كثرة تعلمهم هو ملاحظة
فروع الادواء وآثارها لا مبادئها ومناشئها

أقرب طريق الى السعادة هو الدين ورسوخه في النفوس وهو
أنجع وسيلة للاتحاد بين أفراد الامة وكثرة الخير وقلة الشر وراحة
الحاكمين والمحكومين واذا خلت النفوس من الدين لم تكد تنفع
تعاليمها فان نظرها اذ ذاك يكون قاصراً على المصالح التي تعود عليها،
والذالك نراها تنقلب عن الفضيلة متى كانت مصلحتها الشخصية
في ذلك فانها هي المحور لديها، والمصالح كلها وان تعددت أنواعها ترجع
عند التحقيق الى مصلحة الشخص ولا تجد أحداً يعمل لغير ذلك (الا
المتدين الذي تخلص من الاغراض كلها وصار عمله خالصاً لوجه الله
تعالى) وفضلاً عن ذلك فان الشريعة جاءت بأدوية كثيرة في علاج
النفوس ولا يوجد في غيرها الا بعض تلك الادوية

من صحبتك فانما يصحبك لغرض يعود عليه ولا يكاد أحد
يعمل عملاً لغير غرض الا الكاملون من ذوى الدين الذين خلصوا
من الاغراض كلها (وقليل ما هم)

اجعل المال وسيلة الى توفر صحة بدنك وراحة قلبك ولا تعكس
الامر فتكون قد قلبت الحقائق وعكست المراتب وجلبت لنفسك الشقاء
الشريعة جاءت بطلب الدنيا والآخرة ولكن على ميزان عدل
وحدود محدودة

الولوع بالا كثر من الملاحى انما هو لعدم تحصيل السعادة في
النفس، فلضيقتها وعدم ابتهاجها وسرورها بلذاتها الذاتية احتاجت الى
أن تتسلى بالمسلات الخارجية، وربما اختارت السكر لتستريح من

ذلك الهم الذي يساورها ، وأذكر هنا قوله تعالى (ومن أعرض عن
ذكرى فإن له معيشة ضنكا)

ما قد بدأ كثير الناس عن طلب السعادة الحقيقية الا توهمهم
أنه لا سعادة وراء ما هم فيه وانها قاصرة على تلك السعادة التي كلها
شقاء وعناء

انما غلب الطيش على الانسان دون الرزاة والاناة لوجود الوهم
فيه وتسلط الشيطان عليه وهو مخلوق من مارج من نار فهو في غاية
الاضطراب

قهر النفس حتى تدعن لاحكام العقل ضرورى وان كان
شديداً جداً لغلبة الشهوة وقوتها ولذلك سمي جهادا في الحديث
الشريف (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك)

لا بد لك من النظر الى عالمك الاسفل بمقتضى الضرورات
الطبيعية ومن النظر الى عالمك الاعلى بمقتضى الشوق الذاتى الى
الكمال ، واياك أن تمنعك البيئة التي أنت فيها عن رجوعك الى
مبدئك الاول بحالة أكمل وهو غايتك الاخيرة، فهو بمنزلة النتيجة التي
لا بد فيها من الحركتين

اجعل الدنيا والآخرة بمنزلة امرأتين لا بد لك منهما ولكن
احدهما من رعاك الناس وسفلتهم غير أنها ضرورية لخدمة الاخرى
وأنت مسئول عنها جميعاً

لا تستريح ما دامت قواك متغلبة متنازعة تجذب كل واحدة
منها قلبك نحو مطلوبها

صالح أعداء قواك ولا تأمنهم وخادعهم ما استطعت فالحرب
خدعة حتى يقوى سلطان عقاك وينتظم جيش علمك وتديرك ، وإذا
لم تكن غالباً فاحذر أن تكون مغلوباً

أخلاق الانسان وغرائبه لا تكاد تحصى ومنها ما لم يعرف
الى الآن

النفس عدوة تفعل معك من الشر والوقوع في المذلة والشقاء
ما لا يفعله الأعداء واذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم (أعدى عدوك
نفسك التي بين جنبيك) ولكنك مجبور على مصادقتها مع الحذر منها
من عرف الانسان بظاهره دون حقيقته فما عرفه وقد اقتدى
بإبليس في ذلك حيث قال (خلقتني من نار وخلقته من طين) فان
ذلك لصورهما الظاهرية دون الباطنية

ان الانسان لا يصلح أن يكون خليفة عن الله تعالى في أرضه
ومخلوقاته حتي يكون خليفة عنه في عوالمه التي فيه ولا يمكنه أن يعرف
حقوق تلك العوالم الخارجية ويقوم بالعدل فيها على ما ينبغي ويعرف
كيف يعاملها على ما يجب الا اذا كان كذلك في عوالم ذاته الباطنية
ولولا أن فيه تلك المراتب كلها ويتأني له أن يعرفها من نفسه ويدرك
واجباتها ومقتضياتها وكيفية معاملتها لم يصلح أن يكون خليفة عن الله
على جميعها وهو سر بديع يفرح به من يعرف قدره

قد خلقت ملك عظيم ولكن قد عاقبتك عنه الشهوات ومن
استطاع أن يكون ملكاً كبيراً ثم رضى أن يكون عبداً حقيراً
فليس بعاقل

أترضى من الملك الرفيع وعيشة مع المملأ الأعلى بعيش البهائم؟
الانسان معرض للآلام كثيرة لم يعرض لها الحيوان ولذلك كان
ضعيفاً حتى في سلطان شهوته عليه ضعفاً لا يكاد يوجد في غيره من
الحيوانات فاذا الحيوان أسعد من الانسان ان لم يدرك كماله المقصود منه
العاقل من أزال عن نفسه أدناس الرذائل حتى يظهر قلبه وتعود
له صحته قبل أن يتبادى به المرض فتبطل منه تلك القوة التي تؤهلها
لأن يسمع من المملأ الأعلى وأن يبصر عجائب الملكوت ، فاذا بطأت
منه تلك القوة التي صار بها انساناً فقد وصل الى حد الموت واذا
لا تنفع فيه العظام ولا تؤثر فيه العبر (فانك لا تسمع الموتى ولا
تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) وقد علمت أن للقلب بصراً يرى
مالاً يراه الناظرون وسمعاً كذلك الى آخر ما سبق لك ، (فانها
لا تعى الابصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور)

الانسان قد يكون ذكياً جداً في بعض الامور لكن
يكون ناقص التعليم أو التركيب فيكون أحق جداً في بعض آخر
والانسان اتفرد من بين سائر أنواع الحيوان بأنه يجمع بين المتضادات
وأنه قد يكون فيه قوة هائلة يستغرب منها وضعف شديد يؤسف عليه
الناس مختلفون في الاستعداد الى الكمال فمنهم من بطل فيه

ذلك الاستعداد فلا يشتاق اليه أصلاً ، ومنهم من له ما يحرك شوقه
الى الكمال ولكن لا ينهض به الى السلوك في طريقه فيقتصر على
التشهى والتمنى لا غير ، ومنهم من قوى استعداده للكمال نوعاً ما من
القوة فسلك طريق الخير وتوجه وجهة الكمال ولكن لم يلبث بعد
السير فيه أن ضعفت عزيمته وفترت همته ، ومنهم من علت رتبته عن
ذلك فسار شوطاً بعيداً فى اكتساب الفضائل ولكن وقف به استعداداه
دون الغاية

النفس اذا قويت وتكملت وكان السلطان لها لا للجسم بسبب
رجوعها الى فطرتها الاولى أمكنها ان تخوض البحار وتقتحم النيران
فان هذا الكون بمؤثراته لا يؤثر فيها فانها من عالم أعلى لا يخضع
لنواميس هذا الكون السفلى كما حصل للانبياء عليهم السلام ، وان كان
لا بد لك من الرجوع الى المقررات الحديثة أو بتعبير آخر الى العلوم
الغربية فانظر الى ما ظهر لهم من حوادث التنويم المغناطيسى والى من
خاض النار المتأججة ولم يؤثر فيه محلول النوشادر المركز كما فى مجلاتهم
العلمية ، فاذا بلغك ذلك عنهم وصدقت به فاعلم أن سره ما ذكرنا
أنت مخلوق للحياة الابدية ولذلك أودع فيك النظر فى
العواقب

يجب على طالبى طب النفوس المحافظة على صحتها بالجرى على
قانون الحمية ورد صحتها اليها ان كانت قد زالت

لا بد أن تقبل صديقك على ما فيه من عيب حتى تنتفع بما فيه من خير
دواء كل داء من الادواء انما يكون بمعرفة أسبابه وعوارضه ،
وأما تشخيص ما يكون من جزئيات الادواء ومعرفة أسبابها الجزئية
وكيفية التحرز عنها فانما يرجع في الحقيقة الى صاحبه وهذه القواعد
العامّة الكلية تكون له معونة على ذلك ونبراساً يهتدى به في ذلك
الطريق حتى يمكنه أن يستخرج منها أحكاماً جزئية لادوائه الجزئية
التي هو أدري بها

يجب عليك في معالجة أي داء من الادواء الاخلاقية أن تعلم
وجه قبحه وحسن مقابله وما يترتب على كليهما في الدنيا والآخرة ثم
تعمل على اقتلاعه من نفسك بتمرينها على الفضيلة المرة بعد المرة ولا
بد أن تلاقى عناء شديداً حتى تعتاد الفضيلة ، فلا بد لك اذاً من الصبر
الصادق مدة هذا العلاج وعليك أن تتباعد عن كل ما يهيج منك
الشوق الى ذلك القبيح ، فتباعد عن رؤية الصور الجميلة مثلاً في علاج
شهوتها حتى تنساها النفس فلا تزعجك من أجلها ، ولا تتعرض لما يثير
غضبك حتى تتمكن منك فضيلة الحلم ، ولا تغشى مجالس عشاق الدنيا
كثيراً حتى يخف عنك الشره فيها والحرص عليها والتألم من أجلها ، فالبعد
عن أسباب الشر أعظم علاج وأنجع دواء ، والصبر عليه أيسر من الصبر
عن شهوة النفس عند ما تراها حاضرة أمامها ، وإن كان يلزمك عند
ما يهيج غضبك أن تكظم غيظك ولا تسترسل مع نفسك وكذلك
عند هيجان الشهوات كلها ، ولكن أخاف عليك أن تغلبك نفسك

قهرًا عنك (والأشياء يسهل تلافيتها قبل أن تصل إلى غايتها) ،
 فتدارك كل شيء في مبدئه والا خرج عن طوعك واختيارك ،
 وإياك أن تغشك نفسك أو يخدعك وهمك ففتنضيات الطبائع
 لا تغير وطالما كذبت عليك فيما وعدت وغشيتك فيما زينت (فإذا
 لا بد في كل علاج من العلم والعمل والصبر والحزم والحكمة حتى ترسخ
 ملكة الفضيلة المطلوبة في نفسك فتستريح اذ ذاك من العناء وتكون
 لذتك بعد فيما كنت تنفر منه أولاً وما أجدرك اذ ذاك أن تقول :
 ونفسي كانت قبل أمانة متى أطعها عصت أو أعص كانت مطيعتي
 فأوردتها بالقهر كل كريهة وأتعبتها كي ما تكون مريحتي
 فعادت ومهما حماه تحملا : ه منى وان خففت عنها تأذت
 اجتهد جهدك في البعد عن خطاء السوء وابعد بنية عنهم فالحمية
 رأس الدواء ،

قد اكتشفوا من خواص المعادن والنباتات ما جعلنا في عالم
 جديد ولا بد أن يكون فيك أيها الانسان من الخصائص والاسرار
 ما يفوق ذلك كله ، متى توجهت الى شيء فقد تقيدت به وانحصرت فيه
 الدنيا أقل من ان تحتاج الى هذا التعب وتقصها أظهر من أن
 ينه عليه ولكن أحببها النفوس حبا شديدا فعميت عن نقائصها (وعلى
 قدر محبة الشيء يكون عمل الوهم فيه وتخلي العقل عنه)
 ما تكبر المتكبر الا لصغر في نفسه وانحطاط في همته ولولا ذلك
 ما استعظم ما تكبر به

يمكنك ان تحرك من نفسك احساسا ترتاح اليه فان أملك انما يكون من تصورات تتصورها ، ويمكنك أن تقلع عنها بالسير في تصورات أخرى ولو بأسباب خارجية تعينك على ذلك أو بآمال تحركها من قلبك وان كانت كاذبة لان النفس تركز الى الوهم وتتخددع بالوعد فتغرق في لذة تلك الاماني وتغفل عن التفكير فيما يؤلم

حرك منك اذا اغتمم مت فانهن مراوح

وقد صرح علماء التربية بأنه يمكن الانسان أن يولد لنفسه احساسات يرتاح اليها بل قال بعضهم يمكنه أن ينقل نفسه من طبيعة الى طبيعة أخرى وكثيرا ما يتسبب فيما يجعله صفراويا مثلاً بعد ان كان غير ذلك

يمكنك بالعادة أن تصل الى كل شيء فيصدر بلا تكلف ولا عناء كما تصدر عنك الافعال الطبيعية ، وفي امكانك أن تتعود اي شيء ، وفي امكان العادة أن تحولك الى أي شيء ، والنفس الانسانية من اللطافة بحيث تقبل كل شيء

حافظ على وقتك بقدر ما يمكنك فان وقتك أنفس الاشياء في حقك بل يمكننا أن نقول لك ان وقتك هو نفسك فاتق الله في نفسك

لا تكثر من توقع الضرر فتقع فيه كمن يمشي على حائط اذا أكثر من تصور الوقوع لم يلبث أن يقع ، واذا أردت ان تعلاه تعليلاً فلسفياً

قلت ان الجوارح تسارع الى تنفيذ كل ما يقع في القلب ولا يؤخرها
عن ذلك الا صدور حكم منه لما بعدم التنفيذ، فيجوز أن يقع في القلب
تصور أمر من الأمور فتسارع الجوارح اليه قبل ان يلتفت الى المنع منه
فيقع المحذور في لحظة التصور الذي طيرته الاعصاب الى الجوارح،
ولو تأخرت لحظة صغيرة بقدر ما تلتفت النفس لورد عليها ما ينسخه
ولكنها لا تعرف الانتظار ولا التواني، وان شئت فلاحظ نفسك عندما
تريد أمرين مرتبين ترتيباً طبعياً تعلم انك اذا كنت مشغولاً بالثاني
منهما ظهر على لسانك قبل الاول منهما ثم تذكر الترتيب فتدرك
غاطك ، ولعل توقع الخير أو الشر من أسباب وقوعه لدى التصريف
الالهي كما يشير اليه حديث (أنا عند ظن عبدي بي)

لا تقدم على أمر من الأمور الا بعد الفكر والروية وتعود ذلك
وعاقب نفسك اذا أقدمت على شيء متسرع طائشة بمقتضى سائق
الشهوة غير مسترشدة برأى العقل ولا مستضيئة بنور البصيرة
حرك من نفسك الهمة العالية حتي لا تطلب الا معالي الاشياء
ولنا في هذا المعنى

تفكر كيف ترقى للمعالي	ولا تطلب صغيرات الأمور
فرب صغيرة ضيعت فيها	زمانا كان ينفع في الكبير
وفكرك في مدى أمر كبير	كفكرك في مدى أمر حقير

أعدد لأعدائك (من الشره والحرص والغضب وأمثالها) عدة في حالة
الفراغ الذي يمكنك من التمرن على الفضائل وتعودها قبل أن تهجم عليك
سباع تلك الرذائل

إن الصيغة في غالب الناس مبنية على تبادل المنافع بل على المراجعة
فيها وإن الإنسان لم يتحمل ائقال الأصحاب إلا بناء على حكم الأوهام
أو مقتضى الشهوات، وأن ما تلاقيه ممن تعرف أكثر مما تنتفع به منه
إذا ما ضاع منك اليوم خل فلا تحزن عليه الدهر وافرح
فإن الخل عبء أي عبء فهمما استطعت أن تلقيه فاطرح
قد يكون الإنسان ساذجا في أمر وفيلسوبا في آخر

يكاد يكون الإنسان أسما بلا مسمى فلا تدهش عند ما تسمع
قول القائل :

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور
أو قول الآخر

أني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا
وإن شئت فحرب حتى تعرف ذلك بالبرهان (ولكن خير لك أن
تقارن هذا الموضوع)

ليس يرقى الإنسان بصنغته فإن النمل والعنكبوت أصنع منه ولا
يحسن ملابسه فإن كثيرا من الطيور أبهج منظرا وأرق نقشا ورقشامنه،
بل ترقيه بالحقيقة على سواه إنما هو بأخلاقه وقوة استعداده لمعرفة
مالا يصل إليه الحيوان من عظمة المبدع وجلاله

الخير المحض لا يوجد في هذا العالم لمكان التغالب ومحبة الذات
فكل ما يكون فيه سعادة قوم يكون ضرراً على قوم آخرين ولو من
بعض الوجوه ، فإذا الخير المحض لا يكون الا في عالم آخر ، أو بعبارة
أخرى لا يجده هاهنا من الناس الا من تخلص من سلطان جسمه
وعلى عليه سلطان روحه فزالت عنه الانانية والمطالب الشخصية وصار
ينظر في الاشياء بنظر الله الحكيم الرحيم (وذلك لا يكون الا لكل
المؤمنين)

من سعادة المرء أن يتفق له في صغره من يمرنه على الشريعة ويفرس
في قلبه محبتها وان من السعادة على الاطلاق أن توجد في بيئته طيبة
تسوقك الى كمالك

الانسان الكامل بالنسبة الى بقية الناس كالقلب بالنسبة الى
سائر الاعضاء أو كالانسان بالقياس الى الحيوان
لا تطمع في أن تؤخر قلبك عن شيء يحبه فان المحبة جذابة
لقلب المحب شاء أم أبى ، واذا صرفته عن محبوبه لحظة كما تفعله في
صلاتك لم يلبث أن يجذب اليه بجاذبية المحبة ، وسر ذلك ان هذا
الجذب طبيعي فان أخذك عنه أمر تكافى فكري لم تستطع ان تستمر
عليه (والغفلة طبيعية في الانسان) ولذلك لا تتم له الامور الفكرية
مهما كانت عنايته بها ، فان شئت ذلك فاجتهد في اخراج تلك المحبة
من قلبك (والحب بالتعجب والبغض بالتبغض)

انما اعطاك الفكر كي لا تقف عند حد ولكن شرفك في أن يكون

الكمال لك طبيعي. ونو جعل أمورك كلها خلقية ضيعية نوقفت عند حد محدود، كل يطلب السعادة ولكن قل من يهتدى اليها وأكثر الناس يظنون ما ليس بسعادة سعادة

كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة واجتلاب المنفعة والمرء يغلط في تصرف حاله فلهما اختار العناء على الدعة وأما من عرف طريقها على التحقيق فلا يقعه عنها الا ضعف العزيمة أو غلبة الشهوة ولا تكاد تجد في الناس غير أرباب الشهوات ضعاف العزائم الذين لا يتبتون على السير في طريق الكمال وان كانوا يشتاقون اليه

لكل الى شأو العلا وثبات وإنسك عزيز في الرجال ثبات السبب في عدم ادراك الجهلاء للذائد الروحانية أنهم لم يتكلموا فهم بمنزلة الصبيان الذين لا يدركون لذة الملك والجاه وهي من أعظم اللذات، وفي امكانك ان تبطل استعدادك لاي شيء من الاشياء حتى لا تدرك له معنى وان كان من أحسن الاشياء وأنفسها أكثر الناس الآن أشبه شيء بمن قالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وان خالفوهم في العقيدة

العقل كالبحر والشرع كالضوء ولا بد منهما الشرع بمنزلة أكسير مفيد في ازالة أمراض الحياة وأدواء الاجتماع وممرته الفوز بالسعادتين وقد تولى ايجاده الحكيم العليم ان الذي أخر الناس عن العمل بالشرعية عدم بحثهم عما فيها

من الأسرار والحكم وما تمسك بها قوم إلا ارتقوا مادياً وأديباً وسعدوا حساً ومعنى وفازوا بالدنيا والآخرة ، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك وقد سماها الله تعالى روحاً في قوله (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وجعلها حياة في قوله (لينذر من كان حياً)

كثيراً ما تستخدم إحدى القوى الثلاثة (الشهوية والفكرية والغضبية) غيرها في تحصيل مطالبها فيغضب صاحبها ويفعل ما يفعل من أجل شهوة المال أو الجمال مثلاً كما تستخدم الفكر عند شدة غلوئها وعظم سلطانها في استنباط الحيل إلى ما ربحها سائلة حريره بالكلية مبطله منه مقتضياته الذاتية ملزمة إياه أمثال إشارتها والخضوع لأوامرها مهما كانت وكيف كانت فتعاون القوى كلها على شيء واحد وتتوجه جهة واحدة وإن كان المطلب في الحقيقة لأحدها ولذته راجعة إليها دونها

(الفرق بين أهل الدين وغيرهم)

الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين والا غلبت عليه الأغراض ما دامت القواعد التي يرسمها لا يراد منها إلا المصالح الحيوية التي تفرق بينه وبين غيره

وما دامت هي المحور والأشياء لأجلها فلا بد أن يقدم مصلحته على غيرها وهي مقدمة بالطبع حتى أن المؤمن الذي يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة يمكنك أن تقول أنه يطلب المصلحة الشخصية

وهي ادخار الأجر وجزيل الثواب عند الله تعالى ، ومن طلب مصلحة أمته فهو إنما يطالب في الحقيقة مصلحة نفسه ولكن ما ذكرناه في المؤمن لا يمكن أن يكون في غيره ولذلك بينما نجد الواحد من غير أهل الدين انساناً يدافع عن الانسانية بكل قواه نجده حيواناً يفترس بمخالبه كل ضعيف ويبتلع ما يمكنه أن يسيغه من بني نوعه

وسر ذلك هو ما ذكرنا من أن نظرهم لا يتخطى المصالح الدنيوية والمنافع الحيوية فهم وراءها كيف كانت وأين كانت والمعامل يدور مع علتها وجوداً وعدماً، ولا تكاد توجد فضيلة العدالة والانصاف الحقيقي الا اذا انتفت تلك المصلحة الذاتية والا فلا عدالة ولا انصاف فالأمر كلها يمكننا أن نقول انها راجعة الى المصالح الشخصية وأن الانسان يحب نفسه ويحب كل شئ من أجلها ولصن هناك فرق كبير بين أهل الدين وغيرهم

انما سهل على الناس اتباع الغربيين وراق في نظرهم أن يقلدوهم بسرور وابتهاج في كل ما هم عليه لأنه جاء على مقتضى الهوى فسارعت اليه النفوس

من تطهر قلبه وانجلت عنه الغشاوات علم الحق حقاً والباطل باطلاً فلا يشغله الا ما يعنيه

من استراح من قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الطبيعية فقد سعد سعادة أبدية

قلما يثبت شيء على خلاف مقتضى الطبع فان أردت ثبات
الأشياء وتوابعها فحاول أن تجعلها طبيعية حتى يتم ما أردت
النفس يشغلها أقل شيء وإذا اشتغلت به غفلت عن غيره وان
كان لازماً من لوازمه

مبدأ الشهوات تصورات ثم آميال ثم شهوات ويمكنك أن
تقسمها في المرتبة الاولى والثانية لا في الثالثة الا اذا كنت من
المؤيدين

اذا هاجت الشهوة أبطلت حكم القوة النظرية بالكلية
واستخدمت الوهم والخيال

أنجع علاج لاصلاح النفوس هو غرس محبة الله تعالى في القلب
حتى تذهب الاخلاق الرديئة وتظهر الفضائل ظهوراً طبيعياً وهكذا في
معاملة الاصحاب أو الرؤساء اذا تأصلت المحبة ظهرت الحقوق المطلوبة
والآداب اللازمة بلا تكلف ولا عناء

ليس يراد منك ابطال قوة الشهوة والغضب فانه لا يمكنك
الخروج عن حكم البشرية بالكلية وأيضاً هي مخلوقة فيك لحكم جليلة
ولكن يراد منك ايقافها عند حدها واجتلاب الخير بها وعدم التوغل
في مقتضياتها

النفس مجبولة على رذائل كثيرة لا بد من ازالتها، ولكونها جبلية
لم يحس بها صاحبها لانه لم يعهد نفسه خالياً منها وقتاً من الاوقات ولم
تخلق فيه أضدادها من الفضائل حتى يعرفها

لو عرفت ما يلاقيه طلاب الدنيا من الآتاعاب والمذلات
والحسرات والخمزر والوجل والنفاق لرحمتهم ورثيت لهم
لا تورط نفسك فيما يجلب لك الشقاء في الدنيا والآخرة من
أجل أولادك وأهل بيتك اغتراراً بمحبتهم وما تراه منهم فانهم إنما
أحبوك من أجل ما يعود عليهم منك لا من أجل ذاتك فلا تكن
مخدوعاً في عقلك مغبوناً في عملك
لا تتكالب على طلب الدنيا بكائيتك وأخرج نفسك منها طوعاً
قبل أن تخرج منها كرهاً
لا بد أن تلاقى من شدائد الحوادث وآلام الأمراض وحرارة
الموت ما لا ينفعك فيه إلا الملكات الفاضلة
اطلب تلك الحقائق التي تحس بها ولا تعرفها
تعرف إلى ذلك العالم الذي تصير إليه بعد الموت لئلا تدركك
هناك وحشة الغريب الذي أمسى بغير بلاده مع غير أشكاله
ليس من العقل أن تعلم كل شيء في هذا العالم وتجهل كل شيء
في العالم الآخر ولا بد لك منهما
ليس من العقل أن تثبت قدمك وتوطد أمرك فيما لا بقاء له
ولا تكون كذلك فيما لا فناء فيه
تعرف إلى الزوحانيين وأعمال بعملهم حتى يكون لك في العالم
الآخر جاه (أو محسوية)
من عجيب أمرك أنك تحب علو الجاه ورفعة الذكر في هذا

العالم وترضى لنفسك بالتحول الابدى والسقوط السرمدى فى العالم
الآخر الذى لا يزول

انك لم تخلق عبثاً ولن تترك سدى فتفكر فيما أنت صائر اليه
لئلا تندم حيث لا ينفع الندم

لا تظن أنك هذا الهيكل الجثمانى والشكل الظاهرى فأنت شئ
آخر أعلى وأعلى

حاول أن تدخل العلم الى أعماق قلبك ليتملك نفسك فتنتفع
به واحذر أن يكون فى ظاهره فقط فتكون من منافق العلماء الذين
قالوا علمنا ولما يدخل العلم فى قلوبهم

حيثما تقلبت وجدت كثيراً من أهل العلم ولكن قل من
تكيفت به نفوسهم

(تأثير عمل الخير والشر فى نفوس العاملين)

ان الذنب ينكت فى القلب نكتة سوداء فاذا بادرت بالندم
أمحى من قلبك ذلك السواد وان توالى الذنوب بلا تطهير النفس منها
بماء التوبة اسود وجه القلب كله فكان بمنزلة المرأة التى فسدت بالكلية
وكثيراً ما يحركك الذنب الى الذنب ويسوقك الشر الى الشر
حتى تصل الى أفظع الحالات وأسوأ الغايات كما قال تعالى (كانوا
يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا
يعتدون) فجعل معاصيهم فى بدء أمرهم سبباً لكفرهم وارتكابهم أفظع
أنواعه وهو قتل الانبياء بغير حق

وإذا يكون قد تربت فيه ملكة الشر فلا يميل الى غير القبايح ولا
يستحسن غير الخبائث ويكون ممن زين له سوء عمله فرأه حسناً
زين في عينه القبيح كما زين في عين غيره الحسن

وحينئذ لا تنفع فيه المواعظ بل ولا العقوبات الشديدة ، وانظر
الى حال اللص الذي يحكم عليه بالاحكام القاسية المرة بعد المرة وهو
لا يرعوى ولا ينزجر، واذكر هنا قوله تعالى (انا جعلنا في أعناقهم
اغلالاً فحقى الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً
ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فليس ذلك الا اغلال
الملكات السيئة وسد الطلمات المتراكمة، وتأمل قوله تعالى (ولو ترى
اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من
المؤمنين) ثم قال (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) وأن
الانسان ليستغرب جداً عند ما ينظر في هذه الآية كيف يعودون
الى ما نهوا عنه بعد أن عاينوا النار ووقفوا عليها ولكن اذا عرف أن
ملكة الشر قد تأصلت فيهم واندرجت في سلك الغرائز الخلقية
والطباع الاصلية علم أنها لا بد أن يظهر مقتضاها قهراً عنهم، وقال الله
شر الملكات الخبيثة وأرشدك الى تدارك الامور في مباديها قبل أن
تغلبك وتخرج عن ارادتك

وأما الحسنة فتورث في القلب نوراً فتزول ظلمته شيئاً فشيئاً
فيتخرج عن القبيح بقدر ذلك حتى يصل به الامر الى حد لا يمكنه

معه أن يفعل شراً ولا يقارف معصية وهو معنى الحفظ والعصمة وإن كان ذاتياً في الأنبياء

فإذا وصل إلى ذلك زالت حمايته بالكلية فأبصر عجائب الملكوت وأدرك سر الآيات واطلع على المغيبات وأمكنه أن يخاطب الملائكة ويخاطبوه لأنه التحق بهم وتمت المناسبة بينه وبينهم، والروح كما علمت من عالم النور فخالقها من جنس خلقهم

ولعلك بعد ذلك تفهم سر الوحي وصلاحيه الأنبياء له دون غيرهم وما ورد في القرآن من مخاطبة الملائكة لمريم حيث قالوا (يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) مع قوله تعالى (وإله جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) إلى آخر ما ورد في القرآن والسنة

وصاحب هذا المقام في لذة قد تصل به إلى حد الوله لما يرد عليه من الأسرار والأنوار والصفاء والبهاء واستجلاء الجمال الإلهي بما لا يكيف مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا يزالون عاكفين عليه أو متحركين إليه

كذلك أرواح المحبين دائماً تحركها الاشواق للعالم الأسنى وقد قال بعضهم نحن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف وقال غيره

عجبت لمن يخرج من الدنيا وما ذاق غير لذة الحيوانات فيها فاحرص على ما استفتت في هذا المقام من الأسرار النفيسة والحقائق البديعة وحرك من نفسك الشوق إلى بهجة ذلك العالم الرفيع

الذى هو عالمك الأعلى وقو ذوقك لنيل تلك اللذائذ التى هى أبهى
من كل ما أنت فيه وأرق من كل ما رأيت فى هذا الوجود
على نفسه فلييك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

(خاتمة فى بيان معنى العالم الذى نوه الدين بذكره).

يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والاحاديث
اغترارا بما معه من شهادة ما أنزل الله بها من سلطان أو تصنيف فى
الفقه أو النحو أو البلاغة أو الاصول أو نحو ذلك جاهلا أن ما افتخر
به من ذلك يوجد فى اليهودى والنصرانى وهما هى كتب مدارسهم التى
ألفها آباؤهم وعلماءهم يشهد لها الناظر ويعترف بفضلها المصنف، وكثيراً
ما سمعنا بشيء من هذا القبيل فى المسائل الفقهية عن مستشار نظارة
الحقانية وعن سردار الجيش المصرى بالسودان، وما تسمعه عن مستشرقى
أوربا أعجب وأغرب فهم شركاؤك فيما علمت فلا بد أن يكونوا
شركاءك فى خاصة ذلك العلم والا وجد الشيء بدون خاصته وهو محال
فاذا يجب أن يكون سر تفضيل العالم والثناء عليه من الله ورسوله راجعا
الى شيء آخر وأن تكون هذه العلوم التى ترفعنا بها على الجلاء
وامتلائنا بها عجباً وكبراً وغروراً وزالت بها سلامة فطرتنا وطهارة قلوبنا
بما أورثتنا من الصفات المهلكة ونخشى أن نكون ممن قال الله فيهم
(وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أشبه شيء بالصنائع التى
يتعلمها المسلم واليهودى والنصرانى ولا يرجع بها الفاسق عن فسقه ولا

يتميز بها عن بني نوعه الا على قدر ما يتميز العالم بصناعة النجارة مثلا عن الجاهل بها ، نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمرا وراء ذلك كله وهو الذي جعل العلماء ورثة الانبياء وجعل خشية الله خاصة من خواصهم (انما يخشى الله من عباده العلماء) وكان مجلس واحد من مجالس العالم خيرا من عبادة ستين سنة ذلك العلم الذي يبلغ بك تلك الغاية ويحلك في تلك المنزلة الرفيعة ومن أجاهل احترامك الجهلاء وعظمتك الكبراء معتقدين أنك عرفت ما لم يعرفوه ووصلت الى ما لم يصلوا اليه

والقلوب الانسانية تحس بشرف العلم الاعلى ومكانة ذويه وتجل الروحانيين الربانيين اجلاله للملائكة المقربين وتنظر اليهم نظر أهل الارض لأهل السماء على موجب ذلك الاحساس الذي لا يخلو منه انسان فيه روح الانسانية

ذلك العلم يحل عن أن يكون هو العلم باحكام الفاعل والمفعول والتصغير والتكبير والمسند والمسند اليه والحقيقة والمجاز وتناقض الموجهات وأحكام المختلطات وفروع الطلاق والبيع والجنائيات الى آخر ما اشرأبت به الاعناق وعظم فيه السباق وتبجحت به النفوس وارتفعت به الرؤوس بل يجب أن يكون هو العلم بجلال الله تعالى وعظمته وبديع آياته وعظيم أسرارهِ في خلقه مع معرفة خفايا النفوس ودقائق مكرها وتلييسها وكثرة دسائسها وسرعة طيراتها نحو شهواتها فيتهموها في كل شيء ويعاملوها معاملة العدو المحتال ، باحثين وراءها في كل ما تشير به ، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين وشهوة خفية ، مجاهدين لها ما عاشوا ، ذائقين لقوله صلى الله

عليه وسلم (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) وقوله عليه السلام
 (رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر) وجلين من أن يكونوا
 ممن اتخذوا له هواه وأضله الله على علم ، فكانوا ممن عرفوا نفوسهم
 فعرفوا ربهم فامتثلوا قوله تعالى (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل
 الله) فعزلوها عن منصب الرياسة فتخلصوا من غوائلها كلها فلم يتحركوا
 الا لله ولم يسكنوا الا لله ولم ينطقوا الا لله ولم يسكتوا الا لله متحققين
 (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) فصبروا على بلائه وشكروا على
 نعمائه بل رضوا بقضائه وسارعوا الى رضائه فلم يجدوا في أنفسهم حرجا
 مما قضى وقدر بل سلموا له تسليما ، شأن العبد الصادق في العبودية مع
 مولاه ، فرقين ان يندرجوا في سلك من قال الله فيهم (ولو أنا كتبنا
 عليهم ان يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه) سائرين في
 الدنيا على قدم الانبياء يتجرعون في سبيل الحق شدة الازى ، كاظمين
 غيظهم ، صابرين على ما أصابهم بل عافين عن الناس محسنين اليهم
 مشفقين عليهم على نهج من قال الله تعالى في وصفه الكريم (حريص
 عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم
 يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة
 مقبلين على الله تعالى بكليتهم ، داعين اليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا
 عالمين أنها محل المحن ودار الفتن فلا يحبونها الا على نحو ما رسم الشرع
 لهم . مشفقين من قوله تعالى (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تفرنكم
 الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه

عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) مستبصرين فيها بما بصرهم سيدهم، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك عظيم عالمين آثار سريعة الفناء وشبكة الانقضاء يرون قريباً ما يراه الناس بعيداً

أرى الموت يغتال النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) مقتفين أثر من قيل له (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) واصلين إلى روح قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) محبين للمرشد الأعظم والنبي الأكرم الذي هداهم الصراط المستقيم وأخرجهم من الظلمات إلى النور محبة تزيد على محبة الوالد لولده والولد لوالده، متحققين بما جاء في حديث البخاري من قوله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) وما ورد في حديث البخاري أيضاً (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) فوصلوا بذلك إلى روح اليقين حتى صارت مظان ثوابه مواقع مرضاته تعالى مما تشرح له صدورهم وتلتذ به نفوسهم، عالمين أنهم لا يبلغون درجة الكمال وينتفى عنهم الحرج والمشقة ويصلون إلى

محل الأمن الا اذا تخلل ذلك جميع أجزائهم ورسخ في كل ذراتهم
فيميلون اليه ميلا طبعيا يتقاضى منهم المسارعة اليه والعكوف عليه
اذ هو محل الانس وحضرة القدس محتاين في تلك الحضرات من عرائس
الجمال الالهى ما يفوق كل نعيم ويحتقر معه كل لذة سواء حتى
قال قائليهم :

نحن في لذة (لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف) فكادوا
يهيمون بما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ويندوبون عند ما يوغلون
في سرادقات ذلك الجلال مدهوشين مما يذوقونه في تلك الحضرات
من مناجاة وألهامات وملاطفات وأنوار وأسرار فكانوا من قوم (يحبهم
ويحبونه أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين) ينيهون على ملوك
الدنيا استغناء وعزة على حين أنهم يتواضعون للفقراء ويخضعون للضعفاء
ولكن أبى لهم مقامهم الذى يعرفونه من أنفسهم وعزتهم التى يحسون
بها من أعماق قلوبهم أن يتواضعوا لاهل العظمة والكبرياء وقد قال
تعالى (ولله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون) الى
آخر ما يطول شرحه ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة وتخلصوا من كل رزية وأدركوا
من شريف الاحوال ورفيع المقامات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر فكانوا بذلك ورثة الرسل وقادة الامم ودواء
العلل وكواكب الظلمات وسرج المشكلات بهم تنحل العقد وتنفرج

الكرب (وراثه نبويه وخلافة الهية) ولذلك كانوا مرجع الامراء والكبراء حتى قال القائل

ان الاكابر يحكمون على الورى وعلى الاكابر تحكم العلماء
وقد قالوا ان الامة تفسد بفساد الامراء والامراء تفسد بفساد العلماء ، فانظر أين أنت من تلك المقامات والى أى حد وصلت من البعد عن تلك الصفات

أيها المتبجح بعلمك المترفع على بني نوعك الغافل عن كون الانسان لا يزال متعلماً طالبا من العلم ما يكون وراء ما علم وكما ازداد منه رياءً ازداد عطشاً وكما زاد فضله بان له جيله وقد قال تعالى لأعلم العلماء وأعظم العظماء (وقل رب زدنى علماً) وقال (وفوق كل ذى علم عليم) وقال (وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) وان العالم حقاً ليستحى من الله أن يتبجح بعلمه وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل والنقص والغفلة والنسيان ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الامواج وهو بساحله يرجو أن يتطير عليه من بحره رشاش ينقع به مزيد غلته ويشفى به بعض علته وأن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء انظر الى ذلك كله ثم قل لى بعيشك هل أحبت النبي صلى الله عليه وسلم حباً وجدانياً يزيد على محبتك للناس أجمعين وهل صار هواك تبعاً لما جاء به بل هل سعيت الى ذلك سعيه يوماً من الايام وآلمك من أجله ضميرك وعاتبتك عليه نفسك أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حباً يهون عليك قضاءه ويخفف عنك بلاءه

أم هل صدقت في بيع نفسك لله تعالى (وقد جعل ذلك من صفات المؤمنين فضلاً عن العلماء منهم) فخلصت أعمالك من الأغراض والشوائب حتى صارت كلها لله فلم تتكالب على أمورك الشخصية ولم تنهالك على شهواتك النفسية ولم تذلل لأهل الدنيا ذل العبيد ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لشام الطباع، وهل ذقت لعزة المؤمنين طعماً أو عرفت لها معنى، وهل أنت ممن قال الله فيهم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أو ممن قال فيهم (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) وهل أنت ممن يحب لأخيه كما يحب لنفسه، وهل أنت ممن يقول لأخيه عند ما يقابله اجلس بنا ساعة نوؤمن كما كان يقول ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعضهم لبعض، وهل أنت ممن (اذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) وهل وهل وهل الخ أم أنت ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه وقد أحاط به الشره واستعبده حب الدنيا فليس يهمه إلا شيء يعود عليه ودرهم يصل إليه فقافته عزة العلماء وثروة الأغنياء فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء

نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول ما تسعر به النار يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه فيطيف به أهل النار فيقولون له مالك وقد كنت تأمرنا وتنهانا فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنها كم عن المنكر وآتية) كما

يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) وقد أوحى الله الى بعض أنبيائه (قل لعلماء السوء ألسنتكم أحلى من العسل وقلوبكم أمر من الصبر أفبى يستهزئون وإياي يخادعون فوعزتي وجلالي لأتيحن لهم من الفتنة ما يدع الحليم حيران) وفي الاثر (لا تجالسوا من العلماء الا من يأخذ بكم عن محبة الدنيا الى محبة الله وعن الكبر الى التواضع وعن التباغض الى التحابب) ولا قدر للدنيا حتى نبيع بها السعادة الابدية ، وقد قال بعض الملوك عند ما حضرته الوفاة كنت أظن اني ملكت كل شئ فاذا كل شئ لا شئ

وفي الاثر أيضاً (أعظم الناس ندامة صانع المعروف عند من لا يشكره وعالم فرط في علمه فلم يعمل به حتى حضره الموت) وقد سقت لك ذلك عسى أن يحرك مني ومنك شوقاً الى العمل بالعلم وندماً على ذلك العمر العزيز وخوفاً من أن يخاطبنا الله عز وجل يوم القيامة بقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) ورجاء في أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً

نحب الايام بنا شب	ما أسرع ما تصل النجب
والشمس تطير بأجنحة	والليل تطايره الشهب
والدهر يجد بفعل الجـ	د فليس يليق بك اللعب
ما القصد سواك فخل هوا	ك وكن رجلاً فلك الطلب

سل دهرك أين قرون لار ض يجيبك لهم ذهبوا
 ساروا عنا سيراً عجلاً فكان مسيرهم الخلب
 ما أفصحهم ولقد صمتوا ما أبعدهم ولقد قربوا
 يلاعب جد بفعل الجد مدفليس الأمر به لعب
 واحذر دنياك وزخرفها فجميع مناصبها نصبو
 فكأنك والايام وقد فتحت باباً فيه النوب
 وبقيت غريب الدار فلا رسل تأتيك ولا كتب
 وسلاك الأهل ومل الصبح ب كأنهموا لك ما صحبوا
 فاذا تفر الناقور جثو ت ويومئذ يوم عجب
 فيصبح السمع ويبحثوا الج ع ويجري الدمع وينسكب
 وجميع الناس قد اجتمعوا ثم افترقوا ولهم رتب
 ذا مرتفع ذا منخفض ذا منجزم ذا منتصب
 فهناك المكسب والخسرا ن وثم الراحة والتعب

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني في الرد على الطبيعيين)

والحمد لله أولاً وأخيراً وظاهرآ وباطناً وصلى الله على سيدنا

محمد وعلى آله وصحبه وسلم